قواعد فهم القرآن

وتفسيره وتأويله

قواعد فهم القرآن

وتفسيره وتأويله

الشيخ فاضِل الصفَّار

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿١﴾

الْحَمْدُ للّه رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهدِنَا الصِّرَاطَ

المُستَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ

عَلَيهِمْ غَيرِ المَغضُوبِ عَلَيهِمْ

وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

الحمد لله رب العالمين بارئ الخلائق، أجمعين ثم الصلاة على أشرف خلقه وأعظم بريّته ومجلى نوره وعلمه وقدرته ووعاء إرادته ومشيئته محمد وآله الطيبين الطاهرين، لاسيّما بقيتهم وخاتمهم حجة الزمان وإمام الإنس والجان المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

واللعنة الدائمة الأبديّة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾

سورة الإسراء: الآية ٩

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ۝ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

سورة آل عمران: الآيات ٧-٩

المقدمة

وتتضمن كلمتين:

الكلمة الأولى: أهمية البحث وخصائصه

الحاجة إلى القرآن كالحاجة إلى الهواء والماء، فكما لا يمكن للبشر أن يعيش بلا ماء ولا هواء، ولا يمكن لعقله وروحه أن تكون إنسانية عظيمة في مبادئها وأخلاقها دون أن تستقي من القرآن وتتعلم من علومه.

وهنا تظهر أهمية أمرين:

الأول: معرفة حقيقة القرآن ثم فهم آياته ومقاصده وآثاره.

والثاني: معرفة الأصول التي يعتمد عليها المتعلّم والباحث؛ لأجل فهم دلائل القرآن وإشاراته وظهوره وبطونه.

ومنذ قديم الأيام عكف علماء الإسلام على دراسة القرآن وتفسيره، والانتهال منه في مختلف مجالات الحياة، وقد تشعّبت لذلك مدارس واتجاهات، بعضها اهتمت بفهم دلائله اللفظية، وبعضها تتبعت دلائله التاريخية، وبعضها قصصه، وبعضها معارفه، وأخرى خصائصه وعلومه، وبعضها آثاره الروحية، وأخرى أحكامه الشرعية وهكذا.

وقد تحققت في هذه المجالات انجازات مهمة، ولكن تبقى الحاجة ماسة إلى فهم القرآن في كل زمان ومع كل جيل؛ لأنه بحر عميق لا تنفد

خزائنه ولا تنقضي عجائبه؛ لأنه لا يخاطب البشر في زمان أو مكان، بل يخاطب النوع البشري في كل الأزمنة والأمكنة، فهو بيان للناس يهديهم للتي هي أقوم في المجالات المختلفة.

ولعمري إنه يتجلى للمتدبر فيه بمعانٍ، وإذا أعاد النظر وكرر التدبر تجلت له معان أخرى، وكلما كرر الفكر والنظر تجددت له معان غير الأولى، هذا كله للمتدبر الواحد، فكيف بالأجيال المختلفة لو جعلت القرآن رائدها في العلوم والمعارف؟

وتزداد الحاجة لطلاب المعرفة وأهل الدراسات الدينية والعلوم الإسلامية لمعرفة القرآن ودراسة قواعد فهمه وتفسيره وتأويله؛ لما لذلك من أثر بالغ في فهم العلوم الأخرى، والوصول إلى المقاصد الإلهية في العلوم لا سيما علوم الدين ومعارفه، ولعل من الملحوظ قلة الدراسات التي قدّمت للباحثين دراسة وافية بهذا الغرض، وربما يجد المتتبع للمناهج الدرسية في الحوزة العلمية المباركة والجامعات والمعاهد المختصة ذلك جلياً، وغالباً ما يعتمد في الدراسات على جهد الأستاذ والطالب في المسائل المتعلقة بفهم القرآن وقواعد تفسيره وتأويله.

نعم ربما يوجد في المتقدمين من أبلى بلاء حسناً في ذلك، وقدم دراسات لها دور الريادة في هذا الفن إلّا أن التقدم الزماني وفخر الاسبقية قد لا يناسب كل زمان في الأسلوب أو في المضمون، وقد لا يلبي الحاجات في كل عصر. من هنا جاءت هذه الدراسة، والغاية منها تقديم نموذج لطالبي المعرفة لفهم القرآن وتفسيره وتأويله وظهوره وبطونه، وبيان العلاقة بينه

وبين السنّة، والأسس التي ينبغي أن يراعيها المفسّر والباحث لفهم الآيات القرآنية، وما تتضمنه من دلائل ومعارف، وتطبيقها على الحياة الإنسانية في مختلف جوانبها. وقد تميزت:

أولاً: أنّها جاءت بأسلوب متوسط يخدم غرض العلماء والأساتذة، كما يخدم طالبي المعرفة، فيوصل الفكرة إلى الباحث بيسر من دون أن يخل بعمقها.

ثانياً: أنّها مقتضبة في ألفاظها، مستوعبة لأهم ما يحتاجه الباحث من مبادئ تتعلق بذات القرآن وخصائصه وآثاره وغيرها من مبادئ للدراسات القرآنية.

ثالثاً: أنّها تعتمد على الوحي الإلهي المتجسد في القرآن والسنّة لفهم القرآن وإدراك مضامينه، فهي دراسة انطلقت من القرآن والسنّة لفهم القرآن وقواعد تفسيره لا من خلفيات فلسفية أو كلامية أو لغوية أو غيرها، وإن تضمنت بعض الإشارات إلى ذلك أحياناً .

رابعاً: أنّها جعلت كل آية بمفردها مداراً للبحث القرآني، ووضعت الأدوات التي يستعين بها الباحث في ذلك، وأولها أنه ينطلق من منطوق الآية لفهم مداليلها ولا يرجع إلى غيرها إلّا عند الضرورة؛ لأن كل آية هي في نفسها معجزة، وجاءت بياناً للناس وتخاطب عقولهم وقلوبهم، فالتأمل فيها يكفي لبيان مقاصدها لمن يتعمق فيها ويتدبر إلّا القليل الذي يستدعي الاستعانة بغيرها، مثل الحروف المقطّعة ونحوها، وعلى هذا الأساس جعلنا منهجنا التفسيري – إن صح التعبير بالتفسير – يقوم على أربع مراحل مترتبة طولياً[(١)]:

---

(١) انظر ما يقوله القرآن في سورة يس.

الأولى: فهم السياق والترابط الموضوعي في آيات السورة.

الثانية: شرح مداليل ألفاظ الآية ومفرداتها.

الثالثة: استخراج اللطائف والنكات المعرفية التي يشير إليها المنطوق بالدلالة العقلية بمراتبها المختلفة.

الرابعة: استلهام التعاليم والإشارات التي تلفت إليها الآية، وتهدي البشر إليها، ثم تعزيز ذلك بما يتوافق معها من روايات أو براهين عقلية واستدلالات منطقية، وبهذا يكون الباحث قد جعل القرآن منطلق المعرفة ومحور التعلم والتعليم، وصار نهجه قرآنياً يلازمه في الحياة، وليس كتاباً للعبادة يقرأ على القبور وفي المساجد ويتبرك به في البيوت، أمّا المعارف والإرشادات فتؤخذ من غيره، وهذا ما نهى عنه الله ورسوله واولياؤه وحذّروا منه أشد تحذير.

وفي الختام نقول: إن سعينا محاولة وربما لا تخلو من نواقص؛ لأنها على قدرنا، وأمّا قدر القرآن فلا يفهمه إلّا من خوطب به واطلع على أسراره منذ أول الخليقة وهم محمد وآل محمد عليهم السلام.

الكلمة الثانية: مقومات البحث

لدى التدبر في القرآن، والسعي لدركه وفهم مقاصده يجب البحث في جملة من الحقائق التي تعد من مقومات التفسير ذلك، ولا يمكن لأي باحث ومفسر أن يدلو دلوه في فهم الآيات، وبيان معانيها، واستخلاص غاياتها وإشاراتها إلّا بالنظر فيها والالتزام بها في بحثه، وتشتمل هذه المقومات على ثلاثة أبحاث:

الأول: يتعلق بالمقدمات التمهيدية، وتتعلق ببيان حقيقة القرآن وتفسيره وفرقه عن التأويل وضوابط كل منهما وما يحتاجه المفسر من أدوات في ذلك، وما هي غايته في التفسير؟

الثاني: يتعلق باستقراء مناهج المفسرين وطبقاتهم ومعرفة مزايا كل منهج منها، ثم النظر فيما له وما عليه، ثم بيان المنهج الأفضل الذي ينبغي أن يتّبع في التفسير وذكر ما يمتاز به عن غيره.

مع الإشارة إلى الإضافات التي أضافها المفسر والتي صارت داعياً له للبحث دون الاكتفاء بالتفاسير السابقة عليه.

الثالث: يتعلق بفهم الروايات الواردة في التفسير، وهي كثيرة، وبعضها أشار إلى الحقائق الملكوتية، والمعاني الغيبية التي يتوقف دركها على سعة عقلية، ونورانية قلبية، وألطاف إلهية خاصة، وبعضها أشار إلى المصاديق الخفية البعيدة عن ظهور الآية ودلالتها اللفظية، الأمر الذي يستدعي البحث في علاقة الرواية بتفسير الآية وتأويلها، وأثرها في توسعة دلالتها وتضييقها، ومعالجة التعارض بينهما إن وقع.

هذا ما تقتضيه قواعد البحث العلمي؛ إذ لا يمكن الخوض في أي بحث دون تعريف موضوعه وغايته وآثاره وتقرير المنهج المتبع فيه ومعالجة الاشكالات التي تعترض طريقه.

لكن الملحوظ في العديد من التفاسير المتوفرة ثلاث ملاحظات:

الأولى: أن بعضها لم يتعرض إلى مقومات البحث، ولم يذكر المفسر منهجه في التفسير وهو خلل فنّي يفقده هوية البحث العلمي.

الثانية: خلوّها من الأبحاث المقارنة للاطلاع على دواعي المفسر في تفسيره، ومزاياه عن غيره من التفاسير، ولعل هذا أحد أسباب وقوع التكرار في جهود بعض المفسرين، بما قد يشعر الباحث أحياناً باعتماد اللاحق على السابق دون إضافة تذكر سوى مغايرة العبارة، أو الإشارات البسيطة التي لا تعد ميزة.

الثالثة: خلوّها من الضوابط والقواعد التي يجب أن يراعيها كل مفسر لدى التفسير؛ لضمان سلامة المسير، مثل قاعدة العمل بالظهور لا باللغة إذا تعارضا، وقاعدة اعتماد الظهور النوعي وعدم اعتبار الظهور الشخصي، وقاعدة الرجوع إلى الروايات في فهم القرآن وقواعد تأويلها، وقواعد الجمع الدلالي بينهما إذا وقع التعارض، وقاعدة الجمع بين التفسير والتأويل إلى غير ذلك من ضوابط ينبغي أن تراعى لدى البحث؛ لأجل الخروج بنتائج سديدة خالية من الظنون الشخصية والآراء الشاذة.

وهذا كله ما سعينا لمعالجته في مباحث هذا الكتاب:

وكلي شكر لله سبحانه على التوفيق للتعلم من كتابه العزيز، والاستنارة بنوره والتوفيق لإتمامه، وأسأله تعالى أن يتقبل هذا الجهد المتواضع، وأن ينفع به المؤمنين لاسيما طلبة العلم والمعرفة، ويجعله نوراً وشافعاً لي وللمؤمنين، وأن يبعث ثوابه إن تفضل عليَّ به لسيدي حجة الزمان وأهله بطاقة حب وخضوع إنه سميع مجيب.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر الجزيل والثناء الجميل لكل من ساهم في تجهيز هذا البحث للطباعة والنشر ومقابلته وتخريج نصوصه، وأخص بالذكر منهم جناب الأستاذ الفاضل ناظم شاكر محمود دام عزه الذي بذل جهداً حثيثاً في مراجعته، فلله درهم، وعليه أجرهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد وآله الطيبين الطاهرين، واللعنة الأبدية على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين آمين رب العالمين.

فاضل الصفّار

كربلاء المقدسة

١٠ شوال/ ١٤٤١هـ

المبحث الأول: عظمة القرآن وآثاره

القرآن كتاب الله تعالى الذي تجلّى فيه لخلقه، وأظهر فيه علمه، وأعجز به عقول العباقرة وألسِنة البلغاء، وأودع فيه نوره ليهدي العباد إلى أفضل مصالحهم في نشأتهم الدنيوية الزائلة ونشأتهم الأخروية الباقية؛ لا محدود في دلائله وأغراضه وعلومه وأسراره، ولا يمكن للإنسان غير المعصوم مهما أوتي من نبوغ وفطنة وعلم أن يبلغ مداه، ولا يسعه إلّا أن يغترف غرفة على قدر استعداده وتوفيقاته من بحره الواسع العميق.

وهو مفتاح لمغالق الأسرار ومطالع الهدى والأنوار وخزائن الخيرات والبركات. يعرف هذا من أسمائه وأوصافه التي جعلها الباري عزّ وجل، ومَن غيره قادر على إعطاء القرآن ما يليق به من أسماء وأوصاف؟

ولو تأمل الباحث في أسماء القرآن يعلم أنّ الارتباط به والتدبر فيه والتعلّم منه يفتح له خزائن العلوم والمعارف، ويصيّره إنساناً كاملاً يرتقي لمستوى كليم الله الذي يليق أن يخاطبه الله سبحانه ويحدّثه، فإنّ الباري عز وجل يخاطب عباده بكتابه، ويعلّمهم ويهديهم للتي هي أقوم، ويبشرهم بالحياة الطيبة السعيدة.

أسماء القرآن

وأسماء القرآن وأوصافه كثيرة جداً تفوق ما ذكره بعضهم من أنها تبلغ نيفاً وعشرين[1]، وكل اسم من أسمائه يحمل دلائل عظيمة للبشر تنور عقولهم وبصائرهم، وتزكي نفوسهم، وتنمي ملكاتهم الإنسانية، وتقودهم

---

(١) التحرير والتنوير: ج١، ص٧٠.

إلى الأفضل، فمن أسمائه الفرقان والذكر والتنزيل وأحسن الحديث والموعظة والحكمة والحكيم والشفاء والرحمة والهادي والصراط المستقيم والروح والقاص والبصائر والبرهان والبشير والنذير والنور والكريم والعظيم والمبارك إلى غير ذلك مما هو عظيم وجليل[١].

وكل هذه الأوصاف تخاطب الإنسان، وتفتح عقله وقلبه لهذه الحقيقة الإلهية العظيمة التي أثبت الباري للبشرية أنه كتابه وتعاليمه. خاطب بها العقلاء والعلماء والحكماء وجميع أصناف البشر على اختلاف مستوياتهم؛ ليدعوهم إلى الإيمان به، والمضي في طريقه ليصلوا إلى أفضل ما يحبون ويريدون عن يقين وإذعان ورضوخ إلى علوّه وجلالته.

القرآن وحاجات البشر

لو تأمل أهل التدبر والتفكر في هذه الأوصاف لأدركوا معنى قول أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ليس على أحد بعد القرآن من فاقة، ولا لأحد قبل القرآن من غنى﴾[٢] وهذا ختم الكلام ومبدؤه منذ أول الخليقة إلى مختتمها، فبعد القرآن لا يحتاج الناس إلى شيء يعلّمهم ويهديهم ويكمّل إنسانيتهم، وقبله لا يوجد ما يغنيهم ويشبع حاجتهم، فالبشرية بلا قرآن. ناقصة جاهلة في إنسانيتها، متخبطة تائهة في معارفها، وبه اكتملت الشريعة بأحكامها وحدودها وتكتمل العقول والقلوب والأرواح، فالإنسان والشريعة محور

(١) انظر مجد البيان: ص٢٣-٢٥.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص٩١، الخطبة (١٧٦).

الوجود ومدار الخلافة الإلهية على الأرض، ولو تأملنا فيما يحتاجه الإنسان في سيرته اليومية والدهرية، لتلخصت كل احتياجاته بالقرآن، فإنه يحتاج إلى فرقان يفرّق به بين الحق والباطل، ويعرّفه الخطأ والصواب.

ويحتاج إلى ذكر يوقظه من الغفلة والنسيان، ويشغل نفسه به كلما تعبت وأجهدتها الحياة، ويحتاج إلى خير دائم طاهر يتنزل من الملأ الأعلى يغمر قلبه وعقله، وينزِّه ضميره من أدران الدنيا وظلماتها، ويركن إليه الإنسان المجهد ليستريح، ويأمن بدنياً وروحياً واجتماعياً، ويحتاج إلى الحديث الحسن الذي يهديه إذا تاه، ويعلّمه إذا جهل، ويؤنسه إذا ملّ أو سئم، ويحتاج إلى موعظة تجرِّده من الانغماس في شهوات النفس وإغراء الشيطان؛ ليعيش الاطمئنان الروحي والسعادة.

ويحتاج إلى حكيم يرشده إلى أفضل مصالحه، فيضع الأمور في مواضعها، ويتخلّص من الفوضى واختلال النظام، كما يحتاج إلى سلامة من الأمراض والأعراض الروحية والبدنية تغنيه في مسيرته من سوء أخلاق أو عادات أو شكوك في الأفكار والمعتقدات، أو آلام وأوجاع تصيب الجوارح قد تنهي حياته الروحية أو البدنية، ويحتاج إلى رحمة يكتمل بها ويرحم بها ويتراحم بها مع الناس، فلولا الرحمة لما عاش إنسان على وجه الأرض، فالقرآن هو نور ورحمة وشفاء لما في الصدور.

ويحتاج إلى هاد يهديه إلى الصراط المستقيم، ويوصله إلى مطلوبه، ويحتاج إلى روح تغذي وتحيي روحه كلّما خبت فيها حرارة المحبة الإنسانية والشوق إلى الكمال، فلولا حياة الروح لمات الإنسان ولو كان يزاول حياته اليومية، ويحتاج إلى قاص يحكي له تجارب السابقين وما مرت عليهم من أحداث

ووقائع فيها تعليم وتهذيب وعبرة؛ لأنّ التجربة تعلّم أكثر من البيان، كما يحتاج إلى بصائر أي قواعد وضوابط يستند إليها ويتكئ عليها في معاييره ومواقفه.

ويحتاج إلى برهان يقوده إلى الحق والصواب كلما التبست عليه الفتن، وإلى مبشر يرفع عنه اليأس والقنوط، ويعده بالمستقبل الواعد، وإلى نذير يحذِّره من الأخطار، ويقيه من محاذيرها، وإلى نور يبصره ويهديه للأفضل في كلامه وعلومه ومسيره، ويكشف له الزيف والخداع وأضاليل الشياطين من الجن والأنس.

ويحتاج إلى مصدر للخير والرزق كريم في عطائه لا يبخل عليه بشيء يحتاجه، وإلى عظيم يركن إليه عند الضعف والعجز، وإلى وجود مبارك يستعين به وينتفع بخيره، ويسد نواقصه في كل شؤونه.

وكل ما يحتاجه الإنسان في حياته مفتاحه القرآن، فيكفي الإنسان أن يلجأ إلى القرآن للاستغناء عن كل شيء.

وهذه الصفات المذكورة للقرآن هي ذاتها صفات الله سبحانه، فمن استغنى بالله أغناه عن كل شيء، وهي ذاتها صفات النبي والإمام عليهما السلام، فالارتباط بالقرآن والارتباط بالمعصوم كلاهما يربطان الإنسان بالله سبحانه فيصيِّرانه كاملاً في عقله، زكياً في قلبه، غنياً في نفسه، سليماً في بدنه، معتدلاً في طبعه.

وبهذا يتضح أن كمال الإنسان يتقوّم بثلاثة أصول: هي الله سبحانه والقرآن والنبي والعترة، وإذا اكتمل الإنسان اكتمل كل شيء في الوجود؛ لأنه محور الوجود ومدار أنظمته وآثاره، فليس في الوجود نور إلّا نور الله سبحانه وهو القرآن ومحمد وآل محمد عليهم السلام، فمن ارتبط بهم ارتقى واكتمل وسعد في حياته، ومن تخلف عنهم تاه وضل وشقي.

المبحث الثاني: تعريف القرآن

لا يمكن تعريف القرآن إلّا بواسطة أهله وهم ثلاثة لا رابع لهم:

الأول: الله سبحانه؛ لأنه كلامه الذي أنزله على رسوله، وقد وصفه بأنه ﴿**تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[1] وقد وصف نفسه بهذا التنزيل بأنه: ﴿**الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ**﴾[2] و: ﴿**الْعَلِيمِ**﴾[3] و: ﴿**حَمِيدٌ**﴾[4] و: ﴿**رَبِّ**﴾[5] وهكذا[6] في آيات متعددة، لأن مقامات التنزيل تختلف. تارة يتنزل من مقام الإرشاد والتوجيه فيصف نفسه بالعزة؛ لترفعه وتنزّهه عن الحاجة إلى مثلها، والإشارة إلى أنّ البشر هو المحتاج، وتارة يريد الهداية وإقناع الفكر البشري وإيصاله إلى اليقين فيصف نفسه بالحكيم؛ لأنّه يضع الأمور في مواضعها، وتارة يريد رفع الجهل فيصف نفسه بالعليم، وتارة يريد بيان نعمة الهداية وأثرها على سعادة الإنسان، فيصف نفسه بالحميد، وتارة يريد التربية والتهذيب، فيصف نفسه بالرب.

فعلى كل تقدير إن الباري عز وجل عبر عن القرآن بالتنزيل؛ لنزوله من مقامات عالية جداً إلى مقامات دانية؛ ليكون هادياً للبشر، والتنزيل يتم بوجود نازل ومبدأ للنزول ومنزِّل ومنزَّل عليه، فلا بد وأن يكون المنزِّل عارفاً بما ينزله.

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨٠ .

(٢) سورة الأحقاف: الآية ٢ .

(٣) سورة غافر: الآية ٢ .

(٤) سورة فصلت: الآية ٤٢ .

(٥) سورة المؤمنون: الآيتان ٩٧ –٩٨؛ سورة الواقعة: الآية ٨٠ .

(٦) سورة فصلت: الآية ٢ .

وقد عرّف الحق سبحانه وتعالى جلت عظمته وجل كلامه القرآن بقوله: ﴿**اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**﴾(١) ونلاحظ أنّ الآية مصدّرة بلفظ الجلالة ولم تتصدر بغيره من الأسماء، فإن الآيات تارة تصدّر باسماء الصفات، وتارة تصدّر باسم الذات، ولكل تصدير معان وإشارات، وهنا لأنّ المقام مقام تعريف القرآن جاءت الجملة مصدرة باسم الذات، وبالاسم الذي يختص به سبحانه من دون سائر الأسماء.

ومن موارد اختصاصه أنّه لا يطلق على غيره حتى الأنبياء و الأولياء الذين يطلق عليهم أنهم عباد الله ويد الله وعينه، ولكن لا يطلق عليهم هذا الاسم، ومنها أيضاً أنّ الدخول في حصن الإسلام والتوحيد الربوبي متوقف على ذكره والإقرار به بأنّ يقول العبد: (لا إله إلّا الله) فإن التوحيد لا يتحقق بالنفي وحده ولا بالإثبات وحده، بل بالنفي والإثبات بلفظ الجلالة المختص؛ لذا لا يصح الدخول في الإسلام بقول: (لا إله إلّا الرحمن) و: (لا إله إلّا الرحيم) بل لو اجتمعت جميع الصفات والأسماء في الجملة دون لفظ الجلالة المختص، فإنه لا يجدي في الدخول في الإسلام، وهنا نفهم عمق الأسرار في هذا الاسم المبارك، وفي موقعه، فتصدير الآية (بالله) وهو اسم الذات لدى بيان نزول القرآن ووصفه بأحسن الحديث يشير إلى جامعية القرآن لجميع الأسماء الحسنى؛ لأنّ هذا اللفظ المختص هو الجامع لكل كمالات الخالق.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٢٣.

إنّه أحسن الحديث

ووصف القرآن بأنّه أحسن الحديث - وبنحو مطلق - يستدعي النظر في معنى الحسن حتى نعرف الأحسن، وأنّ حسن كل شيء بأي شيء. والمتبادر من معنى الحسن هو كل مبهج مرغوب فيه، وهو كذلك في اللغة، ويقع على أنحاء، وهي ما يكون حسناً عند العقل وما يكون حسناً عند النفس وما يكون حسناً في الحس[١]. وبناء على أنّ ما يحسنّه الشرع يرجع إلى الأول تكون الأقسام ثلاثة لا أربعة، ويقع الحسن في الأعيان والأفعال، وأطلق هنا على القرآن بالاعتبارين؛ لأنّه حسن في عينه وفي نزوله معاً والحسن حينما يتعلق بأمر مادي يكون يوسف الصديق في البشر، وفي الأرض الزهر والثمر، وحينما يتعلق بأمر نفساني أي أن الحسن يتجاوز الصورة إلى السيرة يكون الإنسان الكامل؛ لذا يكون طاهر الذات والأقوال والأفعال، فكمال الإنسان بكمال حسنه.

والآية وصفت القرآن بأنّه أحسن الحديث وليس بالحسن؛ لمراعاة وجود حديث آخر هو حسن ولكن أقل منه حسناً، وهو كلام الملائكة والأنبياء و الأولياء والعلماء والمؤمنين الصالحين.

والنكتة اللطيفة هنا أنّ الباري يصف كتابه بأحسن الحديث، وإطلاق الوصف يقتضي فناء كل كلام حسن في حسن كلام الله وجماله، ولو كان في

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٣٥، (حسن).

الكلام ما يضاهي كلام الباري عز وجل؛ لاستحال الإطلاق في الوصف، بل لقال من أحسن الحديث.

والنتيجة الحاصلة من كل ذلك: هو أن القرآن بتعريف الباري عزّ وجل له هو أحسن الحديث، ولا يوجد أحسن منه، وهذا الحسن تدركه القلوب والعقول، وتقصر عن بيانه الألسنة، فهو مما يدرك ولا يوصف؛ لذا اكتفى الباري بالإشارة إليه. هذا هو المرجع الأول للتعريف.

الثاني: النبي المصطفى صلى الله عليه وآله، وهو الذي أُنزل عليه القرآن وأُرسل به، وقد وردت أحاديث كثيرة في تعريف النبي صلى الله عليه وآله للقرآن، نكتفي بما رواه مولانا الحسن بن علي عليهما السلام: «أنّه قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ أُمتك ستفتن، فسئل ما المخرج من ذلك؟ فقال: كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد. من ابتغى العلم في غيره أضلّه الله»[1].

وفي الفقرة الشريفة إشارات مهمة لأهل المعرفة:

الأولى: انه وصف الكتاب بالعزة على الأظهر، وهذا الوصف لأجل بيان نزاهته وتجرده عن المصالح والخطأ والاشتباه، فهو عزيز لأنّه غالب لا يغلب، ويمتنع عن الانحدار إلى الضعف، ويأنف عن الذل والانكسار[2] وهذا الكتاب هو الحبل الذي يصح أن يعتصم به الناس في الفتن، ويوصلهم إلى بر الأمان.

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٦، (عزز).

هذا لو كانت العزة وصفاً للكتاب، وأما لو كانت وصفاً لاسم الذات الإلهية (الله) فتدل على نزاهة الكتاب وعلوه وغلبته بالملازمة.

الثانية: نفى عنه البطلان من أمامه ومن خلفه، ووجه التشبيه بذلك هو تنزيهه عن الباطل في نظرته المستقبلية وفي دوافعه وغاياته، وهذه صفة القادة الربانيين الذين يقودون الناس إلى الله سبحانه، فلا يطلبون إلّا الله سبحانه، فإن البعض قد لا يملك رؤية مستقبلية فيقود أهله إلى الجحيم مثل فرعون والطواغيت من أمثاله، وهذا باطل بين يديه، وبعضهم يملك هذه الرؤية وقد تكون صحيحة إلّا أنّ له دوافع دنيوية من ورائها، فيدعو الناس إلى مقارعة الظالم مثلاً والقيام عليه، وهدفه من ذلك أن يكون هو الحاكم بدلاً عنه، فهذا قد لا يكون الباطل بين يديه ولكن يكون من خلفه.

أما القرآن فمنزّه عن الباطل المستقبلي؛ لأنّه يهدي الإنسان لأجل الإنسان نفسه، ويرتقي به إلى مستوى الإنسانية ﴿**اسْتَجِيبُوا للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ**﴾[1] ولا غاية له من وراء ذلك إلّا سعادة الإنسان نفسه، والذين لا يلتفتون إلى هذه الحقيقة ويلجؤون في الفتن إلى هذا وذاك أو هذه الجماعة أو تلك من دون القرآن يضيّعون الطريق ولا يصلون إلى غاية سليمة.

الثالثة: وبها يختم الكلام ويصفه بأنّه تنزيل من حكيم حميد، أي تنزيل من مقام العلم الربوبي المتصف بالحكمة والمستحق للحمد، وهو بمثابة ذكر

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٢٤.

العلة لصيانة الكتاب من البطلان، وهذا التنزيل من الحكمة اللامتناهية، والقادر الذي لا يستحق الحمد إلّا هو.

ونلاحظ أنهﷺ لم يعرّف ذات القرآن بل عرّفه بصفاته وآثاره، وذلك لما ذكرنا من أنّ عقول البشر قاصرة عن دركه، فلو أراد كشف حقيقته لكان لغواً أو لشطّوا أو ضلوا؛ لقصور عقولهم عن الفهم، فالحقيقة الصعبة لو عرّفت للقاصر قد ينكرها أو يجهل قدرها، وعلى التقديرين يكون ضياعاً لها وظالما بها، وفي نفس الوقت ينفي حكمة التعريف وغايته، وفي مثل هذا الحال لا مناص من تعريف الشيء بآثاره؛ لأنها مما تدرك وتعرف بالوجدان.

لا هداية بغير القرآن

الرابعة: والتي بها تتحير عقول البشر، بل كبار نوابغهم وحكمائهم، قولهﷺ: «من ابتغى العلم في غيره أضله الله»[1] والظرف (في) يفيد أن الهداية في العلوم تكمن في القرآن لا في غيره، وأن اقتران العلم بالهداية منحصر بهذا الطريق، وفي ذلك نكتة تهم البشرية أجمع في التفريق بين العلم والهداية، فإن العلم حتى يكون إنسانياً لابد وأنّ يقترن بالهداية، وإلّا كان وبالاً.

وقد ورد هذا التعبير في النبوي وفي العلوي أيضاً، ولكن بدل العلم ذكر الهدى فقال: «من التمس الهدى في غيره أضله الله»[2] وهذا

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

(٢) البحار: ج٨٩، ص٢٥، ح٢٥؛ تفسير الصافي: ج١، ص٦، ح١١.

الاختلاف في التعبير قد يفيد المساوقة بين العلم والهدى؛ للملازمة التامة بينهما، فإن الهداية بلوغ المقصود والعلم موصل؛ لأنّه انكشاف الحقائق، أو هما من باب ذكر العام بعد الخاص بناء على أنّ الهدى أعم من العلم؛ لشموله للعمل الصحيح الموصل إلى الغاية وإن لم يكن عن علم، فإن الهداية أعم من العلم، ولا يقال إنّ النسبة هي العموم من وجه، بدعوى أن العلم أعم من الهداية من جهة أخرى؛ لأنه قسمان نظري وعملي، والعلم النظري لا يقال له هدى؛ لأنّ ما ذكر غير سديد، فإن الهدى في كل شيء بحسبه، والهداية هي بلوغ الغاية، والغاية من العلم النظري المعرفة وانكشاف الحقيقة، فمعرفته هداه.

ويلاحظ أنّ النص لم يرد بصيغة الفعل اللازم بل المتعدي؛ إذ لم يقل من طلب العلم في غيره ضل، بل (أضله الله) ونسبة الإضلال إلى الله تفيد فائدتين:

الأولى: أنّ البحث في غير القرآن والركض وراء المصادر الأخرى سواء من الكتب أو أقوال الرجال يبعد العبد من ربه، ويطرده من ساحة رحمته وهدايته؛ لانتفاء المقتضي أو لوجود المانع.

الثانية: أنّ طلب العلم والهداية من غير القرآن ليس لا يصل إلى الغاية، بل يصل إلى عكسها؛ فإن الإضلال يشمل الترك في التيه والتخلية بين العبد وبين حساباته، وحيث إنّه جاهل قاصر لا يصل إلى المطلوب، كما يشمل إيصال العبد إلى خلاف المطلوب، فتكون نتائج بحثه معكوسة كما يشير إليه

قوله تعالى في الكفار: ﴿أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾[١] فإن إضلال الأعمال لا يتصور إلّا بإظهار الآثار السلبية لها حتى لا تصل إلى المقصود.

وقد يقال: إنّ العلوم على قسمين: علوم تتعلق بالدين كالمعارف والاعتقادات والشرائع والأحكام، وعلوم تتعلق بالدنيا مثل الفيزياء والرياضيات والطب ونحوها.

فقد يقال بأنّ إضلال الله لطالب العلم في غير القرآن يقع في القسم الأول، وهذا ما يؤكده الوجدان والاعتبار كما يلحظ في المدارس الفلسفية والكلامية والعرفانية ونحوها التي تستند إلى كلمات الفلاسفة والعرفاء والمتكلمين، ولا تستند إلى القرآن الكريم.

وأما علوم الدنيا فلا؛ لأنها غير موجودة في القرآن، وهذا قول غير سديد؛ لمنافاته للإطلاق أولاً، ولعدم صحة المدعى؛ لأنّ القرآن فيه تبيان كل شيء سواء كان من علوم الدنيا أو علوم الدين، ولكن المشكلة في أنّ المسلمين لم يعرفوا هذه الحقيقة، وأنّ في القرآن علم كل شيء، أو عرفوها ولم يعملوا بها، ولو بذل أهل العلم والمعرفة من الجهود وبحثوا عن الحقائق العلمية في القرآن كما يبذلونه في دراسة الطب والهندسة والصيدلة وغيرها من العلوم لبلغوا ما بلغوا من العلم، وفاقوا الدنيا في العلوم، إلّا أنّه وللأسف الشديد وبدواعي الجهل والسياسة معاً انصرفوا إلى أخذ العلوم من غير القرآن، ولذلك ضلوا وتاهوا، وحياتهم وواقعهم السياسي والاجتماعي والاقتصادي شاهد على ذلك.

---

(١) سورة محمد: الآية ٨.

إن قلت: إن الواقع المعاصر يكشف عن تطور العلوم وهذا دليل الهداية وبلوغ الغاية في غير القرآن.

قلت: إن ما يلحظ من تطور في العلوم والمعارف اليوم شاهد على الضلالة لا الهدى، ويدل عليه شاهدان:

الأول: الفراغ الفكري والنفسي، والانحطاط الأخلاقي الذي تعانيه البشرية، فإنه شاهد على عدم إيصال العلم الحديث الإنسان إلى غايته، فإن غاية العلوم إيصال الإنسان إلى كماله العقلي والنفسي، ولم يتحقق شيء من ذلك مع العلوم الموجودة، والموجود هو العكس.

الثاني: توظيف العلوم لخدمة السياسة والمصالح الدنيوية حتى صار العلم -وبالرغم مما له من فوائد- وبالاً على الإنسان، وبات يهدده بالمخاطر الجمة، وحتى البيئة والطبيعة لم تسلم من الآثار السلبية لهذه العلوم، ولا شك في أنّ العلوم الحديثة قدمت خدمات جليلة للإنسان، ولكن لو حسبنا الخسائر والأضرار الناجمة منها ربما وجدنا أن مستوى الأضرار أكبر من مستوى المنافع؛ لأن العلم خدم بدن الإنسان ووجوده المادي لكنه أضر بوجوده الروحي، وهذا يؤكد وصول الإنسان إلى عكس الغاية المرجوة من العلم، وكل ذلك ناشئ من التخلي عن كتاب الله والاستغناء بغيره.

والنتيجة الحاصلة منه: أنّ من يطلب العلم والهدى من غير القرآن مصيره الضلالة والإضلال، والمعضلة الكبرى في ذلك أنّ الباري عزّ وجل أخبر عن حقيقة أخرى وهي أنه سبحانه لو أضل العبد فإنه لا يهتدي إلى

غايته؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ**﴾(١) وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿**مَن يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ**﴾(٢) ولسان النفي يفيد التأبيد، والمفاد واحد، إلّا أنّ النكتة اللطيفة في الآيتين أنهما لا تنفيان وجود الهداية، بل الهادي، وفي ذلك إشارة إلى أمرين:

أحدهما: سلب التوفيق الإلهي للهداية؛ لأنه سبحانه هو الهادي، فالنفي من باب السالبة بانتفاء الموضوع.

ثانيهما: سلب الشفيع عنه في الهداية.

فالذي يطلب الهداية من غير القرآن لا الباري يوفقه لها ، ولا يجد من يهديه، ولا يتوسط له شفيع فيهديه كالأولياء والأنبياء الذين هم الشفعاء عند الله تعالى.

فعبثاً يقتدي المسلمون بهذا أو بذاك من صحابة وقادة وزعماء بتوهم أنهم هادون؛ لأن الهادي هو الله سبحانه وأولياؤه وهم محمد آل محمد عليهم السلام لا غير بشهادة قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَاد**﴾(٣) وقد أجمع الفريقان أنها عنت بالمنذر رسول الله صلى الله عليه وآله وبالهادي أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام من ولده(٤)، وفي هذه الحقيقة إنذار بالخطر العظيم، وتفسير مبين لواقع المسلمين والحياة النكدة التي يعيشونها، وأنهم لما خالفوا هذه الحقيقة واتبعوا قادة ضالين تائهين بدلوا حياتهم إلى موت وأيامهم إلى شقاء.

---

(١) سورة الزمر: الآية ٣٦.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٨٦.

(٣) سورة الرعد: الآية ٧.

(٤) انظر نفسير نور الثقلين: ج٣، ص٤١٦- ٤١٩، الأحاديث ١٥-٣٠.

والسؤال الذي يخطر في الأذهان هنا: أن الله سبحانه اللطيف الودود والرحمن الرحيم بعباده كيف تتعلق مشيئته بإضلال العبد، وقد تأكد هذا المعنى في آيات كثيرة من الكتاب؛ إذ علّقت الهدى والضلال على مشيئة الله سبحانه؟

و أيضاً كيف يمكن أن يجتمع هذا المعنى مع كون الإنسان فاعلاً مختاراً بالقصد والإرادة؟

والجواب: يعرف من ذات القرآن؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ**﴾[1] ومعنى ذلك أنّ الله سبحانه لا يضل كل أحد وإنما يضل الظالمين، وإضلاله لا يكون ابتدائياً، بل هو أثر من آثار ظلمهم وجورهم، فالإضلال معلول للظلم وناشيء منه، وبهذا يكون الإضلال مترتباً على اختيارهم وينتفي الإشكال، فإن اختيار المقدمات اختيار لنتائجها أيضاً، ومثل ذلك يقال في الهداية، فإنه سبحانه يهدي من يريد الهداية ويستقيم في طريقها.

إن قلت: ما هو الظلم الذي يرتكبه من يبتغي العلم أو يبتغي الهداية من غير القرآن حتى يستحق هذا الإضلال؟

فالجواب: أن الظلم يقع لذات الكتاب، ثم يقع لمنزلِهِ ومبلِّغه، وهذا أكبر ظلم يمكن أن يقع، فإن الباري عز وجل أنزل الكتاب وجعله أحسن الحديث، وأودع فيه علم كل شيء، وصانه من كل خطأ، فلا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وغايته من ذلك هداية البشر وإصلاح شؤونه،

---

(١) سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

لكنه يعرض عنه ويذهب لطلب العلم من غيره، وذلك ظلم عظيم للكتاب ولصاحبه؛ لأنه جحود ورد لنعمة الهداية وتفضيل للأدنى على الأعلى، وهو جحود أعظم، والله سبحانه يمكن أن يعفو عن كل خطأ وذنب إلّا الظلم فإنه لا يعفو عنه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ اللَّه لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[1] وفي سورة لقمان علل عدم غفران الشرك بالظلم؛ إذ قال لقمان لابنه: ﴿**يَابُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾[2] وقد بني الفقه والأحكام على هذه الحقيقة، فإن كل ظلم له جزاء وأثر وهو سر من أسرار القرآن.

مثلا: ممَّا قرره الفقهاء أن الظلم إذا وقع من العبد -حتى في الأموال التي هي أتفه الأمور عند الله وعند الكمّلين من البشر- فإنه لا يغتفر ولا يمحى حتى لو وقع الظالم شهيداً وكان في أعلى درجات الشهداء، كما لو استشهد في طريق الإمامة والولاية، فإن أول قطرة تسقط منه تمحي ذنوبه إلّا ذنباً واحداً وهو حق الناس -درهم واحد من مال الناس لا يمحيه دم الشهيد- هذا هو حساب العدل، وكل شيء عنده بميزان. هذا لو وقع الظلم بأتفه الأشياء وهو المال، فكيف إذا وقع الظلم بكتاب الله؟ وكيف إذا وقع الظلم على الله سبحانه؟

هذا معنى الحديث: «من ابتغى العلم في غيره أضله الله»[3] وسره أنّ الله

(١) سورة النساء: الآية ٤٨.

(٢) سورة لقمان: الآية ١٣.

(٣) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

سبحانه هو النور الأعظم والعدل المطلق، وكتابه ذكر عظيم ونور عظيم أنزله على أشرف خلقه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإيصال البشر إلى منتهى درجات الكمال العلمي والعملي، فإذا وضع البشر هذا الكتاب العظيم جانباً وأخذوا بكتاب زيد وعمر، فقد ظلموه ظلماً عظيماً وظلموا أنفسهم.

مناهج التعليم تظلم القرآن

انظر إلى مناهج التعليم في جامعات المسلمين ومدارسهم، وكذا بعض المدارس التي تدرس العلوم الإسلامية لتعرف هذه الحقيقة، حتى مسألة المبدأ والمعاد ومعرفة الله سبحانه لا تؤخذ من كتاب الله، بل من كتاب أرسطو أو إشراق شيخ الإشراق وأفلاطون، وكلمات فلان حكيم أو متكلم، فإن معنى ذلك تسوية عقل البشر بالباري، بل تقديم عقل البشر على الباري وهو ظلم فظيع؛ لذلك تكون النتيجة هي الضلالة.

وهذا سر تأخر المسلمين وعذاب العالم وشقائه رغم التطور العلمي الحاصل فيه؛ لأن العلم بلا هداية ظلام؛ لذا صار وبالاً على الإنسان، ووسيلة للاستعمار والاستغلال وفساد الأرض وأهلها. هذه النتيجة الحاصلة من الحديث.

فإن القرآن حقه التقديم في كل علم ومعرفة وهداية، والظلم هو تقديم غيره عليه، ومن الظلم الذي لا يقل عن ظلمي الإعراض والتقديم، أن يضع البشر كتب زيد وعمر ميزاناً لفهم القرآن، وهنا ظلم رابع هو أن يؤوَّل القرآن استناداً إلى مبادئ وقواعد الفلسفة والحكمة ونحوهما من نتاجات عقول البشر.

والعدل أنّ نجعل القرآن هو الميزان وأفكار الآخرين تعرض عليه، وإلّا يكون البشر في ضلالة لا يخرج منها نهائياً؛ إذ ماله من هاد فلا مخلص للبشر من سوء الحال -والمصير هذا- إلّا إذا أعطى القرآن حقه، وصيَّره قائده وهاديه وتمسَّك به؛ لأنَّ بهذا النهج يهتدي إلى الصراط القويم والحياة الطيبة؛ إذ قال سبحانه: ﴿**إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1] وقال عزّ وجل: ﴿**الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[2].

إذاً العلم في كلام النبي والهداية في كلام الوصي كلاهما منحصران في القرآن، وطلب العلم والهداية من غيره جزاؤه إضلال الله سبحانه للعبد، وكل ذلك يقع باختيار البشر أنفسهم. هذا هو تعريف النبي صلى الله عليه وآله للقرآن.

الثالث: الإمام عليه السلام وهو المبيّن للقرآن، وقد عرَّف الأئمة القرآن بتعاريف كثيرة أشير إلى ما ورد في خطبة أمير المؤمنين عليه السلام في النهج، وقد ذكر حدود اثنين وأربعين عنواناً لكل واحد منها بحث مستقل، لكننا نكتفي بجملة واحدة يقول فيها: «ثم أنزل عليه الكتاب نوراً لا تطفأ مصابيحه، وسراجاً لا يخبو توقدّه، وبحراً لا يدرك قعره، ومنهاجاً لا يضل نهجه»[3] والصيغة للمجهول، والموضوع البحر، وقد نفى القدرة على بلوغ قعره كناية عن أنّ عمقه لا محدود، وهذا المضمون مطابق لقوله تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ**

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

(٣) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

﴿الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ﴾[١] ومفهوم الشيء أوسع المفاهيم؛ إذ ينطبق على جميع الكائنات، بل حتى مكوِّن الكائنات هو شيء لا كالأشياء.

وفي الآية تصدّر الشيء بكلمة كل وهي من أدوات العموم، ودلالتها عليه بالوضع، بينما دلالة الشيء عليه بالإطلاق، ومع وجود الإطلاق صدّره بالعموم لتأكيد اللامحدودية في القرآن واشتماله على كل شيء، والبيان والتبيان واحد كما قيل[٢]، وذلك إذا اجتمعا، إلّا أنّ التبيان يزيد على البيان معاني أخرى حسب قاعدة كثرة المباني، وهو أنّ التبيان يتضمن أمرين آخرين:

الأول: أن كل ما فيه قريب يمكن دركه لأهله، فليس غامضاً مطلقاً ولا سهلاً مطلقاً، بل عبارته قريبة لأهلها وإشارته كذلك، ولطائفه قريبة للأولياء، وحقائقه قريبة للأنبياء، وهذا يتوافق مع كونه نوراً يخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي إلى صراط الحميد.

فإن التبيان مأخوذ من تبيّن الشيء إذا كان له ظهور قريب ولكن يعرفه أهله، وظهور كل شيء بحسبه، بخلاف البيان فإنه أعم؛ لأنّه يشمل المجهول الذي يبيّنه الشارح وإن تعذّر فهمه.

والثاني: أنّ التبيان يتضمن اللطف في الأفهام، أي أن من أمعن النظر في آياته طلباً للعلم والمعرفة فإنه سيشمله لطف الله، ويوصله إلى مطلوبه؛ لأنه جعل القرآن تبياناً، فلا يعقل أن يحث الباري عزّ وجل على التدبر وطلب

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) مكاتيب الرسول: ج٢، ص٦٢٩؛ وانظر تفسير السمعاني: ج٣، ص١٩٥.

العلم منه ثم لا يهدي من طلب ذلك إلى المقصود، وهذا المعنى أشار إليه النبيﷺ بقوله: «من ابتغى العلم في غيره أضله الله»[١] فإن معناه أنه من طلب العلم منه لابد وأن يوصله الله سبحانه إلى مطلوبه على حسب اختلاف الطلب والطالب.

إذا عرف هذا يفهم كلام الإمامعليه السلام: «لا يدرك قعره»[٢] وبرهانه أنَّ تبيان كل شيء لا نهاية له؛ لأنه صادر من اللامحدود، فهو يشتمل على كل شيء؛ لذا أطلق قوله في سورة إبراهيم بأنه يخرج من الظلمات إلى النور، فقال: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّورِ**﴾[٣].

فكل ظلمة تصيب البشر في العقول أو النفوس أو الأعمال يبدلها القرآن إلى النور.

القيادة الربانّية

والنكتة اللطيفة في الآية أن الإخراج من الظلمات إلى النور نسب إلى النبيﷺ وليس إلى القرآن، وهذا يؤكد ما ذكرناه من أنّ البشر لابد لهم من قيادة تهديهم، وتبين لهم الحقائق، وتوصلهم إلى المطلوب، وإنّ الذين يعرضون عن القرآن ويطلبون العلم من غيره لا هادي لهم، فالقرآن دون قيادة ربانية لا يوصل إلى الهدف.

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٦، ح١١؛ البحار: ج٨٩، ص٢٧، ح٣٠.

(٢) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

(٣) سورة إبراهيم: الآية ١.

وتؤكد هذه الحقيقة صيغة الجمع المحلى (بأل) في قوله: (الظلمات) فتشمل الفكر والأخلاق والعمل، بينما النور ورد بصيغة المفرد المحلى (بأل)، وله نكتة عظيمة تدل على أن النور واحد لا يتعدد، بخلاف الظلمات، فالنور واحد ولكن تجلياته متعددة، فالقرآن نور، والنبي نور، والإمام نور، فكل واحد منها مصدر للنور.

ولذا قال أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿لا تطفأ مصابيحه﴾[1] لأن كل واحد من الأنوار بمنزلة المصباح، وأما الإمام عليه السلام فوصف القرآن بأنّه: ﴿بحر لا يدرك قعره﴾ وفي هذا الوصف إشارتان هامتان:

الأولى: أنه وصف القرآن بالبحر وهو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس؛ لأن البحر يشتمل على العجائب والغرائب، وهو مجمع الخيرات والبركات، فلا ينفد ولا ينتهي ولا يبلغ له مدى، وهذه هي صفة القرآن وقد ورد في الأحاديث الكثيرة: ﴿لا تفنى عجائبه ولا تنقضي غرائبه ولا تكشف الظلمات إلّا به﴾[2] والعجائب أي البدائع التي تستحدث ولا سابق لها كما يفيده معنى البديع أي الذي يوجد الأشياء لا على مثال سابق، فعجائبه لا تفنى، أي لو حدثت تبقى ولا تنفني، بل هي كسائر الحقائق التي يدوم وجودها، والغرائب أي التي لا نظير لها؛ إذ يطلق الغريب على

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطبة (١٩٨).

(٢) نهج البلاغة: ج١، ص٥٥، رقم (١٨)، من كلام له عليه السلام في ذم اختلاف العلماء؛ الاحتجاج: ج١، ص٣٩٠؛ ربيع الابرار: ج٢، ص٨٠؛ تفسير البرهان: ج١، ص٢٣، ح٢١.

كل شيء عديم النظير بين جنسه[١]، فغرائبه لا تنقضي أي لا تنتهي[٢] من القضاء، بمعنى الفصل[٣]؛ لأنه لا محدود.

الثانية: أنه لم يقل بحر لا يدرك بل لايدرك قعره؛ لأن القرآن مما يدرك، إلّا أنَّ كل صنف من الناس يدركه على قدر مقامه ومستواه، فلا يمتنع إدراك القرآن، بل عدم إدراكه ممتنع؛ لاستلزامه لغوية جعله وتنزيله، وإنما الذي يستحيل هو إدراك قعره، والنكتة اللطيفة في التعبير أنه قال: ﴿لا يدرك قعره﴾[٤] ولم يقل لا يعلم ولا يفهم ونحوهما من التعابير، وذلك لوجود معنى في الإدراك غير موجود في غيره، وهو أن الإدراك له معنيان:

أحدهما: بلوغ أقصى الشيء[٥].

وثانيهما: معرفة الأمور الخارجية بالحس[٦]، وفي قوله تعالى: ﴿**لَاتُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**﴾[٧] إشارة إلى أنّ الحواس الباصرة لا تدركه وإنّما تدركه العقول، والمعنى الثاني لا ينفي إدراك قعره بالعقل والبصيرة، وهو حاصل للنبي والإمام عليهما السلام، ولكنه متعذر على غيرهما.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٤، (غرب).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٧٥، (قضى).

(٣) مجمع البحرين: ج١، ص٣٤٢، (قضا).

(٤) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٧، الخطابة (١٩٨).

(٥) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣١٢، (درك).

(٦) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٦٥، (درك).

(٧) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

والخلاصة: أنّ القرآن بحر لا يمكن أن يحيط به الإنسان العادي، ولا يدرك تمام معانيه؛ لذا لا مناص في فهمه إلّا بالرجوع إلى المعصوم عليه السلام، والمعصوم يعرّفه بالصفة والأثر؛ لاستحالة درك حقيقته على البشر العاديين، وهذا المعنى تؤكده الآيات الواردة في سورة الواقعة؛ إذ قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[١].

فقد صدّر التعريف بالقرآن بقسم عظيم، وأداة الشرط وردت لامتناع العلم وليست للتحقيق أو التردد، فإن أداة الشرط تارة تأتي لنفي الوقوع، وتارة لأجل تحقيق الوقوع، وتارة لتردده، و(لو) من قبيل الأول، ولذا عطف الكلام من ضمير المفرد الذي ورد في قوله: ﴿**فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ**﴾[٢] إلى ضمير الجمع فقال: ﴿**وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ**﴾[٣] لأنّ النبي صلى الله عليه وآله عالم بحقيقة القرآن، والذي يمتنع عليه معرفة القرآن هو عموم الناس.

ثم وصف القرآن بأنه كريم، وإذا كان الغني المطلق والكريم المطلق يصف الشيء بالكريم لابد وأن يكون على درجة عالية من الكرم يستحق الوصف، وكرم القرآن قد يراد منه الشرف والمقام الكريم، أي الشريف

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٥-٨٠.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٧٤.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٦.

العالي، وقد يراد به العطاء وكثرة النفع، ولا يقال للشيء كريم إلّا إذا ظهر ذلك، ولا يستعمله العرب إلّا في المحاسن الكثيرة، ووصف يوسف عليه السلام بالكريم؛ لأنّه اجتمع له شرف النبوة والعلم والعدل ورياسة الدنيا[(١)]، ووصف القرآن بالكريم؛ لأنّ نفعه لا محدود.

والمعنى الأول يدخل في الثاني، ثم نلاحظ هنا أنه اكتفى بوصفه بالكرم. أمّا حقيقته فكشف عن خفائها فقال: ﴿**إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ**﴾[(٢)] والكتاب المكنون مستور عن كل الخلق، وكل ما يشرق من القرآن علينا ونتعلمه منه فهو شعاع من البحر في حدودنا لا أكثر؛ لأنّه ﴿لا يدرك قعره﴾ ومن خصوصيات كرمه أنّه: ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[(٣)] والإطلاق يشمل المس المادي والمعنوي، فالمحدث بالحدث الأكبر والأصغر لا يمس خطه ما لم يتطهر؛ لأنّه لا يمسه إلّا المطهرون. هذا من حيث لفظه وعبارته.

وأما مس المعنى فمشروط بطهارة معنوية وقلبية عالية لا يحظى بها إلّا المعصوم عليه السلام ﴿**لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ**﴾[(٤)] وامتناع مسّه بالقلوب والعقول على غير المعصوم مستمر إلى يوم القيامة.

---

(١) مجمع البحرين: ج٦، ص١٥٢، (كرم).

(٢) سورة الواقعة: الآيتان ٧٧-٧٨.

(٣) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

ولعلَّ البعض يحصر المطهرين بالملائكة، وهذا غير سديد؛ لاستلزامه نقض الغرض؛ لتعذر اتصال الناس بالملائكة، والذي يحقق الغرض هو المعصوم الذي يقود الناس ويعلمهم ويهديهم، وهنا تتم الحجة على جميع علماء الأديان والمذاهب، فمن الذي يستطيع أن يدرك معاني القرآن؟

والجواب عن هذا السؤال منحصر بالكتاب والسنّة؛ وقد تضافر عند الخاصة والعامة أن تفسير القرآن وفهم معانيه الحقيقية ليس إلّا عند أهل البيتعليهم السلام، وفي صحابة النبيصلى الله عليه وآله لم يكن ذلك إلّا عند أمير المؤمنين والحسن والحسينعليهما السلام.

وفي حديث نقله الحاكم النيسابوري وقال عنه حديث صحيح الإسناد، وعبّر عن الراوي بأنه ثقة مأمون عن أبي سعيد التيمي عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال: كنت مع عليعليه السلام يوم الجمل، فلما رأيت عائشة واقفة دخلني بعض ما يدخل الناس، فكشف الله عني ذلك عند صلاة الظهر، فقاتلت مع أمير المؤمنينعليه السلام، فلما فرغ ذهبت إلى المدينة فاتيت أم سلمة فقلت: إنّي والله ما جئت أسأل طعاماً ولا شراباً ولكنّي مولى لأبي ذر، فقالت: مرحباً، فقصصت عليها قصتي، فقالت: أين كنت حين طارت القلوب مطائرها؟ قلت: إلى حيث كشف الله عزَّ وجل ذلك عنّي عند زوال الشمس، قالت: أحسنت سمعت رسول اللهصلى الله عليه وآله يقول: ﴿علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض﴾[1].

---

(١) المستدرك (للحاكم النيسابوري): ج٣، ص١٢٤؛ وانظر البحار: ج٢٢، ص٢٢٢، ح٢.

فماذا تعني علي مع القرآن والقرآن الذي هو كريم في كتاب مكنون مع علي؟

الجواب: تعني أنّه مكنون في قلب علي، وعلي عالم بكل ما فيه. هذا ما يستفاد من الكتاب والسنة اللذين هما الحجة عند جميع المذاهب، والذي يؤكد هذه الحقيقة هو أن المعية من العناوين ذات الإضافة، فذكر أحد الطرفين يغني عن ذكر الآخر، ومع أنّ علياً مع القرآن -والعنوان ذو الإضافة يكفي لبيان الآخر- إلّا أن النبيّ صلى الله عليه وآله ذكر الطرف الآخر وقال: ﴿والقرآن مع علي﴾ فتضمن الحديث جملتين في الأولى المبتدأ علي والخبر القرآن، وفي الثانية المبتدأ القرآن والخبر علي. هذا ما يفيد أنّ جوهر القرآن وجوهر علي لا يعرفهما إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله، وقوله علي عليه السلام مع القرآن أمر واضح، وأما القرآن مع علي عليه السلام معناه أن كل قول وفعل وعلم يصدر من علي عليه السلام القرآن معه فهو من القرآن أي هما صورتان لحقيقة واحدة، وهذا ما يجب أن تلتفت إليه أمة القرآن بعلمائها وباحثيها وعموم أهاليها فإن القرآن والسنّة يتفقان على أنّ علم القرآن عند علي وعلي هو القرآن وليس هذا عند أحد من الصحابة غيره فكيف لا يكون هو الخليفة بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وهو المفسر والشارح والمطبق للقرآن؟

وهنا سؤال: يا علماء الإسلام من أي مذهب كنتم ارجعوا إلى الفطرة والوجدان فالقرآن والسنّة محور البحث وليست السنّة بطريق هذا إذا كان علم الكل وكل العلم عند علي عليه السلام، وإذا كان القرآن الذي له ظهر وبطن وله تخوم وعلى تخومه تخوم، والقرآن الذي بروايات الفريقين نزل على سبعة

أحرف أي سبعة بطون، وللبطون بطون، وفي هذه البطون تبيان كل شيء، وكلها مجتمعة في علي عليه السلام فكيف لا يكون هو الإمام والمرجع في الدين والدنيا[(١)] ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[(٢)]؟

(١) انظر حلية الأولياء: ج١، ص٦٥: تفسير البرهان: ج١، ص٥٢، ح١٩.
(٢) سورة يونس: الآية٣٥.

المبحث الثالث: أثر القرآن في حياة الإنسان

لبيان هذه الحقيقة نشير إلى مسألتين:

إحداهما: تتعلق بالوظيفة الشرعية.

وثانيهما: تتعلق بالوظيفة المعرفية.

المسألة الأولى: وجوب تعلّم القرآن وتعليمه

أنّ تعلّم القرآن وتعليمه وقراءته من الواجبات على كل مسلم ومسلمة، وفي بعض مراتبه يكون واجباً عينياً كالحمد والسورة التي يجب أن يقرأها المسلم في صلاته، فيكون من الوجوب المقدّمي، وفي بعض مراتبه كفائياً وهو تعلم كل القرآن وتعليمه؛ لوجوب حفظه من الاندراس والضياع؛ إذ قامت الضرورة والإجماع على حرمة ذلك، بل والروايات، فعن الإمام الرضا عليه السلام: «أن الناس أمروا بقراءة القرآن في الصلاة لئلا يكون القرآن مهجوراً مضيعاً، بل يكون محفوظاً مدروساً فلا يضمحل ولا يجهل»[1] وهو ما يقضي به العقل أيضاً من جهات ثلاث:

الأولى: حكمه بوجوب شكر المنعم الذي أنزل إلينا القرآن لإخراج البشر من الظلمات إلى النور، ومقتضى شكر هذه النعمة هو حفظ القرآن واحترامه والعمل به وعدم تضييعه.

الثانية: حكمه بوجوب دفع الضرر المترتب على التخلي عن القرآن والإعراض عنه، وهذا الضرر ليس محتملاً بل معلوماً، فإن الإعراض عنه من أكبر الظلم والجور على الله والرسول، ونتيجته الضلالة، وكل ضلالة في النار.

---

(١) علل الشرائع: ج١، ص٢٦٠؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج١.

الثالثة: حكمه بوجوب تحصيل العلم والاكتمال به، وقد عرفت أن ارتقاء الإنسان وكماله الروحي والعقلي يتحقق بالأخذ من القرآن، ولا يصل الإنسان إلى غايته المادية والمعنوية إلّا به، و أيضاً يجب التفكر في القرآن والتدبر فيه وفهم معانيه لوجوب العمل به، وفي وجوبه احتمالان عيني وكفائي. والأقوى أنّه واجب عيني في الجملة؛ لتوقف عمل كل إنسان مؤمن وعقيدته على ذلك، وتفصيل البحث في الفقه[١].

وسوف يشتكي رسول الله صلى الله عليه وآله إلى ربه من الناس الذين يضيّعون القرآن ويهملونه ويركضون وراء هذا وذاك من ظلمات البشر وجهالاتهم ﴿**وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً**﴾[٢] والمنطوق صريح في وقوع القول في حياة النبي صلى الله عليه وآله، فيدل على تحقق ذلك في حياته فضلاً عما بعده، كما يدل أنّ الأمة ستفتتن من بعده، وتنقلب على أعقابها، وواقع المجتمع المسلم هو هذا، حيث هجروا القرآن في العلوم والمعارف والقوانين والأنظمة القضائية والاقتصادية والتربوية، وأخذوا من الغرب والشرق والملاحدة، وكثير من البلاد المسلمة اليوم تخالف القرآن حتى في القوانين والأنظمة وأساليب الحكم والمبادئ العامة للمجتمع والدولة.

مثلاً: القرآن نص على حرمة الربا إلّا أنّ الاقتصاد والمصارف والتعاملات قائمة عليه، والقرآن يحرّم الخمر والفاحشة والمنكرات في الاعلام والمظاهر

---

(١) انظر الفقه حول القرآن الحكيم: ص١٣.

(٢) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

العامة فضلاً عن التعاليم والقوانين والسلطات الحاكمة تبيح ذلك وتعمل به بأساليب مختلفة، وأمر بأنّ المؤمنين أخوة وأنّ الأمة واحدة لكن المسلمين متفرقون متباعدون وربما متحاربون لدواعي عديدة، وهذه الحروب القائمة اليوم ناشئة من الإعراض عن القرآن، وحينما تدخل البلاد الإسلامية تجد هوية المجتمع هو الإسلام إلّا أنّ الأنظمة الحاكمة والقوانين والتعاليم عموماً مخالفة للقرآن. نعم الملتزم من المسلمين يقرأ القرآن للعبادة وتحصيل الثواب، ولكن في مجال العمل لا عين له ولا أثر.

وفي بعض البلاد التي تتمظهر بالإسلام توجد مدارس لتحفيظ القرآن وتجويده ولكن لا يتجاوز تراقيهم، وحدوده متوقفة عند حفظ اللفظ وتحسين القراءة بالأصوات الجميلة وتجويده، وأما العمل به فلا، وواضح أنّ مثل هكذا قوم -يهجروا القرآن- لابد وأن يكون مصيرهم التيه والضياع والشقاء.

وفي الآية لطائف هامة:

منها: أنّ الرسول يشتكي إلى ربه من قومه ولم يدع عليهم؛ لأنّه رحمة للعالمين.

ومنها: قوله: ﴿قومي اتخذوا﴾ لا «هجروا» فإنه يدل على تعمد ذلك والإصرار عليه، وهذا هو واقع المسلمين اليوم، والنكتة اللطيفة أنّ القرآن بينهم موجود ولكنهم هجروه ولم يعملوا به. وهذا النهج لا يختص بالقرآن المكتوب بل شمل القرآن الناطق أي أمير المؤمنين عليه السلام وشواهد التاريخ تؤكد أن المهاجرين من قريش كانوا الزعماء في هذا المنهج بقرينة الإضافة في قوله (قومي)، وقد أسسوا لهذا المنهج ومضوا عليه جيلاً بعد جيل إلى يومنا هذا.

فالأمة التي تهجر قرآنها ولا تقتدي به ينتهي مصيرها إلى الشقاء.

ومنها: قوله: ﴿هذا القرآن مهجورا﴾ شاهد على أنّ القرآن كان مجموعاً في زمانه صلى الله عليه وآله، فدعوى أنّ الأول أو الثاني أو غيرهما جمعوه غير سديدة.

ومنها: أنّ الشكوى كاشفة عن شدة الظلم الواقع على القرآن، فيجب على الجميع رفعه بالرجوع إليه وإلّا ساهموا في ظلمه.

المسألة الثانية: تطهير النفس بالقرآن

أنّ تطهير النفس وتهذيبها وتكميلها يتوقف على قراءة القرآن وفهم دقائقه وحقائقه، ولو اهتم الناس الذين يحرصون على تربية نفوسهم وأسرهم وأولادهم ويدخلونهم المدارس ويربونهم على قراءة القرآن لبلغوا الغاية، ولو اهتمت وزارات التربية في البلاد الإسلامية على جعل القرآن مادة أساسية في التربية لارتقى مستوى العلم والتربية في البلاد الإسلامية، فإن التربية والتهذيب تبدأ من القلب، والقلب هو الذي يقود الإنسان إلى الهداية والضلالة، وهو الأرض التي تنبت فيه الحكمة، وقد تضافر في الأخبار أن القلوب لتصدأ فاجلوها بتلاوة القرآن[1]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿أنّ القرآن ربيع القلوب﴾ وفي نهج البلاغة: ﴿وتعلّموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهّوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور﴾[2].

---

(١) انظر شجرة طوبى: ج٢، ص٤٤٢؛ تفسير السمرقندي: ج٣، ص٦٠.

(٢) نهج البلاغة: ج١، ض٢١٦، الخطبة (١١٠).

وهذه حقيقة يؤكدها الواقع فما من مهموم أو محزون أو مبتلى إلّا ويزول همه وحزنه بقراءة القرآن، وما من جاهل إلّا وتعلّم لو استعلم القرآن، والمراد بالتفقه فيه أي التفهم[1].

وتشبيه القرآن بالربيع من باب تشبيه المعقول بالمحسوس، فإن الربيع للأرض والفضاء يوجب الحياة، ففي الربيع يكثر الماء وتنبت الأشجار ويصفو الجو ويعذب، وبه تدب الحياة في الأرض، وهكذا القرآن لروح الإنسان وعقله، وكذلك عمله وحياته الإنسانية هو الربيع لها، فإن ربيع الإنسان فكراً وعملاً كلمات الله تعالى.

ودليل هذا الكلام فضلاً عن كلام مولى الموحدين القرآن نفسه في آيات عديدة منها: ﴿**لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إذ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ**﴾[2] فجميع غايات البعثة ومهامها في هذه الآية اجتمعت، وعمدتها ثلاث:

الأولى: يتلو عليهم آياته.

والثانية: ويزكيهم.

والثالثة: ويعلمهم الكتاب والحكمة.

والتسلسل منهجي، فالتلاوة للآيات ولكن التعليم للكتاب؛ لأنّ الكتاب تبيان لكل شيء، وقد جمع كل العلوم والمعارف، فالكتاب والحكمة

---

(١) مجمع البحرين: ج٦؛ ص٣٥٥، (فقه).

(٢) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

هو الغرس الذي ينبت في القلوب والنفوس، وبهما ينموان حتى يصبحا ﴿شَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّماءِ ۞تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾[1] هذه الغاية العظمى للبعثة النبوية، وهي تربية الإنسان حتى يكتمل ويصبح شجرة مثمرة معطاءة بالخير والفضائل، ولكن حتى يصل الإنسان إلى هذه المرحلة لا بد وان يقطع مرحلتين:

الأولى: أن يتلو آياته.

والثانية: ويزكيهم.

وبعد طي التلاوة والتزكية يصل إلى مرحلة العلم والتعليم، ويحار فكر أهل المعرفة بهذا الترتيب والتسلسل العلمي الواقعي وسر كونه ربيعاً للقلوب، فبيّنها القرآن نفسه في الآية؛ إذ يقول: أولاً التلاوة للآيات؛ لأن قراءة الآيات تحي القلوب، فإن القلوب الميتة لا تؤثر فيها التزكية، ولا يغرس فيها العلم والمعرفة، فلا تزكية بلا تلاوة، ولا علم بلا تزكية. هذه هي الحقيقة.

فأولاً: إحياء القلوب، ويتحقق بتلاوة الكتاب، فهي بمنزلة المقتضي للزرع الطيب بعد الحياة والانتعاش، وحتى يظهر الأثر لابد من إزالة الشوائب المانعة، وهي التزكية أي الطهارة من العقائد الباطلة والصفات الذميمة، فإن هذه حجب ظلمانية تمنع من النور، كما أن الفلاح يعمل هكذا، حيث يصلح الأرض ويزيل موانعها حتى يأتي الربيع وينبت فيها الزرع،

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٢٤ -٢٥.

وهكذا النفوس مالم تزكو وتطهر من الشوائب، فإن الحكمة لا تنبت فيها، والتخلية والتحلية من أهم أركان التربية والتعليم، والحكمة ليست إلّا معارف الكتاب والسنّة وكل معرفة لا تطلب منهما فهي ضلالة ﴿**وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[١] والمراد من القبلية قبليَّة الرتبة لا الزمان، أي كل ما ليس من الكتاب والسنّة هو ضلال، والباحث المحقق لو جمع أوراق أفكار البشر وطالعها ونظر في كل ما قاله نوابغهم لعرف هذه الحقيقة. فإن كل المدارس الفكرية عجزت عن الإرتقاء بالإنسان إلى كماله اللائق بدءاً من الطبيعيات إلى ما وراء الطبيعة، وغاية ما توصلت إليه هي الأخطاء وتراكم الأدلة على القصور.

مثلاً: في تركيب الجسم وهو أقرب الأشياء إلينا، وأول موضوع بُحث في الطبيعيات البشرية ففي كتب الفلاسفة له سلسلتان ومدرستان من النظر الفني، أحدهما ينظر إليه من جهة سيره من القوس النزولي للصعود، والآخر من القوس الصعودي للنزول. إما من الأعلى للأسفل، أو من الأسفل للأعلى، وعلى الأول يبدأ البحث من مبدأ المبادئ حتى يصل إلى الهيولى، وعلى الثاني يبدأ بالعكس حتى يصل إلى أعلى المطالب.

في ألف باء البحث من حكماء البشر -هؤلاء الذين أفكارهم عميقة- اختلفت الآراء في حقيقة الجسم ما هو؟ ومؤلف من ماذا؟ وتأليفه من أجزاء وهل من أجزاء صغار لا تقبل التجزئة أم تقبل التجزئة؟ وهل تقبلها

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

حقيقة أو وهماً؟ هذه سلسلة من الأبحاث، وهناك سلسلة أخرى، وهي أنّ الجسم هل هو مركب؟ وهل مركب من مادة وكم؟ أم مركب من جوهرين هيولى وصورة؟ وإذا خضنا في التفصيل نجد التخبط في أفكار البشر في معرفة حقيقة الجسم، الذي هو أقرب الأشياء إلى الإنسان، وحينئذ نستنتج أنّ العقل الحر يصل إلى استحالة وصول البشر إلى الحقيقة إلّا بمساعدة الوحي، ومن دونه عاجز.

والطريق الذي ضيّعناه والذي يجب الرجوع إليه هو القرآن؛ لذا قال: ﴿يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[1] حتى تحيا القلوب، ثم ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ حتى تصفو وبـ ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (يتنور) قلب الإنسان وعقله، وبتلاوة القرآن ومطالعة الروايات تستخرج الكنوز والجواهر، وهذا ما يفسر وجه الأمر النبوي بلزوم تلاوة القرآن على كل حال.

فقد روى محمد بن يعقوب، عن معاوية بن عمار بسند صحيح عال عن أبي عبد الله عليه السلام في وصية النبي صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام.

يقول صلى الله عليه وآله: «وعليك بتلاوة القرآن على كل حال»[2] ونلاحظ هنا أن موضوع الحديث وصية، والوصية بالشيء تكشف عن خصوصيته وأهميته.

والوصية قسمان: وصية تمليكية ووصية عهدية، وهنا الوصية مندرجة في العهدية، وهي عهد تعهده النبي صلى الله عليه وآله مع الوصي، وبها تزداد أهمية هذه

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) الكافي: ج٨، ص٧٩، ح٣٣؛ الدعائم: ج٢، ص٣٤٨، ح١٢٩٦؛ الفقيه: ج٤، ص١٨٩، ح٥٤٣٢؛ التهذيب: ج٩، ص١٧٦، ح٧١٣.

الوصية؛ خاصة وأنّ الموصي أشرف من خلق الله وأعلمهم، والموصى من هو نفسه، والموضوع وصية عهدية بين خاتم الأنبياء وسيد الأوصياء، فالالتفات إلى هذه الخصوصيات يظهر لنا أهمية الموضوع، وهذه واحدة من أساليب فهم الحديث وفقهه. وإطلاق ((كل حال)) يعني ماشياً جالساً واقفاً صامتاً صاحياً مريضاً.

وقوله «عليك» لتأكيد الجعل على العهدة، ولو قال: «اقرأ القرآن على كل حال» أو: يجب أنّ تقرأ لكفى، لكن الأهمية لم تعرف إلّا بعليك؛ لأنّها تفيد الجعل على العهدة، فعلى كل حال عليك بتعهد قرآءة القرآن؛ لأنّه ربيع القلوب، وبه تحيا وتنمو وتثمر الخبرات والفضائل، ويصير الإنسان إنساناً إلهياً.

هذه وصية النبي صلى الله عليه وآله للوصي عليه السلام، فما بالك بالناس العاديين؟ وليس ثمرة التلاوة في نبات الحكمة والعلم فقط، بل نجاة الآخرة، وهو ما يستفاد من الأخبار. مثلاً: سورة يس التي هي تشتمل على ثلاثة آلاف حرف كما يقولون.

فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: ﴿من قرأ القرآن قائماً في صلاته كتب الله له بكل حرف مائة حسنة، ومن قرأه في صلاته جالساً كتب الله له بكل حرف خمسين حسنة، ومن قرأه في غير صلاته كتب الله له بكل حرف عشر حسنات﴾[(١)] لو أنّ الشخص يقرأ القرآن في حال الصلاة قائماً يعطى لكل

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦١١، ح١؛ الوسائل: ج٦، الباب ١١ من أبواب قراءة القرآن، ص١٨٧، ح٧٦٩٠.

حرف مائة حسنة، وتسجل في سجل عمله، وإذا قرأها جالساً يعطى في كل حرف خمسين حسنة، وإذا قرأها في غير الصلاة يعطى في كل حرف عشر حسنات.

والنتيجة: أنّ الإنسان الواحد إذا قرأ كل يوم سورة ياسين في قنوت صلاته أو في صلاته الواجبة أو المستحبة أو يقرؤها في حال الوقوف ثلاثة آلاف حرف وكل حرف مائة حسنة يسجل له في اليوم الآف الحسنات، وإذا قرأها من دون الصلاة كذلك، فإذا ضممنا هذه الرواية إلى القرآن نجد أنّ القرآن يقول: ﴿**فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[1] في يوم تكون النجاة بثقل الميزان، والثقل بالحسنات، و(المفلحون) تفيد أن يكون صاحب الموازين الثقيلة فالحاً في نفسه ومفلحاً لغيره، وهو مقام الشفاعة والطريق الذي عينه النبيصَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ للوصي هذا ﴿**فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ۞ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ**﴾[2] أي مرضية اسم فاعل بمعنى اسم المفعول، وهذا من الموارد النادرة، فإذا الإنسان يقرأ هذه السورة في كل يوم قياماً أو جلوساً وفي غير الصلاة تتراكم الحسنات، ويثقل ميزانه، فيكون في عيشة مرضية، وبهذا الترابط بين القرآن والسنة يصل الإنسان إلى غاياته في العلم والمعرفة، ويرتقي إلى الكمالات لا بأحدهما.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨.

(٢) سورة القارعة: الآيتان ٦ – ٧.

المبحث الرابع: موضوع التفسير وغايته

اشتهر التعبير عن بيان معارف القرآن ومضامينه بعلم التفسير، وهو صحيح من باب الاصطلاح؛ لكونه حقيقة عرفية خاصة، ولا مشاحة في الاصطلاح، أو من باب المعنى اللغوي، فإن التفسير في اللغة هو كشف معنى اللفظ وإيضاحه[١]، ولنا فيه قيد سنأتي إلى بيانه، ويتطابق هذا مع أول مراتب الدلالة القرآنية التي نص عليه الحديث -أي العبارة-، والمراد فهم العبارة التي يدركها العوام كما يشمل الاشارة التي يدركها العلماء بواسطة الملازمات العقلية والقرائن الظاهرة والخفية كدلالة الاقتضاء ودلالة الإيماء والتلويح ونحو ذلك على ما قرره المناطقة والاصوليون.

وأما لو أريد به ما يشمل فهم لطائف الكلام أو حقائقه أو بطونه أو تخومه التي نصت عليها فهو غير سديد؛ لأن اللطائف والحقائق والبطون والتخوم لا يدركها إلّا المعصومعليه السلام.

وعليه فإن البحث في معارف القرآن لا يستغني عن مرجعية المعصومعليه السلام في جميع الدلالات الأربع. أما على مستوى العبارة فلأنّ كلام المعصومعليه السلام وحي، كما أنّ القرآن وحي، فكلام المعصومعليه السلام يخصص أو يقيّد أو يكشف عن القرائن الخفية، أو يكشف عن المعنى المراد في الآية، وكذا على مستوى الإشارة.

وأما على مستوى اللطائف والحقائق فلتعذّر فهمها إلّا بواسطته، فلا يستغني الباحث في معارف القرآن ومضامينه عن الرواية، ودعوى أن فهم

---

(١) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٠١، (فسر).

القرآن يكون بواسطة القرآن نفسه إذا أريد بها أن بعض الآيات تكون قرينة على فهم الآيات الأخرى كما أن الروايات تكون مفسرة ومبيّنة للمعاني فهو وجيه، وعليه مضت طريقة علماء الشيعة في التفسير، وإذا أريد به الاستغناء عن الروايات والاكتفاء بالآيات في ذلك فهي دعوى باطلة.

أولاً: لما فيها من شبهة الدور.

وثانياً: لأنّ القرآن يبطلها؛ إذ نص على أن ما آتاكم الرسول فخذوه[1]، على أنّ كلام المعصوم عليه السلام وحي، وكلام المعصوم عليه السلام وكلام الله تعالى واحد من حيث الجوهر والحقيقة، إلّا أن كلام الله نزل بداعي الإعجاز. أما كلام المعصوم ورد بداعي البيان والتعليم.

كما تبطلها الأحاديث المتواترة في السنة الشريفة مثل حديث الثقلين الذي نص على وجوب الالتجاء والتمسك بالقرآن والعترة معاً، وأن التمسك بأحدهما ضلالة[2]، وعلى هذا الأساس سنلجأ إلى الروايات الشريفة لفهم المعنى واستخلاص الحقائق من الآيات.

---

(١) التهذيب: ج٩، ص٣٩٧، ح١٤١٧؛ مستدرك الوسائل: ج١٧، الباب ١٥ من أبواب ميراث الأبوين والأولاد، ص١٧٣، ح٢١٠٧٢.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤١٥، ح١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤.

ما يجب معرفته أولاً

وعلى كل تقدير فقد اشتهر التعبير عن التفسير بالعلم، ومقتضى القاعدة لدى البحث في أي علم وجوب التعرف على أمور ثلاثة هي: موضوع العلم وغايته ومرتبته بالقياس إلى غيره من العلوم، وبهذه الأمور الثلاثة تتميز العلوم عن بعضها وتفترق، وموضوع العلم هو الجامع لموضوعات مسائله، وهو أول ما يميّز العلوم، وإذا اتضح الموضوع اتضحت مرتبة العلم وشرفيته؛ لأنّ شرف العلم بشرف موضوعه، ولا خلاف في أنّ موضوع علم التفسير هو كلام الله سبحانه أي القرآن الكريم.

وكل علم له جهتان:

الأولى: موضوعية العلم.

والثانية: طريقية العلم.

ولا يمكن للعالم أن يكون عالماً بالعلم إلّا إذا أحاط بالأمور الثلاثة المتقدمة، فيحيط بموضوعية العلم وطريقيته، والمراد بموضوعية العلم هو أنّه كمال ومطلوب في نفسه، وهذا أمر بديهي تشهد به الفطرة الإنسانية.

وأما جهة الطريقية فالمراد بها الثمرة المترتبة على العلم.

مثلاً: علم قواعد النحو غايته وثمرته صون اللسان من الخطأ في المقال. هذا غاية ما يتوصل إليه النحوي، وبهذا يختلف عن علم المنطق؛ لأنّ غايته حفظ الذهن من الخطأ في التفكير، وباختلاف الثمرتين يتمايز العلمان، فإن الأول يحفظ اللسان من الخطأ، والثاني يحفظ الذهن من الخطأ، وغاية التفسير

إيصال الإنسان إلى كماله المادي والمعنوي بواسطة القرآن ليتطابق في أفكاره وصفاته وأعماله مع نهج الخالق، ويتخلق بإخلاقه، وهذا يقوم على ركنين:

أحدهما: إدراك الوظائف.

ثانيهما: إدراك المعارف.

والوظائف يعبر عنها القرآن بالأوامر والنواهي ونحوهما، والمعارف بالبصائر والبينات، وهو ما أشارت إليه الآيات كثيراً.

أما موضوع العلم فهو القرآن، وهنا يكل البيان عن توضيحه، وتتحير العقول؛ لأن تعريف الموضوع يستدعي الإحاطة به، ونحن قاصرون عن ذلك.

لذا لا مناص من اللجوء إلى المعصوم عليه السلام لمعرفته، وجميع الفلاسفة والحكماء والعرفاء والمناطقة والفقهاء ونوابغ البشر يقصرون عن تعريفه ودركه لقصورهم عنه؛ لكونه من حقائق الغيب، فلا يمكن تعريف القرآن إلّا بواسطة أهل القرآن.

المبحث الخامس: أدب المفسِّر المعنوي

كل كلام يصدر من متكلم يراد به إفهام الغير لكن مقاصد الكلام تختلف، وعلى أساسها انقسم الكلام على أقسام:

الأول: الكلام العلمي الذي يظهر فيه المتكلم مقاصده وكمالاته، ويحاكي به الخواص مثل كتب العلم التخصصي، ويتميّز بأنّه يكون على مستوى المتكلم لا السامع، فعلى السامع أن يرتقي بمستواه ليبلغ مداه.

الثاني: الكلام التفهيمي، ويراد به إيصال مضامينه إلى الغير وإفهامهم به، وهو الغالب في كتب العلم الأولية والدراسات والأبحاث والمحاورات العرفية، فإن غاية المتكلم إيصال المضامين إلى السامعين، ويتميّز بأنّه على مستوى السامع، فيتنازل عن عمق المضامين؛ لأجل تبسيطها حتى تفهمها الأذهان وتدرك معانيها.

الثالث: الكلام الجامع للأمرين معاً، وهذا نهج صعب يتميّز به كلام الله سبحانه في قرآنه العظيم، فإنه جمع بين مقام المتكلم العالي الرفيع ومقام السامع الداني البسيط.

وغايته تصيير الداني الناقص الجاهل كائناً إلهياً عالياً بملكاته، كاملاً بفضائله، عالماً عارفاً بنفسه وبربه، مسانخاً له في شؤونه، وهذه الغاية أسمى غاية طلبتها الكتب السماوية، ونزلت لأجلها الأديان، وضحّى لأجلها الأنبياء والأولياء، ولم يفز بها إلّا محمد وآل محمد عليهم السلام، فكانت سجاياهم وأقوالهم وأفعالهم وأخذهم وعطاؤهم وحياً وقرآناً أقر لهم بذلك القرآن

نفسه؛ إذ قال تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾(١) كما كشف الباري عزّ وجل عن سعة علومهم وكمالاتهم بقوله سبحانه: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾(٢) وتضافر في الأخبار الشريفة وصفهم بالقرآن الناطق(٣).

ولا يوجد في الخليقة غيرهم من يدرك معاني القرآن وعمقه، ويفهم أسراره، فإنّ العقول القاصرة المحدودة يستحيل أن تحيط باللامحدود من حيث القوة المعنوية أو المادية.

وضرب الباري عزّ وجل لهذا مثلاً في قوله تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾(٤) و(لو) تفيد الامتناع، والمعنى أنّ القرآن لو أنزل على جبل وهو أصلب شيء في الماديات وكل صلب ينبع منه؛ لأنه مخزن المعادن وقدِّر له أن يفهم معناه لتصدَّع وانهار من ثقل معاني القرآن وتجلي آيات الله فيه، فالنزول في الآية معنوي لا مادي؛ لوضوح أن القرآن بحجمه المادي كتاب تحمله الأيدي فما بالك بالجبال.

ويحاكي هذه الحقيقة قوله تعالى في قضية موسى عليه السلام: ﴿**فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ موسَى صَعِقًا**﴾(٥) بناء على أن فاعل الدك هو التجلي،

---

(١) سورة النجم: الآيتان ٣-٤.

(٢) سورة يس: الآية ١٢.

(٣) إحقاق الحق (الأصل): ص١٩٧.

(٤) سورة الحشر: الآية ٢١.

(٥) سورة الأعراف: الآية ١٤٣.

ويراد به التجلي المعنوي، فهو معنى ثقيل لا يقوم الجبل على حمله، بل يندك على الأرض، وموسى عليه السلام صاحب القلب الزكي والعقل النوري وذو المقامات الربانية العالية لم يطقه وخرّ صعقاً منه. ولولا أن يكون التجلي خاصاً لموسى عليه السلام بقرينة الضمير في (ربه) الذي يفيد ذلك لاندك كل شيء بما فيها الأرض والسماوات.

والصعق يراد به الغشية المصحوبة بالصوت الشديد التي تصيب الإنسان من الأعلى[١]. يقال: صعق الرجل أي غشي عليه من الفزع بصوت يسمعه[٢]، وتجلى الله عز وجل في كتابه، وأنزله على رسوله فاستوعبه واستنار به. قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ**﴾[٣] وفي القرآن أودع الله سبحانه كل شيء فيه تبيان كل شيء، والتبيان الظهور والتجلي، وكلها جمعها في هذا القلب الإلهي العظيم كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿**وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ**﴾[٤] والإحصاء التحصيل بالعدد، ولازمه الإحاطة بالأشياء[٥]، ويقال أحصى الشيء أي عرف قدره[٦].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٥، (صعق)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥١٥، (صعق).

(٢) مجمع البحرين: ج٥، ص٢٠٢، (صعق).

(٣) سورة الشعراء: الآيتان ١٩٣-١٩٤.

(٤) سورة يس: الآية ١٢.

(٥) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٠، (حصا).

(٦) المعجم الوسيط: ج١، ص١٨٠، (حصاه).

وهذا النزول نزول التبليغ والبيان. أما الإيجاد والتعليم فهما مندمجان بوجود رسول الله ﷺ قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(١) وبناء على أن التسلسل في الآيات طولي كما يفيده ورودها كجمل خبرية خالية من العطف؛ لبيان أنّها حقيقة واحدة لها ثلاثة مظاهر: مظهر التعليم للقرآن، ومظهر الخلق، ومظهر تعليم البيان وبضمير الإضافة (علّمه) يفيد أن البيان ليس من ذاته بل بتعليم الله سبحانه، وفي ذلك دلالة على أن اللغة من وضع الباري، وأن الإنسان لولا تعليم الباري عاجز عن النطق.

و(علّم) وإن احتمل التعليم والعلامة إلّا أنّ حمله على الأول ممتنع؛ لتوقف التعليم على متعلِّم، وقبل خلق الإنسان لا تعليم؛ لانتفاء المتعلم، والقول بأن التعليم للملائكة مخالف للظهور، ولعموم الأدلة النقلية والعقلية النافية لذلك.

فالمتعلِّم يسبق التعلُّم وجوداً، وتسبقه أيضاً القدرة على التعلُّم، وإلّا كان التعليم بلا أثر، ولا يعقل أن يراد من الإنسان الجنس؛ لأنه مجرد مفهوم، والتعليم يكون للمصداق، ولا يعقل أن يكون المصداق هو الإنسان العادي لسببين:

السبب الأول: لاستلزامه الترجيح بلا مرجح؛ لتساوي الجميع إليه.

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١-٤.

والسبب الثاني: لفقدان القابلية على التعلّم، فتعيّن أن يكون الإنسان مصداقاً خاصاً وهو الذي اجتمعت فيه كل خصال الإنسانية وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتعيّن أن يكون ﴿**عَلَّمَ**﴾ بمعنى العلامة، وهي في عالم الخلق والإيجاد تعني التشخيص والتحديد، وبمقتضى العطف يحمل قوله ﴿**عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ على خلق روح النبي صلى الله عليه وآله، ثم بقوله ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ**﴾ إشارة إلى دمجها بوجوده البدني؛ بداهة أنّ الوجود المحمدي إلهي نوراني أشتق من نور الله عزّ وجل، وأودع في البدن البشري فصار إنساناً.

ولعل ذكر اسمه تبارك وتعالى الرحمن دون لفظ الجلالة للإشارة إلى التطابق بين الخالق والمخلوق الأول في الرحمة، فإنّ الباري عزّ وجل من جهة رحمانيته أوجده وبعثه للناس رحمة للعالمين، فهو مظهر رحمة الله ورحمانيته، كما أنه مظهر وحيه وكتابه، وهذا يعزز ما ذكرناه، ويشهد له الروايات العديدة الواردة في بيان معنى الآيات، فإنها متضافرة على أنهم عليهم السلام المقصودون أولاً، فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: ﴿سورة الرحمن فينا من أولها إلى آخرها﴾[1] وفي رواية الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام قال: سألته عن قول الله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾ قال: ﴿الله علّم القرآن﴾ قلت: فقوله: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ؟**﴾ قال: ﴿ذاك أمير المؤمنين علّمه الله بيان كل شيء يحتاج إليه الناس﴾[2] إلى غيرها من الروايات.

---

(١) تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣٠، ح١.

(٢) تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣٠-٦٣١، ح٢.

المبحث السادس: القرآن والنبي والإمام عليهما السلام

إن الجمع بين دلالة الآيات والروايات المتقدمة يفيد أمرين:

الأمر الأول: أنّ روح النبي هي القرآن قبل خلق البدن وبعد خلقه صار هو الإنسان الكامل، وحيث إن خلق الأرواح قبل الأبدان ذكر القرآن قبل الإنسان، وما ينطبق على النبي صلى الله عليه وآله ينطبق على أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّهما نور واحد انشعب إلى شخصين. هذا كله بناء على أنّ قوله: (علّم) بمعنى العلامة، وبناء على أنّه التعليم فلأنّ القرآن نور الله ووحيه وهدايته للبشر، وأن هذه هي مهمة النبي صلى الله عليه وآله، وإليها بعث، فإنه اقتضى تعليمه وتكميله بالقرآن أولاً، والتعليم متأخر عن وجود المعلِّم والمتعلِّم، ومن النبي اشتق نور علي عليه السلام، فهو متفرع منه ومطابق له في كمالاته لذا وصفته الرواية بأنه الإنسان، وفي ذلك إشارة إلى حقيقتين:

الأولى: أن كلام علي عليه السلام هو كلام الله حصل من تعليمه، فهو وحي يوحى، فالآية تحكي قوله تعالى عن النبي: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾(١) وفي آية أخرى: ﴿**عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى**﴾(٢) وهو الله عزّ وجل، وهذه جهة يشترك فيها علي عليه السلام، وبهذا التعليم الإلهي الخاص صار أمير البيان وإمام البلاغة، ولا يدنو كلامه كلام أحد من الخلق، فكلام النبي صلى الله عليه وآله وحي قرآني، وكلام علي عليه السلام وحي رباني. كلاهما يجتمعان في الجوهر ويختلفان في المظهر، وأهل البلاغة والخبرة بالكلام يعرفون التمييز بين الكلامين.

---

(١) سورة النجم: الآية٥.

(٢) سورة النجم: الآية٣-٤.

الثانية: أن مهمة أمير المؤمنينعليه السلام البيان وإظهار العلوم الإلهية للخلق، وهي مكملة لمهمة النبيصلى الله عليه وآله، فإنه أوتي فصل الخطاب وجوامع الكلم، أي الكلام الموجز في دلالته، وقد فسّر فصل الخطاب بالقرآن[١]، وأمير المؤمنين المفصِّل له.

كما أنهصلى الله عليه وآله أوجز علومه وأمير المؤمنينعليه السلام فصلّها وبيَّنها، وفي ذلك حكم ومصالح ربانية تتعلق بإثبات الحقيقة الواحدة بين النبي والإمامعليهما السلام ووحدة الجوهر بين النبوة والإمامة، وترسيخ مرجعية الإمام في الخلق؛ لأن هدايته لهم إيصالية لا إرائية.

وهذا ما يعززه قول الصادقعليه السلام في معنى ﴿**عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾ قال: «البيان الاسم الأعظم الذي به علم كل شيء»[٢] وبضميمة تفسيرهعليه السلام الإنسان بأمير المؤمنين والبيان بالاسم الأعظم يتضح أن علمهعليه السلام محيط بكل ما سوى الله، وما ثبت لأمير المؤمنين ثبت لسائر المعصومينعليهم السلام، وهو ما نص عليه الصادقعليه السلام في رواية حمّاد اللحام قال: «نحن والله نعلم ما في السماوات وما في الأرض وما في الجنة وما في النار وما بين ذلك»[٣].

وعن الإمام زين العابدين لما سأله أبو حمزة الثمالي: الأئمة منكم يحيون الموتى ويبرئون الأكمه والأبرص ويمشون على الماء؟ قالعليه السلام: «ما أعطى الله نبياً شيئاً إلّا أعطى محمداً مثله، وأعطاه ما لم يعطهم وما لم يكن عندهم،

---

(١) البحار: ج٢٦، ص١٤٢.
(٢) مجمع البيان: ج٥، ص١٩٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٢، ص٥٥١.
(٣) تفسير العياشي: ج٢، ص٢٦٦، ح٥٧؛ البحار: ج٩٢، ص١٠١، ح٧٧؛ تفسير البرهان: ج٢، ص٣٨٠، ح١٥.

وكل ما كان عند رسول الله صلى الله عليه وآله فقد أعطاه أمير المؤمنين ثم الحسن ثم الحسين ثم إماماً بعد إمام إلى يوم القيامة مع الزيادة التي تحدث في كل سنة وفي كل شهر وفي كل يوم»(١).

ومما أعطاه لآدم تعليم الأسماء كلها، وما أعطاه لموسى عليه السلام التكليم، ولعيسى عليه السلام، إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، وما أعطى لسليمان عليه السلام مفاتيح خزائنه فيعطي ويمنع بغير حساب.

فالعلم الإلهي والكلام الإلهي والبيان الإلهي عندهم لا عند غيرهم، ومنه يتضح أن معرفة القرآن في تفسيره وتأويله ودرك إشاراته ولطائفه وحقائقه منحصرة بهم عليهم السلام، وهذا مما لا ينبغي الاختلاف فيه؛ لأنه يتوافق مع مدلول حديث الثقلين المتواتر لفظاً ومعنىً بطرق المسلمين(٢)، كما يتضح أن أميّة النبي صلى الله عليه وآله لا تعني عدم معرفته بالقراءة والكتابة، بل إنه لم يتلق العلم والمعرفة من أحد من البشر، وإنّما تعليمه إلهي رباني لدني على حسب أصله وأميّته.

الأمر الثاني: أنّ الآيات ذكرت تعليمين أحدهما للقرآن والثاني للبيان، فيعلم النبي القرآن والبيان، وكلاهما من الباري مباشرة لا بتوسط ملك فضلاً عن غيره.

---

(١) انظر بصائر الدرجات: ص٢٩٠، ح٢؛ تأويل الآيات: ج٢، ص٦٣١، ح٤.

(٢) الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤؛ مختصر البصائر: ص٢٧٥؛ الفصول المهمة: ج١، ص٥٤٩، ح٨١٦؛ المستدرك: ج٣، ص١٤٨؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٣.

وإذا كان المعلِّم العالم المطلق والمتعلم الإنسان الكامل في ملكاته واستعداداته والواسطة بينهما منتفية كان العلم واسعاً لا محدوداً، وفهمه كذلك، وكان المتعلِّم هو الوحيد القادر على فهم كلام المعلِّم وبيان مقاصده وتفسير معانيه، فلذا يتصف تفسيره بأنه:

أولاً: مطابق للواقع.

وثانياً: قطعي لا ظني ولا احتمالي.

وثالثاً: أنه حجة على الخلق أجمعين؛ لأن سعي كل المفسرين والعلماء والفقهاء في التدبر في القرآن غايته فهم كلام الباري والوصول إلى مراده، وليس لغير محمد وآل محمد عليهم السلام سبيل إلى ذلك سوى الاعتماد على العبارة، وما توحيه إليه عقولهم وعلومهم، والكثير من ذلك هو من الظنون التي ألغى الباري عز وجل اعتبارها، وقال بأن الظن لا يغني من الحق شيئاً[1]، ونهى الناس عن اتباعها، فليس أمام العلماء وطالبي الحقيقة سوى الرجوع إلى محمد وآله عليهم السلام لفهم القرآن والتعلم منه.

ويعززه شكوى النبي صلى الله عليه وآله إلى الله عز وجل يوم الحشر من قومه الذين يهجرون القرآن ولم يأخذوا منه، فإنّها دالة على أنّ الأمة اجتهدت مقابل القرآن، ولم تستق من علومه.

وأنّ مدارس التفسير والمفسرين الذين لجؤوا إلى اللغة والتأريخ وأقوال الصحابة والتابعين، أو أقوال الحكماء والمتكلمين، أو أهل البلاغة ونحوها هذه كلها مخالفة لما أراده الله ورسوله. حكى ذلك الباري عز وجل بقوله: ﴿وَقَالَ

---

(١) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾(١) والملفت أنّ الآية تضمنت الشكوى بياء النداء والندبة، وباسم الله (الرب) دون غيره من الأسماء، و(إن) المؤكدة و(قومي) بالإضافة، والاتخاذ الذي يدل على أن الهجران كان نهجاً مقصوداً مرسوماً له، وإنهم اتخذوا ذلك في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله كما يفيده اسم المفعول والإطلاق والإشارة القريبة إلى القرآن، والسؤال الذي يقفز إلى الأذهان دون اختيار ما المراد بالقرآن الذي أتخذه قوم النبي صلى الله عليه وآله مهجوراً؟ هل المراد القرآن بوجوده الكتبي وهو المصحف الشريف؟ أم المراد القرآن بوجوده التنزيلي؟ أم بوجوده العلمي؟ أم بوجوده المقامي والرتبي؟

وتتضافر الشواهد على أن الأول ليس هو المقصود. كيف وكان الناس ولا زالوا يأخذون القرآن ويقرؤونه في صلواتهم ومجالسهم خاصة في شهر رمضان، وقد اجتمع الصحابة على تدوينه وتناقله، وقال بعضهم: (حسبنا كتاب الله)(٢) رداً على الله ورسوله.

القرآن بوجوداته الثلاثة

كما تتضافر الشواهد على أنّ الهجران وقع للقرآن بوجوداته الثلاثة:

الأول: هو القرآن الذي جمعه أمير المؤمنين بأمر رسول الله صلى الله عليه وآله، وضم إليه معانيه ومضامينه وتأويل آياته والوقائع التي لازمت نزوله، وجاء به إلى

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٠.

(٢) الأمالي (للمفيد): ص٣٦، ح٣؛ مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٢٠٢؛ مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥؛ صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨.

القوم بعد رحيل الرسول صلى الله عليه وآله فردّوه بدواع سياسية معروفة، وقد ورد عن الصادق عليه السلام «ليس رجل من قريش إلّا ونزلت فيه آية أو آيتان تقوده إلى الجنة أو تسوقه إلى النار»[1] كما سنأتي إلى تفصيله في سورتي الحمد والقدر.

والثاني: هو علوم القرآن ومعارفه، فإنّهم ردوها وأخذوا بأقوال الرجال الذين فسروا القرآن على حسب فهمهم ومبلغهم من العلم، وتركوا أهل بيت الوحي الذين شهد الله ورسوله لهم بالعلم والمعرفة، وأمر الأمة بالسؤال منهم والرجوع إليهم.

والثالث: هو أمير المؤمنين عليه السلام حيث هجره القوم وأقصوه عن مقام المرجعية العلمية والسياسية معاً، وشواهد التأريخ متواترة على وقوع ذلك كله، ولا زالت الأمة متخبطة في بعدها عن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله، متلهفة وراء الشرق والغرب وسنن الماضين المخالفة للقرآن والسنّة.

والملفت أنّ الرسول صلى الله عليه وآله لا يشكو أمته من ذلك، بل يشكو قومه، والقوم عند أكثر أهل اللغة جماعة الرجال من عشيرة الرجل ومجاوريه سموا بذلك؛ لأن الرجل يقوم بهم، وإنّما خص بالرجال دون النساء؛ لأنهم قوّامون عليهن بالأمور التي ليست للنساء أن يقمن بها[2]. يشهد له قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن**

---

(١) انظر تفسير نور الثقلين: ج٤، ص١٣، ح٤٥.

(٢) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨٣٩، (قوم)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٣، (قوم)؛ لسان العرب: ج١٢، ص٥٠٥، (قوم)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص١٤٧، (قوم).

نِّسَاء﴾[١] فلو دخلت النساء في القوم لم يكن وجه لذكرهن بعد ذلك.

والأدلة متضافرة على أنّ الذين هجروا القرآن واتخذوه منهجاً لهم وأسسوا طريقاً يغاير طريق النبي وأهل بيته وساقوا الناس إليهم هم قوم النبي صلى الله عليه وآله ومن كان معه في مكة ثم المدينة وهم قريش، ولعله المنصرف من قومه وإن دخل فيهم غيرهم من باب التوسعة[٢]، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾[٣] والتكذيب وقع على القرآن والنبي صلى الله عليه وآله وما أخبر به من عذاب وحشر وحساب، والمكذبون هم قومه بالإضافة التخصصية، وكانوا معروفين بالعتو والعناد والعصبية، وأسسوا نهجاً للعداوة والشقاق مع القرآن والنبي وأهل بيته عليهم السلام حتى حالوا دون أن يكتب ما يوصي بهما قبل رحيله كما تواترت به الشواهد[٤].

فالقرائن الداخلية والخارجية تتضافر على المراد بالقرآن المهجور، وبه وردت بعض الروايات[٥].

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.
(٢) انظر مواهب الرحمن: ج١٣، ص٤٥٠.
(٣) سورة الأنعام: الآية ٦٦.
(٤) البحار: ج٣٠، ص٤٦٦؛ الغدير: ج٥، ص٣٤٠، ح١٤.
(٥) انظر الكافي: ج٢، ص٦٠٩، ح١.

لماذا لم يصرّح باسم عليعليه السلام؟

ويتلخص: أنّ النبي المصطفىصلى الله عليه وآله وصف أمير المؤمنينعليه السلام بالقرآن المهجور، فيطابق الآيات في سورة الرحمن، فإن سأل سائل لو كان الأمر كما تقولون فلماذا لم يذكر اسم النبي وعليعليهما السلام صريحاً وإنّما وصفهما بالأوصاف أي القرآن والإنسان؟

والجواب: ليعلّمنا أمرين:

الأول: أهمية العلم والمنهج والنظام الذي يقوّم الإنسان وهو القرآن، فإن جوهر الإنسان بروحه وعقله، وقوام الروح العلم والمعرفة، فالمنهج الذي يربّي الإنسان ويعلّمه ويهديه خلق أولاً؛ لأنّ به تتحقق غاية خلق الإنسان وإيجاده، ولولاه لكان وجوده عبثاً، وهذه الطريقة فطرية قامت عليها السيرة العقلائية، فإن المهندس إذا أراد صنع جهاز يفكر أولاً في الغاية من وجوده، ثم يرسم النظام الذي يحقق هذه الغاية، ثم يصنعه؛ لذلك عرّف الحكماء الغاية بأنّها أول الفكر آخر العمل[1].

فإذا صنع الجهاز قبل النظام والمنهج لم يكن تركيبه نظامياً موصلاً للغاية، وربما لا يكون جهازاً، بل مركباً من أدوات، وإذا كان جهازاً فهو غير منتج.

ولو تصوَّرنا أنّ بنّاءً يصنع اللبنات ولا يدري ماذا يريد منها هل بناء جدار أم بيت أم غرفة أم مدرسة ولا توجد لديه خريطة، فماذا ستكون

---

(١) تفسير الآلوسي: ج١٤، ص٤١؛ شرح المقاصد: ج١، ص١٧٣.

النتيجة؟ ولذا جرت العادة على وضع نظام الاستعمال مع كل جهاز يرشد إلى الاستعمال الأفضل الذي يضمن السلامة والانتفاع المناسب.

إذاً المنهج والنظام يجب أن يسبق الخلق حتى يكون كل شيء منتظماً وموصلاً للغاية من وجوده، ولذا يسبق التقدير القضاء، ودلت النصوص على أنّه سبحانه أولاً يقدّر ثم يقضي ويوجد الأشياء، وفي ذلك تعليم عظيم للبشر يدلهم على أهمية المنهج والنظام في كل أمورهم حتى يصلوا إلى غاياتهم، وهذا معيار يميّز الأفراد والمجتمعات والدول، ويكشف عن سر نجاح وتقدم البعض، بينما يفشل الآخرون.

الثاني: أهمية الإنسان، وأنه ليس أول الخلق تكويناً، لكنّه أولّه علماً ومعرفة وبياناً، فليس كمال الإنسان في وجوده التكويني، بل كماله في علمه وإنسانيته، فإن بعض الحيوان يشارك الإنسان في مراحل التكوين ولا يكون الإنسان إنساناً بالمعنى الكامل إلّا إذا تعلم القرآن واقتدى به؛ لأنه شفاء ورحمة، ويهدي للتي هي أقوم، ويدعو إلى الحياة الأفضل.

فليس المراد بالإنسان تكوينه المنطقي المكوَّن من الجنس والفصل، ولا تكوينه البدني ولا النفسي، بل تكوينه الروحي الذي خلقه الله سبحانه من روحه، فإنسانيته تكتمل إذا تشبهت بروح الله وصفاته وكمالاته.

وهذا التشبه صناعة عظيمة تتقوّم بمنهج ونظام هو القرآن.

ومن هنا تتضح عظمة الإنسان في الخلق، وعظمة الإنسانية في الإنسان، وإذا تجرَّد منها خرج عن وصف الإنسانية، وسمّي بهيمة وأنعاماً ونحوهما من أوصاف أشار إليها القرآن والسنّة.

ويتحصّل: أنّ القرآن والإنسان متلازمان؛ لأنّ أحدهما المنهج والثاني الناهج، كما أنّ النبي والإمامعليهما السلام متلازمان، وكل منهما يكمل مهمة الآخر.

فلا غنى للبشرية عن القرآن وعلومه، كما لا غنى لهم عن رسول الله وأمير المؤمنين والأئمةعليهم السلام. بهذا يتوافق النظام البشري مع النظام الإلهي ويبلغ الكل غايته.

من هذه الحقيقة يجب أن ينطلق المفسِّر لفهم القرآن وبيان معانيه وتفصيل مجملاته، فيجمع بين القرآن والسنّة معاً، ولو استغنى بالقرآن عن السنّة أخطأ المنهج، ولو استغنى بالسنّة عن القرآن أخطأ المنهج، ولا يكتمل المنهج إلّا بهما معاً.

المبحث السابع: جامعية القرآن وعموم نوره

من أهم مميزات المنهج الإلهي في القرآن هي السعة والشمولية لكل ما يحتاجه البشر على اختلاف أصنافهم وحاجاتهم، ولا أجد توصيفاً لجامعية القرآن العظيم أدق وأشمل مما ذكره وجه القرآن الثاني المتطابق معه في كل شيء سوى المظهر وهو أمير المؤمنين عليه السلام، ففي خطبة له صنّف الناس ثلاث طبقات:

الأولى: العلماء، وإطلاقها وعمومها تشمل كل من اتصف بالعلم في أي مجال واختصاص.

الثانية: الفقهاء، وهم أهل الفهم والنباهة والبحث والتحقيق.

الثالثة: الصلحاء، وهم عموم الناس الذين يطلبون الصلاح في كل مجال.

وكل هذه الطبقات تجد ما تطلبه في القرآن. قال عليه السلام: ﴿جعله الله ريّاً لعطش العلماء، وربيعاً لقلوب الفقهاء، ومحاجَّ لطرق الصلحاء﴾[1].

فهو للعلماء ريّهم، وللفقهاء ربيعهم، وللصلحاء طريقهم، ثم يقول: ﴿ودواء ليس بعده داء ونوراً ليس معه ظلمة﴾ أي أن ما يعطه القرآن من علاج للأمراض والمشاكل الفكرية والعملية يجتث المرض فلا يبقي له مجالاً للظهور ثانية؛ لأن بؤرة المرض نقص الإنسان، والقرآن يعالج النقص فلا يبقى سبب للمرض.

وهو نور ليس معه ظلمة؛ لأنه صاف خالص نقي في ذاته، وخال من الدواعي والأغراض المصلحية في عطائه، فكل من يلجأ إليه ينير دربه ويهديه لأفضل مصلحته وبلا مقابل، وبلا اختلاط بالشوائب.

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٨، الخطبة١٩٨.

وآثاره لكل هذه الأصناف عامة يعطي لكل من قصده والتجأ إليه ما يريد؛ لذا كشف عن عطائه لكل محتاج من الجهة التي يلجأ إليه فيها فقال عنه:

جعله (حبلاً وثيقاً عروته) وهذا لطالبي الوصول والإيصال بالله عز وجل، وهو وثيق، أي لا ينقطع، والذي يتمسك بعروته يصل.

(ومعقلاً منيعاً ذِروته) وهو لطالبي الحصانة والستر، والمعقل الحصن.

(وعزاً لمن تولّاه) وهو لطالبي العزة والكرامة الشخصية والاجتماعية، فإنه لو اتبع القرآن بلغ المراد.

و(سلّماً لمن دخله) وهو لطالبي الأمن والطمأنينة النفسية والقلبية والتخلص من صخب الحياة وضجيج أهلها.

و(هدى لمن ائتم به) فإنّ هدايته وإيصاله إلى المطلوب يقينية وبلا إضرار.

و(عذراً لمن انتحله) وهو ضمان بالبراءة لمن تمسّك بالقرآن حتى وإن أخطأ الفهم عن غير عمد، فإنّ القرآن عذره عند ربه.

و (برهاناً لمن تكلّم) في موارد الإقناع أو الاحتجاج.

و(شاهداً لمن خاصم به) أي يعزز دعوى المتخاصم ويثبت صدقه وكذبه.

و(وملجأ لمن حاجّ به) أي هو نصر وظفر لمن التجأ إليه واحتج به؛ لأن الطرف الآخر إن كان يؤمن بالقرآن يذعن لدليله، وإن كان لا يؤمن به يذعن له؛ لأنه يحاكي العقل والفطرة، ولا ينافي الحكمة في بيانه وبيّناته.

و(حاملاً لمن حمله) أي من يحمله إجلالاً وتعظيماً وحفظاً وعملاً به فإنه يرفع شأنه في الدنيا والآخرة.

و(مَطيّة لمن أعمله) وهو من الاستعارة. أي كناية عن سهولة حمله وحفظه وسهولة قوانينه وأحكامه، فمن أراد ركوب الدنيا في السياسة أو الاقتصاد أو أي مجال من مجالات الحياة فإن القرآن يسهل له ذلك؛ لأن قوانينه سهلة وعادلة ومطابقة للواقع بشرط الأخذ به وإعماله في النهج العام.

و(آية لمن توسّم) أي من يطلب استشراف المستقبل ومعرفة الوقائع والأحداث فإن في القرآن ما يتضمن ضوابط ذلك وإشاراته؛ لأنه يقص الحق، ويهدي للتي هي أقوم، ويبشر المؤمنين.

و(جُنّة لمن استلأم) والاستلآم لبس اللامة والدرع في الحروب ليقي المقاتل من الأضرار، وهكذا من لجأ إلى القرآن ينال حصانة ذاتية ومعنوية به تدفع عنه المضار، وتقيه من المخاطر.

و(علماً لمن وعى) فالذي يطلب العلم في أي مجال يطلبه من القرآن، فإن فيه تبيان كل شيء، وفيه أحصى الباري كل شيء ولكن بوجوده الإجمالي الذي لا يعرف تفصيله إلّا بالبحث والدراسة.

و(حديثاً لمن روى) لأنه يتضمن حكاية أحوال الماضين والعبر والتعاليم المفيدة منها، فمن أراد الرواية يستند إليه، وسنده قطعي لا يحتاج إلى تنقية، ولا تعتريه شبهة الوثوق السندي أو المتني.

و(حكماً لمن قضى) سواء في الإفتاء أو القضاء أو الأمور العامة.

ونلاحظ من مجموع ما ورد في الخطبة المباركة أنه توصيف تقصر عن مثله كلمات البشر. جمع فيه أصناف المجتمع الإنساني وغاياته، فما من

شريحة من المجتمع ولا من طالب حاجة إلّا ويجد ضالته في القرآن على حسب مستواه وحاجته.

ويلحظ فيما أفاده عليه السلام فائدتان:

الأولى: أنه لم يخصص عطاء القرآن بالمسلم والمؤمن؛ لذا أورد العلماء والفقهاء والصلحاء بلسان العموم الاستغراقي، فيدل على أنه يجود على كل ملتجئ إليه، وهذا أحد أسرار وصفه بالكريم.

الثانية: أنّ عطاءه للعلماء الإرواء من العطش؛ لأن العالم يبحث عن المعلومة، وعطشه لها كناية عن شدة طلبه وتعلقه بها، فلو تأمل في آيات القرآن نال مطلوبة كاملاً مشبعاً حتى يشعر العالم بالارتواء، وهذه خصوصية خاصة بالقرآن، فإن كل كتب العلم ليست بالضرورة تروي عطش العالم؛ لذا لا يستغني العلماء عن أنواع الكتب والمكتبات، بخلاف القرآن فإنه وحده يغني عن غيره ولكن بشروط ثلاثة:

القرآن يغني بشروط

الأول: أن تقام دراسات علمية وموضوعية في آياته، لاستخلاص العلوم والأسرار المودعة فيه، وهذه مهمة شاقة يجب أن تقام لها جامعات ومعاهد ومراكز دراسات، ولو أقيم ذلك لتخرجت أجيال من العلماء الذين يغطون حاجات البشرية في مختلف العلوم والمعارف، وأوصلتهم إلى مقامات وكمالات في الإنسانية تصيّر حياتهم مزدهرة وأرضهم جنة.

الثاني: أن يتولى البحث والتحقيق مختصون ومؤهلون لذلك.

الثالث: أن تكون إرادة جدية لأصحاب القرار السياسي والإداري للرجوع إلى القرآن والعمل بتعاليمه في القوانين والأنظمة العامة في المجتمع والدولة، ويبدأ من منهاج التعليم الابتدائي والمتوسط والعالي.

وعطاؤه للفقراء مثمر متنوع ومبتهج ومتجدد؛ لذا وصفه بالربيع للقلوب، وفي الدعاء ﴿أن تجعل القرآن ربيع قلبي﴾[١] أي اجعله مثمراً لإزهار الحكمة وإثمار المعرفة، متنوراً رطباً ندياً لا قساوة فيه ولا ظلمة، والفقهاء جمع مأخوذ من الفقه وهو الفهم والعلم. يقال فقه الرجل أي فهم وصار عالماً، وفي الغالب يطلق على الفهم الحاصل من الكلام لا من كل طريق، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿**لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا**﴾[٢] وقوله: ﴿**لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾[٣] ولذا يطلق عنوان الفقهاء على العالمين بالقانون؛ لأنه مكتوب، وكذلك يطلق على علماء الشريعة؛ لأنهم يفقهون كلام الشرع الوارد في الكتاب والسنّة[٤]، وانحصار معناه بهم حصل متأخراً بالوضع التعيّني الناشئ من كثرة الاستعمال، وأما في لسان الروايات والآيات فيراد به المعنى اللغوي.

فالفقهاء هم طالبو الفهم والمعرفة في أي حقل ومجال إذا لجؤوا إلى القرآن صار ربيعاً لقلوبهم فنورّها وأضاءها وخشّعها وأثمر فيها ثماره

---

(١) البحار: ج٨٨، ص٧٥.
(٢) سورة الكهف: الآية ٩٣.
(٣) سورة الإسراء: الآية ٤٤.
(٤) انظر معجم الفروق اللغوية: ص٤١٢، (١٦٥٠)؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٣٥٥، (فقه).

وعطاياه، وتؤكد الشواهد التأريخية والمعاصرة أن الجامعات والمعاهد وأصحاب الفكر حينما يستعينون بالقرآن يعطيهم من خيره، ويهديهم إلى الأقوم وإن لم يؤمنوا به أو لم يعملوا به.

وبين الفينة والأخرى تطالعنا الأبحاث بوجود دلائل علمية ومعرفية في مختلف العلوم والفنون في القرآن الكريم سابقة ما توصلت إليها الدراسات العلمية.

وعطاؤه للصلحاء بالإيصال إلى مطالبهم.

والمحاج: جمع محجة، وهي الجادة من الطريق التي إذا قصدها السائر أوصلته إلى الغاية[1]، والصلحاء الذين يطلبون الصلاح والنفع في أي مجال كانوا، فالذي يطلب الصلاح في السياسة يوصله القرآن إلى مطلوبه، والذي يطلبه في الأسرة أو في المجتمع أو الزراعة والتجارة يوصله إلى المطلوب؛ لأنه:

أولاً: تضمن الضوابط العلمية العادلة التي تحقق الغايات.

ثانياً: لأنه يصلح الإنسان فيصلح تدبيره ونواياه وأساليبه.

ومن هنا وصفه بأنه دواء دائم الأثر، فلا مرض معه ولا سقم، ونور ليس معه ظلمة، وهذا أثر دائم في كل زمان ومكان، وهو ما أكدته الروايات الأخرى، فقد ورد أن رجلاً سأل أبا عبد الله عليه السلام: ما بال القرآن لا يزداد عند النشر والدراسة إلّا غضاضة؟ فقال عليه السلام: ﴿لأن الله تبارك

---

(١) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٧٧، (٦٩٧)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٢٨٨، (حج)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٥٧، (حج).

وتعالى لم ينزله لزمان دون زمان، ولا لناس دون ناس، فهو في كل زمان جديد، وعند كل قوم غضّ إلى يوم القيامة»[١].

وعن الرضا عليه السلام: «لا يخلقُ على الأزمنة، ولا يغث على الألسنة -أي لا يفسد- لأنه لم يجعل لزمان دون زمان، بل جعل دليل البرهان، والحجة على كل إنسان ﴿**لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾[٢]»[٣]. وقريب من ذلك ورد في خطبة الصديقة الطاهرة عليها السلام في أمر فدك[٤].

ومن هنا يتعيَّن على الباحث والمفسّر للقرآن أن يستنبط منه ما يجيب على أسئلة زمانه، وأن يطبق القرآن على الحياة في كل مكان وزمان ومع كل جيل؛ لأنه للإنسانية أجمع على امتداد الزمان والمكان، وليس لزمان أو مكان أو جيل.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٨٧، ح٣٢؛ الأمالي (الطوسي): ص٥٨٠، ح١٢٠٣.

(٢) سورة فصلت: الآية ٤٢.

(٣) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٣٠، ح٩، والآية ٤٢ من سورة فصلت.

(٤) بلاغات النساء: ص٢٥؛ دلائل الإمامة: ص١١٣؛ الاحتجاج: ص٩٩.

المبحث الثامن: في التفسير ومقتضياته

للتفسير إطلاقان لغوي واصطلاحي، والأول هو بيان الشيء وإيضاحه[١]، ويجب تقييده بالمبهم، فما لم يكن الشيء مبهما لا يحتاج إلى تفسير، ويقبح إيضاحه، ولذا يختص إطلاقه بمفردات الألفاظ وغريبها وما يختص بالتأويل، ولهذا يقال تفسير الرؤيا وتأويلها، ويشمل ما كان غريباً في اللغة أو غريباً على الأفهام، ولذا عرفه بعض أهل اللغة بإظهار المعنى المعقول[٢]، وفي مجمع البحرين عرفه بكشف معنى اللفظ وإظهاره[٣]، وفي مجمع البيان عرفه بكشف المراد عن اللفظ المشكل[٤]، وهو أوجه التعاريف.

وبهذا المعنى ورد الاستعمال القرآني. قال تعالى: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[٥] وقد كان المنكرون يجادلون في القرآن ونبوة النبي صلى الله عليه وآله فيأتون بأسئلة مشكلة، أو يثيرون شبهات غريبة لغرض القدح فيهما، فكان الباري عزّ وجل يجيبهم بأجوبة تدفع غموض ما يثيرون، ويبطل دعاواهم.

ويستفاد من الآية أن الباري عزّ وجل يبطل دعاوى المنكرين عن النبي صلى الله عليه وآله بخلاف باقي الأنبياء عليهم السلام فإنهم كانوا يذكرون أجوبتهم عن

---

(١) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٨١٨، (فسر).

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٦، (فسر).

(٣) مجمع البحرين: ج٣، ص٤٣٧، (فسر).

(٤) مجمع البيان: ج١، ص٣٩.

(٥) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

اعتراضات أقوامهم، وهذه خصوصية خاصة لرسول الله ﷺ تتضمن دلائل عظيمة لأهل المعرفة(١).

وتفسير آيات الله تعالى يعني شرحها وبيان ما تنطوي عليه من معان وأسرار وأحكام، وهو واجب لسببين:

الأول: لأنّ آيات القرآن فيها المحكمات والمتشابهات، والمخصصات والمقيدات، والمجملات وغيرها التي لا يمكن معرفة معانيه ومضامينه إلّا بتفسيرها.

الثاني: لأن القرآن كلام الله، وقد أنزل بثلاثة دواع:

أحدها: محاكاة النبي ﷺ وتعليمه بالعلوم الإلهية: ﴿**وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ**﴾(٢).

ثانيها: محاكاة عقول العلماء والعباقرة والبلغاء والزعماء وغيرهم في مختلف الشؤون والفنون؛ ليهديهم إلى الإيمان أولاً، ثم إلى الأقوم من كل علم وفن ثانياً ﴿**عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ**﴾(٣).

ثالثها: محاكاة عقول عموم الناس وإرشادهم إلى أفضل مصالحهم: ﴿**هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾(٤).

---

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٤، ص٤٨٤؛ روح البيان: ج٦، ص٢٠٩.
(٢) سورة النساء: الآية ١١٣.
(٣) سورة يوسف: الآية ١١١.
(٤) سورة آل عمران: الآية ١٣٨.

ومثل هذا الكلام النوراني العظيم لابد وأن تكون مقاصده ومضامينه مرتفعة عن العقول العادية، ولابد له من تفسير، ولا يمكن أن يكون المفسِّر له العالم فضلاً عن الجاهل؛ لأن علم العالم اكتسابي لابد له من معلم، وليس من معلم للقرآن إلّا الله ورسوله وأولياؤه: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(١).

فلو فسر العالم القرآن بلا رجوع إلى النبي والإمام عليهما السلام فلا ينجو تفسيره من أحد محذورين. إما العمل بظنونه الشخصية وهو مخالف لصريح القرآن الذي نهى عن العمل بالظن، ونص على أنه لا يغني من الحق شيئاً(٢)، أو العمل بظنون غيره وهو أسوأ من الأول، والملحوظ في أكثر تفاسير العامة أنها ناشئة من أحد هذين؛ لذا تكثر الأقوال في معنى الآية الواحدة، وتضيع فيها الحقيقة، وتصيّر المراد مجملاً لا يوصل إلى الغرض، ويمكن للباحث بأدنى مراجعة إلى تفاسيرهم أن يجد ذلك ماثلاً لديه.

ومن هنا يتضح أن التفسير من دون رجوع إلى السنّة الشريفة ليس بتفسير، بل هو تقوّل وتفسير بالرأي والظنون الشخصية لا يرتضيه القرآن. على أنّ القرآن يشتمل على كلام لفظي يتم باستعمال اللفظ للدلالة على المعنى، وهو ما يعبر عنه بالإرادة الاستعمالية، والمعنى الذي يقصده المتكلم حقيقة من اللفظ، وهو ما يعبّر عنه بالإرادة الجدية، ومن فنون استعمال الألفاظ الاستعمال المجازي مقابل الحقيقي، والاستعمال المجمل مقابل

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٤.

(٢) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

المبيّن، والعام مقابل الخاص، والمفسِّر العادي قد يستطيع أن يفهم للمفردة القرآنية معنى، ولكن لا يستطيع أن يجزم بأنه هو المراد الحقيقي للقرآن، فقد تضافر أن القرآن له ظهر وبطن، والبطن له بطن، فكيف يعرف ذلك من لا يرتبط بالوحي ولا يعرف أكثر من دلالة اللغة؟

ومن هنا عرّفه بعضهم بأنه اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن الكريم وما يستفاد منها باختصار أو توسع[١]. هذا كله معنى التفسير في اللغة.

وأما في المصطلح فقد ذكروا له تعاريف عديدة هي في الحقيقة ليست مغايرة للمعنى اللغوي، بل مشتقة منه. نعم تخصصت مفردة التفسير لدى الإطلاق بما يتعلق بمعاني القرآن وما اشتملت عليه آياته من عقائد وأسرار وحكم وأحكام[٢] من باب الوضع التعيّني لا التعييني.

حقائق عن التفسير

وبذلك تتضح عدة حقائق:

الحقيقة الأولى: أن التفسير يقتصر على المعنى الظاهر من الكلمات القرآنية، وليس بالضرورة يدل على المعنى المراد في الواقع، وهذا إنما يصح تفسيراً في ثلاث صور:

الأولى: أن لا توجد رواية معتبرة واردة عن المعصوم عليه السلام في بيان المعنى المراد.

---

(١) التحرير والتنوير: ج١، ص١٠.

(٢) انظر المعجم الوسيط: ج٢، ص٦٨٨، (فسر).

والثانية: أن لا يوجد تعارض بين الرواية الواردة ودلالة الآية إن وجدت.

أما الأولى فلأن الأصل حجية الظهور عقلاً وعقلائياً وشرعاً، ولكن إذا وردت رواية تخالف الظهور أو تكشف عن المراد بالكلام فإن الرواية تكون حاكمة؛ لأنها مفسرة ومبينة للمراد.

وأما الثانية فلأن الرواية إذا عارضت القرآن أعرض عن الرواية، وأخذ بدلالة الآية؛ لتضافر النصوص على أنّ كلام المعصوم عليه السلام لا يعارض كلام الله تعالى، وإذا عارضه كشف عن عدم صدوره منه[1].

والثالثة: أن لا تكون الآية محكمة لا تحتاج إلى تفسير في المفهوم والمصداق كما في مثل قوله تعالى: ﴿**وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[2] و ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[3] و﴿**أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[4] فإن مثل هذه النصوص الشريفة يفهمها كل من يعرف اللغة ولا تحتاج إلى إيضاح.

وقد ورد أن أعرابياً سأل النبي صلى الله عليه وآله أن يعلِّمه شيئاً يستغني فيه عن المعلم المرشد؛ لأنه من البادية ويتعذر عليه الحضور عند النبي صلى الله عليه وآله للتفقه في الدين، فتلا النبي صلى الله عليه وآله قوله تعالى: ﴿**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ**﴾[5] فاكتفى في ذلك الأعرابي وشكر النعمة، ولذا

---

(١) الكافي: ج١، ص٨؛ الاستبصار: ج١، ص١٩٠، ح٦٦٨.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

(٣) سورة الشورى: الآية ١١.

(٤) سورة الطلاق: الآية ١٢.

(٥) سورة الزلزلة: الآية ٧-٨.

قال النبي صلى الله عليه وآله: «انصرف الرجل وهو فقيه»[(١)]، ولذا لم يسأل ما معنى الخير؟ وما معنى الشر؟ وما المراد بـ (يره) و(المثقال) و(الذرة)؟ لأنها مفاهيم معروفة لا تحتاج إلى بيان، فإذا كانت الآية ظاهرة الدلالة ومعلومة المراد تستغني عن التفسير، وتفسيرها يكون من توضيح الواضح، وقد عرفت أن التفسير لا يكون إلّا للمبهم.

نعم ربما يقع الاشتباه في المصداق أو انطباق المفهوم على المصداق، فحينئذ تحتاج إلى بيان المصداق لا أصل المعنى كما ورد في آية التطهير وآية التصدق بالخاتم وآية الحج ونحوها، فإن معناها ظاهر إلّا أن المصداق المعني بها قد يشتبه لاحتمال اختلاطه بغيره، وفي مثله يجب الرجوع إلى الوقائع التأريخية لمعرفته، وكذا الرجوع إلى الروايات.

الحقيقة الثانية: أن التفسير حتى بمعناه الاصطلاحي لا يستغني عن الرواية؛ لأن القرآن مجمل الدلالة في الأحكام والمعارف والقصص التي حكاها، وهذا ما لا يمكن أن يعرف بالاعتماد على الكلمات القرآنية، ولامناص من الرجوع إلى السنّة لمعرفته، ولذا لا غنى للقرآن عن السنّة، وقد أكد هذه الحقيقة حديث الثقلين الذي تواتر لفظاً ومعنى بطرق المسلمين[(٢)]، فالذي يكتفي بالقرآن ضل الطريق، وكذا الذي يستغني بالسنّة

---

(١) رسائل الشهيد الثاني قدس سره: ص١٤٠؛ البحار: ج٨٩، ص١٠٧، ح٢؛ موسوعة أهل البيت عليهم السلام: ج٩، ص١١٣.

(٢) الوسائل: ج٢٧، الباب ٥ من أبواب صفات القاضي، ص٣٤، ح٣٣١٤٤؛ مختصر البصائر: ص٢٧٥؛ الفصول المهمة: ج١، ص٥٤٩، ح٨١٦؛ المستدرك: ج٣، ص١٤٨؛ مجمع الزوائد: ج٩، ص١٦٣.

عن القرآن؛ لأنّ الاثنين مكمل لبعضهما البعض، ولذا وصف الاثنان بالقرآن والوحي أحدهما ناطق والآخر صامت.

الحقيقة الثالثة: أن دعوى تعدد القراءات المعنوية، وأن للقرآن تفسيراً في كل زمان وفهماً يختص بأهل ذاك الزمان، فإن أريد بها فهم مراد القرآن فهي دعوى باطلة ينفيها القرآن نفسه؛ لأن القرآن لا يفهمه إلّا من خوطب به، وإن أريد تطبيق الدلالة القرآنية على مصاديق جديدة فهي تامة لكنها ليست من التفسير في شيء.

لا تعدد في القراءات

الحقيقة الرابعة: أن القراءات القرآنية اللفظية السبعة أو أكثر التي جرت عليها طريقة العامة وأقرها بعض الخاصة باطلة من وجوه عقلية وشرعية:

الوجه الأول: لأن القرآن كلام الله المعجز، وكل كلمة وحرف وحركة وسكنة فيه وضعت بميزان إلهي دقيق، واللغة العربية دقيقة تتغير معانيها باختلاف الحروف والحركات والسكنات، فالتصرف في الكلمات القرآنية يوجب التصرف في المعاني والمداليل، وهو من مصاديق التحريف عرفاً وعقلاً.

والشواهد تعزز هذه الحقيقة، فمثلاً في بعض القراءات تبدل الصاد بالسين في مفردة (صراط) فيقرأ (سراط الذين انعمت عليهم) والسراط غير الصراط في المدلول، فإن السراط الطريق المستسهل، وأصله من سرطت الطعام وزردته أي بلعته، والطريق إذا كانت سهلة يقطعها سالكها بيسر

وسهولة كأنه ابتلعها[(١)]، والصراط الطريق المستقيم الموصل إلى المطلوب[(٢)]، وهذا المعنى يشمل السهولة واليسر أيضاً، فهو أوسع دلالة وأدق من السراط؛ لأنّ سهولة الطريق لا تلازم الوصول إلى الغاية، بخلاف الصراط؛ لذا أمر الباري عزّ وجل باتباع الصراط لا السراط، وقال: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[(٣)] ولولا إيصاله للغاية لقبح الأمر باتباعه، وبعضهم قرأ الصراط بمنطوق آخر قبيح أبدل الصاد بالضاد أختها، وهو مما يأبى ذو المسكة عن ذكره، فما بالك بنسبته إلى القرآن؟

وفي بعض القراءات بدلاً من قوله: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ۞ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾[(٤)] يقرأ (لست عليهم بمضيطر) ومضيطر من الضرار وهو سوء الحال من مرض وهزال وحاجة[(٥)]، ومنشؤه داخل النفس. أما مسيطر من السيطرة وهي التسلط على الشيء من خارجه[(٦)]. يشرف عليه ويتعهد أحواله[(٧)]، والفرق كبير بين المعنيين، فلا يصلح أن يكون أحدهما بدلاً عن

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٠٧، (سرط)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٤٩١، (سرط)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٢٧، (سرط).

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ص٢٥٩، (صرط)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٨٣، (صرط).

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

(٤) سورة الغاشية: الآيتان ٢١-٢٢.

(٥) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٧٣، (ضرر).

(٦) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٤٥٩، (سطر).

(٧) مجمع البحرين: ج٣، ص٣٣٠، (سطر).

الآخر، بل في بعض كتب اللغة أصل مضيطر من ضطر وهي كلمة تدل على ضِخَم، ويكون مع ذلك لؤم، والضيطر العظيم[١]، ولو أريد هذا كان مناقضاً لمدلول الآية.

وبعضهم بدلاً من قوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ يقرؤها (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) والفرق كبير بين المالك والملك، والنسبة بينهما هي العموم من وجه، والمالك نسبته للأشياء حقيقية. أما الملك قد تكون اعتبارية كما في ملوك أهل الدنيا فإن ملكيتهم ناشئة إمّا من القوة أو رأي الناس، وغاية ما يفيده السلطة لا المالكية فعند بعض أهل اللغة يطلق الملك على سيّد الناس والأفضل فيهم ولا يكون مالكاً لهم[٢]، بل أن الملك لا يكون ملكاً إلّا إذا كان مالكاً إمّا مالكاً، حقيقياً للأشياء كالباري عزّ وجل أو مالكاً للسلطة عليها، فالملوكية أثر المالكية وليس العكس، وعدم تعبير الباري بالملك قد يعود لسببين:

أحدهما: للإشارة إلى أنه مالك اليوم، وأما سلطة الحساب في الآخرة يفوِّضها لآل محمدعليهم السلام، فهم الملوك في الآخرة، وهو المالك كما دلت عليه النصوص المتواترة.

ثانيهما: لأنّ الملك يتضمن الهيمنة والقدرة في الفعل، وفي الآخرة قد يعفو ويرحم حتى يظن الشيطان أن الله تعالى سيغفر له، وهذه تناسب المالكية لا الملوكية.

---

(١) معجم مقاييس اللغة: ص٥٧٥، (ضطر).

(٢) لسان العرب: ج١٠، ص٤٩٢، (ملك).

ويتحصل: أن تغيير القراءة القرآنية غالباً أو دائماً يقصر عن أداء المعنى الذي أراده الباري عزّ وجل، ويدرجه في تحريف اللفظ الملازم لتحريف المعنى، وهو قبيح عقلاً وحرام شرعاً.

الوجه الثاني: أن تغيير القراءة من مصاديق الاجتهاد مقابل النص، وتصرف في حق الغير بلا إذن معلوم، بل وترجيح بلا مرجح؛ لأن القراءة الثانية إذا لوحظ بها المقاربة اللفظية كما لعله الظاهر منهم فقد عرفت أن المقاربة اللفظية لا تلازم المقاربة المعنوية، وإذا لوحظ فيها المقاربة المعنوية فإن مثل الصراط لا يقاربه السراط في المعنى فقط، بل الطريق والسبيل، فلماذا لم يقرؤوا الآية بهما؟

الوجه الثالث: أن تغيير القراءة الواردة في القرآن يعد عرفاً من الكذب والتقوّل على الله تعالى، وهو من الباطل اعتباراً؛ لأن القراءة إذا نسبت إلى الله سبحانه فهو لم يقلها، وإذا نسبت إلى القارئ فلا اعتبار لها.

وبيان ذلك: قال تعالى: بشأن أشرف خلقه وخاتم رسله صلى الله عليه وآله: ﴿**وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۞ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۞ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۞ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ۞ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾[١] وقد وردت في سياق بيان أن القرآن تنزيل من الله عز وجل رب العالمين وليس من رسوله صلى الله عليه وآله[٢].

---

(١) سورة الحاقة: الآيات ٤٤-٤٨.

(٢) انظر سورة الحاقة: الآيات ٤٠-٤٨.

فإن الأقاويل جمع تكسير ومفردها القول، وتقوّل القول اختلاقه، ويتحقق بنحوين:

أحدهما: خلق اللفظ ونسبته إلى الغير.

وثانيهما: خلق المعنى، وكلاهما قبيح، والقول في اللغو يطلق على الكلام وعلى الرأي[1]، والكلام العربي يختلف بحركاته وسكناته في العبارة وفي المعنى، فلو نزل القرآن بقوله تعالى: ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ وقرأها القراء ﴿**مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ كان من التقوّل لفظاً ومعنى، والتبديل حتى بحرف واحد عده الباري من التقول؛ لانطباق لفظ البعض عليه: ﴿**تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ**﴾ والجزاء الذي ذكرته الآية من أعلى المراتب، وهو الذبح بقطع الوتين كناية عن بشاعة العمل وشدة حرمته، وزاده شدة نفي وجود الناصر والشفيع له: ﴿**فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ**﴾ فهو عمل لا تقبل فيه شفاعة ولا عفو ولا مغفرة، ثم قوله: ﴿**إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**﴾ تحذير آخر وبيان أن الذي يفعل ذلك غير متق.

والخلاصة: أن الآيات الشريفة منعت أي إضافة إلى الله تعالى لم يقلها، وهو يشمل القراءات، فتدل على أن فاعلها يستحق الهلاك، وفي مجمع البيان أنّ بعضهم قرأ قوله: ﴿**قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ**﴾[2] و: ﴿**قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ**﴾[3]

---

(١) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٨٨-٦٨٩، (قول).

(٢) سورة الحاقة: الآية ٤١.

(٣) سورة الحاقة: الآية ٤٢.

بالياء، فأبدلوا الضمير في الاثنين من ضمير الحاضر إلى ضمير الغائب، فماذا يعد هذا؟[(١)].

الوجه الرابع: أن القراءة الثانية لا تخلو إما أن تغيّر المعنى أو لا، وعلى الأول تكون من التحريف والتقّول، وعلى الثاني لا تخلو من احتمالات:

أحدها: أن تكون عين المفردة الأولى ولا تختلف عنها بشيء من حيث الجمال والدلالة، فتغييرها بالثانية لغوي لا يقرّه الباري الحكيم، فهو معلوم المنع.

ثانيها: أن تكون غير المفردة الأولى وأدنى منها في الجمال والدلالة، فتغييرها من ترجيح المرجوح، ويوجب هتك مكانة الآية وعلوها.

ثالثها: أن تكون أجمل وأقوى في الدلالة، وهو هتك وظلم للقرآن، وتجرؤ على الله سبحانه، وقد حكى الباري عجز البشر عن أن يأتوا بمثله[(٢)] فضلاً عن الأحسن منه.

ويتحصل: أن القول بتعدد القراءات باطل عقلاً وشرعاً، فليس للقرآن إلّا قراءة واحدة، وهذه القراءة بما وردت من دلائل إعجاز القرآن.

إن قلت: إن بعض الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام نصّت على أنّ بعض الآيات نزلت بمنطوق آخر يغاير المنطوق الوارد في القرآن.

قلت: إن هذا ليس من تعدد القراءات، وإنما من باب تعدد النزول، فإن بعض الآيات القرآنية نزلت أكثر من مرة مثل آية التطهير، والروايات تشير

---

(١) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١١٢.

(٢) انظر سورة الإسراء: الآية ٨٨.

إلى النزول الثاني والثالث، أو من باب بيان المعنى الخفي غير الظاهر من اللفظ، أو بيان المصداق أو التأويل كما حققناه في تفسير سورة القدر.

الروايات تفسّر القرآن

الحقيقة الخامسة: أنّ قول بعض المفسرين بأن القرآن نور وكلام مبين لا يحتاج إلى تفسير[١] غير سديد؛ لأنه مخالف لصريح الآيات التي نصت على أن آيات القرآن فيها متشابهات لا يعمل بها إلّا مرضى القلوب، ولا يجوز العمل بها إلّا بإرجاعها إلى المحكمات، ويجب السؤال فيها من أهل الذكر العالمين بها.

كما أن قول البعض بأن القرآن يفسّر بالقرآن إن أريد به الاستغناء عن الرواية فهو مخالف لصريح القرآن الذي أرجع إلى السنّة، وأمر بالأخذ بكل ما يأتي به النبيﷺ، وإن أريد أن القرآن يفسر بالقرآن بمعناه العام الشامل للسنّة؛ لأنّ قول النبي والعترةعليهم السلام وحي وقرآن فهو سديد، وما ورد من أن القرآن يفسر بعضه محمول على الآيات المحكمة وعلى السنّة الشريفة .

وبذلك يتضح بعض معالم المنهج الذي يجب أن يتبع في فهم معاني القرآن وبيان معارفه ومقاصده.

---

(١) تفسير الأمثل: ج١، ص٧.

المبحث التاسع: مناهج المفسِّرين
والمنهج الأفضل

أهمية المنهج

كثيراً ما يقع الكلام في بيان تفاوت المفسرين ومناهجهم في بيان معاني القرآن، وهذه قضية مهمة؛ لما للمنهج من أثر بالغ في البحث العلمي؛ لأنه:

أولاً: شرعة الباحث لاسيما في مثل القرآن، فإنه بحر عميق ليس له حد ولا عمق، ويحاكي جميع العقول، ويشتمل على أنواع المعارف التي يحتاجها البشر، فيجب أن تحدد جهة البحث وحيثيته حتى يستطيع الباحث أن يغترف منه ويسد حاجته، وقد مر في وصف أمير المؤمنينعليه السلام للقرآن بأنه ري لعطش العلماء، وربيع لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء[1]، والقاعدة العقلية قاضية بأن الاستفاضة والاغتراف من البحر الواسع لا يمكن إلّا بتعيين المشرعة والجهة، وإلّا امتنع المراد، وانتقض الغرض، والمنهج هو المشرعة.

ثانياً: أن المنهج يمنع التداخل والاختلاط في العلوم والمعارف، ومن القواعد المقررة لدى دراسة العلوم هو وجوب التمييز؛ لأن بعض العلوم تشترك في الموضوع، فلولا التمييز بينها تداخلت واختلطت ببعضها وتعذر التمييز، فمثلاً البدن الإنساني موضوع واحد تشترك فيه جملة من العلوم كالطب والصيدلة والفيزياء والكيمياء وغيرها. كلها تبحث عن تكوينه وتركيبه وعوامل قوته وضعفه ودوام سلامته، لكن الطبيب يبحثه

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٧٨، الخطبة (١٩٨).

من جهة الصحة والمرض، والصيدلي يبحثه من جهة الدواء الفاعل فيه، والفيزياوي من جهة تكوينه المادي، والكيماوي من جهة التفاعلات الكيماوية الحاصلة فيه وهكذا.

وكلما تشعب الموضوع تفرعت العلوم وتخصصت فيه، فالطب تعددت تخصصاته في دراسة أمراضه وهكذا، لكن الذي يميز العلوم عن بعضها ويميز التخصصات في العلم لواحد هو حيثية البحث وجهته، ولولاه؛ لتداخل الطب بغيره، وحدثت فوضى بحثية ضاعت فيها الحقائق، وانتقض غرض العلم، وما يقال في العلوم يقال في تفسير القرآن، فإن موضوعه القرآن أو آياته الشريفة، وكل واحدة منها تشتمل على معان كثيرة تعود إلى علوم وغايات متنوعة، فما لم تعيَّن جهة البحث تتشابك المفاهيم وتضيع المعاني.

وثالثاً: أنه يوصل الباحث إلى الغرض؛ لأن المنهج هو الطريق المستقيم الذي يختصر الجهة والمدة، ويوصل إلى المطلوب، فلو اقتحم المفسر بحثه دون تعيين المنهج من ذي قبل، وقع في الفوضى والاضطراب، ولم يبلغ إلى غايته.

فالمنهج هو المحور الذي يجب أن يتعيّن قبل كل شيء، وهذا يملي علينا البحث في قضيتيّن هامتين:

القضية الأولى: في تعريف المنهج وتحديد ضوابطه

المنهج والمنهاج: الطريق الواضح، ثم استعير للطريق في الدين كما استعيرت الشريعة لها[١]، ووصف الوضوح مقوّم له، فلا يقال على الطريق غير الواضح منهج، ولا يكون الطريق واضحاً إلّا إذا عرف مبدؤه ومنتهاه ومسلكه، وبهذا الاعتبار أطلق على الخطة المرسومة ومقررات التعليم والدراسات المنهج، فيقال مناهج التعليم مثلاً[٢].

ولذا أطلقه الباري عزّ وجل على طريق الأنبياء؛ لأنّه واضح المعالم والحدود والغاية؛ إذ قال سبحانه: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا**﴾[٣] والشرعة الطريقة الظاهرة الموصلة إلى الماء، وأطلقت على الدين؛ لأنه الطريق الموصل إلى الحياة الأبدية الذي به حياة الأرواح، كما أنّ الشريعة توصل إلى الماء وبه حياة الأبدان[٤].

وفي مجمع البيان الخطاب موجّه إلى الأمم الثلاث أمة موسى وأمة عيسى عليهما السلام وأمة محمد صلى الله عليه وآله، وأشار إلى أنّ لكل منهم شريعة وطريقاً واضحاً يتميز عن غيره[٥]. وقد اقتضت الحكمة تعدد الشريعة والمنهاج؛ لأجل

---

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٨، (١١٩٦)؛ وانظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٥، (نهج)؛ معجم مقاييس اللغة: ص٩٦٤، (نهج)؛ مجمع البحرين: ج٢، ص٣٣٣، (نهج).

(٢) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٥٧، (نهج).

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٤) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٤٨؛ تفسير كنز الدقائق: ج٤، ص١١٧.

(٥) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٠.

اختبار العباد وضرورة تكامل العقول والنفوس بتكامل الشرائع حتى ختمت بالإسلام؛ لذا عطف عليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاء اللّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ﴾[١].

وفي الأخبار الشريفة أن الشرعة ما ورد به القرآن، والمنهاج ما وردت به السنّة[٢]؛ لأنّها تبيّن القرآن وتكشف عن مراده، وهو من التفسير بالمصداق الأكمل.

وفي الاصطلاح ربما يصعب العثور على تعريف واضح للمنهج إما لعدم تعرضهم له أو لركونهم إلى معناه اللغوي، وربما يتبادر من المنهج طريقة الباحثين ومنطلقاتهم والأدوات التي يستعملونها لبلوغ الغاية من البحث باعتبار أنّ كل بحث علمي يجب أن يتوفر على القواعد التي ينطلق منها الباحث، وهي الأوليات، ويستخدم في بحثه أدلة ثابتة لديه تعينه للوصول إلى ما يريده، وهي الوسائل، وعلى هذا الأساس تنقسم المناهج، فإن من ينطلق من القواعد والأدلة العقلية في فهم القرآن يكون منهجه عقلياً، والذي ينطلق من اللغة وقواعدها يكون منهجه لغوياً، والذي ينطلق من قواعد الحكمة وأدلتها يكون منهجه فلسفياً، والذي ينطلق من الأدلة النقلية الواردة بذلك يكون منهجه نقلياً وهكذا.

وبهذا التمييز يتضح وجه اختلاف العلوم والمباحث في المناهج، فإن الباحث في كل علم يبحث عن الأحكام والآثار المترتبة على موضوع العلم

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) انظر الكافي: ج٢، ص٢٩، ح١؛ معجم الفروق اللغوية: ص٢٩٨، (١١٩٦).

الذي يبحث فيه، وربما تتفرّع في العلم الواحد مناهج فرعية، فهناك منهج جامد، وهناك منهج تحليلي، وآخر استدلالي وهكذا كما يلحظ في طريقة النحاة والأصوليين والرجاليين والحكماء وسائر العلوم الإنسانية.

وكل هذه التقسيمات لا تنضبط بضابطة عقلية واحدة؛ لأنّها حصيلة استقرائية ناظرة إلى ما هو موجود في الواقع. سيّما وأنّ المعهود في كتب التفسير القديمة أنهم يتناولون دراسة الآيات بنحو مستقل، فيتوقفون على معنى الآية وشرح مفرداتها وبيان بعض الأحداث والوقائع التي بسببها نزلت، أو إليها أشارت، دون النظر إلى وجود نهج جامع يضم كل العملية التفسيرية في أصول وقواعد، والمفسرون القدامى من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا يذكرون معاني الآيات منفردة عن بعضها كما تعززه الشواهد الكثيرة.

ولا يخفى على من راجع ما ورد في ذلك بطرق الفريقين، فالمنهجة العلمية نشأت في زمان التأليف والتصنيف، ولعل تفسير الشيخ الطوسي قدس سره شاهد على وجود شيء من المنهجة في البحث لديهم، فقد اعتمد كثيراً على اللغة في شرح معاني الآيات وبيان بعض النكات الفقهية أو الاعتقادية فيها، ولم يخرج عن هذه الضابطة في تفسيره، ثم الشيخ الطبرسي قدس سره في مجمع البيان أضاف على منهجية الشيخ قدس سره الاستناد إلى الطريق النقلي، وهكذا أخذ المفسرون يطورون في طريقة البحث وينظمون أبحاثهم في منهج يستكشفه المتتبع من أسلوب البحث وإن لم يعبّروا عنه. يشهد لهذا ما ذكره الشيخ الطوسي عليه السلام في مقدمة تفسيره، فإنه يكشف عن اختلاف المناهج عند المتقدمين. قال:

إنّي لم أجد أحداً من أصحابنا -قديماً وحديثاً- من عمل كتاباً يحتوي على تفسير جميع القرآن، ويشتمل على فنون معانيه، وإنّما سلك جماعة منهم في جميع ما رواه ونقله وانتهى إليه في الكتب المروية في الحديث، ولم يتعرّض أحد منهم لاستيفاء ذلك وتفسير ما يحتاج إليه.

فوجدت من شرع في تفسير القرآن من علماء الأمة بين مطيل في جميع معانيه واستيعاب ما قيل فيه من فنونه -كالطبري وغيره- وبين مقصِّر اقتصر على ذكر غريبه ومعاني ألفاظه...

فإنّ الزجاج والفرّآء ومن أشبههما من النحويين أفرغوا وسعهم فيما يتعلّق بالإعراب والتصريف، ومفضّل بن سلمة وغيره استكثروا من علم اللغة واشتقاق الألفاظ.

والمتكلمين كأبي علي الجبائي وغيره صرفوا همتهم فيما يتعلق بالمعاني الكلامية.

ومنهم من أضاف إلى ذلك الكلام في فنون علمه، فأدخل فيه ما لا يليق به من بسط فروع الفقه واختلاف الفقهاء كالبلخي وغيره...

وسمعت جماعة من أصحابنا قديماً وحديثاً يرغبون في كتاب مقتصد يجتمع على جميع فنون علم القرآن من القراءة والمعاني والإعراب والكلام على المتشابه، والجواب عن مطاعن الملحدين فيه وأنواع المبطلين كالمجبرة والمشبهة والمجسمة وغيرهم[1].

---

(١) التبيان: ج١، ص٧٥-٧٦.

وبعد قرون تطوّر المنهج التفسيري حتى صار جامعاً يضم مختلف الفنون والأغراض كما يلحظ في تفسير مجمع البيان، فقد ذكر في مقدمته: ابتدأت بتأليف كتاب يجمع أنواع هذا العلم وفنونه، ويحوي نصوصه وعيونه من علم قراءته وإعرابه، ولغاته وغوامضه ومشكلاته، ومعانيه وجهاته، ونزوله وأخباره، وقصصه وآثاره، وحدوده وأحكامه، وحلاله وحرامه، والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكر ما يتفرد به أصحابنا رضي الله عنهم من الاستدلالات بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع والمعقول والمسموع... وقدّمت في مطلع كل سورة ذكر مكيّها ومدنيّها، ثم ذكر الاختلاف في عدد آياتها، ثم ذكر فضل تلاوتها، ثم أقدّم في كل آية الاختلاف في القراءات، ثم ذكر العلل والاحتجاجات، ثم ذكر العربية واللغات، ثم ذكر الإعراب والمشكلات، ثم ذكر الأسباب والنزولات، ثم ذكر المعاني والأحكام والتأويلات والقصص والجهات، ثم ذكر انتظام الآيات ... فهو بحمد الله للأديب عمدة، وللنحوي عدة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللمحدث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة[1].

(١) مجمع البيان: ج١، ص٣٥، (بتصرّف).

القضية الثانية: في مناهج التفسير

يمكن تصنيف المناهج التفسيرية بأنحاء عديدة، ونكتفي بالإشارة إلى الأهم منها وهي ستة:

الأول: المنهج اللغوي.

الثاني: المنهج النقلي.

الثالث: المنهج العقلي.

الرابع: المنهج التطبيقي، وهو الذي يطبّق القرآن على نتائج العلم.

الخامس: المنهج الذاتي بأن يعتمد المفسر على تفسير القرآن بالقرآن، فيستعين على فهم الآية بالآيات القريبة منها، وربما كان هذا المنهج قديماً من حيث العمل جعل عنواناً مستقلاً، والتزم به في العمل أكثر في الأزمنة المتأخرة، كما في تفسير الميزان، حيث عُرف بأنه تفسير القرآن بالقرآن.

السادس: المنهج الجمعي، وهو الذي يعتمد على كل ما يمكن أن يساهم في فهم الآية ومعرفة المراد منها، وهو النهج الذي نختاره ونمضي عليه في عموم الأبحاث.

ونلفت النظر إلى ملاحظتين:

الأولى: حينما نصنِّف المناهج إلى لغوي ونقلي وعقلي لا يعني أنّ صاحب المنهج اللغوي لا يستعين بالنقل أو العقل أحياناً لفهم الآية أو بيان معناها، وإنّما المراد أنّ منطلقه في فهم الآية هو اللغة، والأدوات التي يستخدمها في الغالب هي قواعد اللغة من دون أن يمنعه ذلك من الاستعانة بغير اللغة، ومعلوم أن التصنيف يتبع الغالب.

الثانية: أن التصنيفات المذكورة ناظرة إلى التفسير البحثي الاستنتاجي لا التفسير الجمعي، فإنّ بعض التفاسير اقتصر فيها جهد المفسر على جمع ما ورد كالتفاسير الروائية التي لم يضف المصنف إليها شيئاً من عنده، وإنما انحصر جهده بجمع الأخبار والروايات الواردة في معنى الآية كما يلحظ في تفسيري البرهان ونور الثقلين، وقبلهما تفسير القمي والعياشي من كتبنا، والدر المنثور والطبري وأمثالهما من كتب العامة.

وتحقيق الحال في المناهج المذكورة يستدعي بيان مالها وما عليها:

أولاً: المنهج اللغوي

ويعتمد على شرح مفردات الآية المباركة وبيان دلالاتها اللغوية وحالاتها الإعرابية والإشارة إلى النكات البلاغية فيها، ومثل هذا المنهج يصعب عده تفسيراً للقرآن، وإنّما هو أقرب إلى الدراسات اللغوية التخصصية بكلمات القرآن الحكيم، ويلحظ هذا كثيراً في تفسير الكشاف للزمخشري ومفردات الراغب الأصفهاني وغيرهما، وقد مرت الإشارة من الشيخ الطوسيقدس سره إلى ذلك.

ثانياً: المنهج النقلي

وهو متعارف بين المفسرين، ولازم نزول القرآن، وجرت عليه طريقة الصحابة والتابعين وطائفة من أصحاب الأئمةعليهم السلام الذين دوّنوا الأحاديث عنهم في تفسير الآيات الشريفة، وفيه طريقان:

أحدهما: طريق النبي وأهل بيته عليهم السلام، وقد سلكه أصحابنا عليهم السلام، فجمعوا ما ورد عنهم عليهم السلام في بيان معاني الآيات وشرح مقاصدها كما في تفسير القمي والعسكري عليه السلام والعياشي، وأجمعها في الأزمنة المتأخرة تفسير البرهان للسيد هاشم البحراني والصافي للفيض الكاشاني ونور الثقلين للحويزي وتفسير عقود المرجان للسيد الجزائري، وقد نقل فيه -في الغالب- مضامين الأخبار لا متونها. هذا بحسب ما توفر بأيدينا من المصادر، على أنّ للشيعة الآلاف من كتب التفسير المدوّنة عبر الزمان بحسب ما ذكره بعض أعلام التحقيق لكنها لم تر النور بعد، وبعضها مفقود.

وذكر ابن شهراشوب في معالم العلماء عن الحسن بن خالد البرقي أنه كتب بإملاء الإمام الحسن العسكري عليه السلام كتاباً بمائة وعشرين من تفسير القرآن -لكنه مفقود[(١)]- وقال: ناصر خسرو الذي كان معاصراً للشيخ الرئيس في القرن الخامس الهجري رأيت في زماني سبعمائة دورة تفسير وذكر الأغا بزورك الطهراني في الذريعة أن الإمامية كتبوا أكثر من سبعمائة دورة تفسير[(٢)]، وهي غير تلك السبعمائة التي ذكرها ناصر خسرو[(٣)].

ثانيهما: طريق النبي صلى الله عليه وآله والصحابة وقد سلكه العامة، فجمعوا ما رواه الصحابة عن النبي أو ما فهموه من الآيات. جمعها السيوطي في الدر المنثور وابن كثير والطبري وغيرهم.

---

(١) معالم العلماء: ص١١١، (١٩١)؛ وانظر تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: ص٨٧٩، (٨٠١).

(٢) سماء المعرفة: ص٦٧.

(٣) انظر سماء المعرفة: ص٦٧.

وقد ذكروا أن السر في غلبة التفسير الروائي في الأزمنة الأولى هو كون الحديث هو المصدر الأول للعلوم والمعارف، وكان أكثر العلماء محدثين ينقلون الحديث بالمباشرة أو بالواسطة، ومن هنا استصعب البعض إطلاق عنوان التفسير على المصنفات الواردة في التفسير بالرواية؛ لكونها أقرب إلى كتب الحديث لكنها في موضوع خاص وهو القرآن، فيكون حكمها حكم مصادر الحديث الواردة في الفقه أو في الأخلاق أو العقائد، مثل كتب الصدوق والشيخ الطوسي والكليني قدست أسرارهم، فإنّ نقل الروايات التفسيرية لا يصيّر الكتاب تفسيراً ولا الراوي لها مفسراً بالمعنى المصطلح، كما أنّ راوي الحديث الفقهي أو الكلامي لا يصيّر الأول فقيهاً ولا الثاني متكلماً.

وفي الوقت الذي يتميّز المنهج الروائي بتجرده عن مشكلة التفسير بالرأي والوثوق بمطابقة المراد؛ لأنّه مروي عن المعصومعليه السلام إلّا أنه مبتلى بثلاثة إشكالات:

الأول: النقصان؛ إذ لم تصلنا كل الروايات الواردة في التفسير، والموجود منها لا يسد الحاجة، فإنّ التفاسير الروائية المتوفرة في اليد ناقصة.

الثاني: الضعف السندي في بعضها لا سيّما الوارد في الكتب غير المعتبرة عندنا، أو الواردة بطرق العامة.

الثالث: الإشكال المتني إما من جهة إجمالها أو اضطرابها أو غرابة معانيها أو عمق المعاني المشتملة عليها والتي هي الأخرى تحتاج إلى تفسير وبيان.

وبالمحصلة فإنَّ المفسِّر في هذا المنهج إذا أراد أن يقدِّم دورة تفسيرية

كاملة فإنّه لا يجد الطريق سالكاً، ولا يستغني عن اللغة والتأريخ والقواعد العقلية واللغوية في تفسيره، فيخرج عن منهجه ويدخل في المناهج الأخرى. هذا على طريقنا.

وأما على طريقة العامة فإنّ مدار فهم القرآن على ما رواه الصحابة والتابعون عن النبيﷺ أو نقلوا ما فهموه من القرآن؛ لكونهم المعنيين بخطاباته أولاً، وقد أقرّ الباري عزّ وجل لهم بذلك في قوله: ﴿**كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ**﴾[١] وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ**﴾[٣] وهي دالة على أنّ النبيﷺ قد بيّنه للصحابة، وهم بيّنوه للتابعين وهكذا.

ويتلخص: أنّ ما نقله الصحابة من معان للقرآن لا يخلو من حالين:

الأول: أن تكون المعاني التي ذكرها النبيﷺ لهم وهم نقلوها عنه بالنص فتكون رواية.

الثاني: أن تكون المعاني التي فهموها من القرآن؛ لأنه خاطبهم وعناهم أولاً، وقد كانت القرائن الحالية والمقالية والمقامية متوفرة لديهم، وكلّمهم القرآن بلغتهم التي كانوا أفذاذاً فيها، فما ينقله الصحابة كاشف عن المراد الجدي للقرآن، فالأخذ منهم أسلم، والحق أن هذا الطريق هو الآخر مبتلى بإشكالات:

---

(١) سورة فصلت: الآية٣.

(٢) سورة الزخرف: الآية٤٤.

(٣) سورة النحل: الآية٤٤.

الأول: لأن الكثير مما نقله الصحابة عن النبيﷺ متعارض ومضطرب ومجمل، بل يشهد ما ورد عنهم أنّ الواحد منهم ترد عنه روايات متضاربة متناقضة. فكيف يوثق بنقلهم ويطمأن إلى آرائهم؟

الثاني: أنّ القرآن الكريم أمرنا بتصديق إخبارات العدول في الرواية أي الثقات، وقد نص على أنّ جماعة من الصحابة لم يكونوا من هذا القبيل فوصفهم بالفسق والنفاق وأمثالهما من أوصاف قادحة في وثاقتهم، والقرائن التأريخية تعزز ذلك في جماعة منهم، فيكون دليلاً على وجوب التريّث فيما يروونه، ولا يؤخذ منهم إلّا بعد إحراز وثاقة الراوي وسلامة الرواية.

الثالث: أنّ الكثير مما رواه الصحابة ليس رواية بل فهماً ودراية منهم لما قاله القرآن أو ذكره النبيﷺ، فهو نقل ما فهمه الناقل، ولا يوجد دليل على صحة ودقة ما ينقله.

الرابع: أنّ الوارد عنهم في التفسير في غالبه يتضمن آراء شخصية لا تكشف عن المراد النوعي للقرآن، وفيها قصور عن درك عمق المعاني لاسيّما في البعد العلمي والمعرفي، وكانوا يقصرون عن فهم الآيات التي تشير إلى الحقائق الغيبية والاعتقادية، وكتب الرواية التفسيرية المتداولة في الأيدي شاهدة عليه، وما ورد عنهم في ذلك يتسم بالبساطة والاضطراب، وبعضه مخالف لبديهة العقل، وكانوا يتوقفون في أحيان كثيرة لعجزهم عن المعنى المراد، أو وقعوا في التشبيه والتجسيم والجبر وغيرها من معتقدات باطلة.

وقد نقل عن سفيان بن عيينة أنّه قال: (كل ما وصف الله من نفسه في كتابه فتفسيره تلاوته والسكوت عليه)[١] وهو إما يشير إلى التوقف فيه أو الاكتفاء في تفسيره بالمعنى الظاهر منه، والسكوت عليه من باب الإذعان وإن خالفه العقل.

وعن مالك أنّ رجلاً قال له: يا أبا عبد الله (استوى على العرش) كيف استوى؟ قال الراوي: فما رأيت مالكاً وجد من شيء كموجدته من مقالته، وعلاه الرحضاء وأطرق القوم. قال: فسُرِيَّ عن مالك فقال: الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وإنّي أخاف أن تكون ضالاً، وأُمِر به فأُخرج[٢].

والرحضاء العرق الذي يخرج في مثل هذه المواقف - الحرج الشديد - وجواب مالك واضح في تداخل المفاهيم واختلاطها لديه وقصوره عن فهم المعنى الصحيح للاستواء على العرش، وهذا أحد آثار ابتعادهم عن العترة وغلق باب التلقي منهمعليهم السلام، والذي ينظر فيما ورد عنهمعليهم السلام في تفسير ذلك يجد الفرق العلمي الكبير بين الطرفين.

على أنّ الاكتفاء بما ينقله الصحابة يجمّد التطور الفكري والعلمي للبشر، ويحبس القرآن في زمانه ومكانه، وهو مناقض لآيات القرآن الداعية إلى التفكر والتدبر والاعتبار منه في كل زمان ومكان؛ لأنه بيان للناس كافة،

---

(١) انظر الدر المنثور: ج٣، ص٩٢.

(٢) تفسير الميزان: ج٨، ص١٦١؛ الدر المنثور: ج١، ص٩١؛ فتح الباري: ج١٣، ص٤٠٧.

وقد أثبت الاتجاه المتشدد بهذا النهج في هذه الأزمنة بعده الكبير عن الارتقاء العلمي والمعرفي والإنساني.

ثالثاً: المنهج العقلي

اتبعه الحكماء والمتكلمون وبعض دعاة الحداثة في هذا الزمان والعرفاء، والظاهر أنّها قضية مواكبة للأجيال، ففي كل زمان هناك من يدعو إلى العقلنة في القضايا الدينية، وله أربعة اتجاهات:

الأول: الاتجاه الحسي الذي لا يؤمن إلّا بالحس ونتائج العلوم الطبيعية القائمة على التجربة والحس، وقد ظهرت بعض التفاسير التي طبقت دلائل الآيات على النتائج المختبرية التي يظهرها العلم الحديث.

الثاني: الاتجاه الفلسفي الذي يعتمد القواعد الفلسفية في فهم الآيات وتطبيقها، ونماذجه عديدة في تفاسير بعض المتقدمين والمتأخرين، وينضم إليه المتكلمون في تفاسيرهم كما أشار إليه الشيخ الطوسيقدس سره في مقدمته.

الثالث: الاتجاه الذوقي الذي يعبَّر عنه بالعرفاني بناء على التوسعة في مفهوم العقل ليشمل كل الحالات النفسية الاستدلالية والذوقية الشهودية، وهذا أسوأ من الاتجاهات الأخرى؛ لأنّه لا يقوم على قواعد عقلية يقينية أو ثابتة، ولا على مقدمات أو مقوّمات حسيّة يمكن الاعتماد عليها، وإنّما يقوم على أساس ذوق العارف وظنونه الشخصية واستحساناته؛ لذا غلب عليه التأويل حتى خرج عن التفسير، وقد أقر أصحاب هذا الاتجاه بأنه لا يندرج في العلم وإنّما في الطريقة، ولكل سالك طريقة؛ لأن وحدة الغاية تبرر تعدد الطرق، فإن المهم الوصول إلى المعرفة وتحصيل اليقين بها.

الرابع: الاتجاه الاجتهادي، ويعتمد على الاستنتاجات العقلية وبعض نتائج العلوم الحديثة في فهم الآيات، ويفسِّرها على طبق فهمه وثقافته. دعا إليه جماعة من الباحثين والمثقفين الذين يدعون إلى التجدد في المعارف الدينية وإعطاء الصلاحية لكل جيل أن يفهم القرآن بحسب ثقافته وزمانه ومكانه.

وهذا الاتجاه لازال غامضاً ولم يحدد الداعون إليه حدوداً وقواعد، وحصيلته أن ما يدعون إليه هو إخضاع القرآن للإدراك العقلي وما يفهمه العقل من الدلائل.

ويتميَّز هذا الاتجاه بميزتين:

الأولى: إعطاء الحرية والصلاحية للعقل للتدبر والتأمل في فهم معاني القرآن، وهذا أمر في نفسه حسن، وقد دعا القرآن إليه في آيات عديدة، حيث حث قارئيه إلى التدبر والاستنتاج منه.

الثانية: إعطاء الثقة للعقل وما يستنتجه من أفكار ومعارف بأنّها صواب أو أكثر صواباً من غيرها.

ولكن يمكن أن يناقش هذا المنهج باتجاهاته الأربعة من وجوه:

الوجه الأول: أنه في واقعه يستبطن إلغاء السنّة أو عدم الوثوق بقدرتها البيانية على تفسير القرآن، أو حصر دلائلها بزمانها ومكانها فلا تصلح لمواكبة الزمان وهداية أهله لمصالحهم.

ولعلّ مما يقوي مدعاهم نقصان الروايات الواردة في تفسير الآيات، وابتلاء بعضها بالإشكال السندي أو المتني، لكنه لا يعفيهم عن الرجوع إلى

السنّة المعتبرة والاستقاء منها في فهم القرآن، فإنّها أكمل من العقل وأعلم بمقاصد القرآن ومعانيه.

والقرآن كما أمر بالتدبر فيه أمر بالأخذ بالسنّـة، ووصف قول النبي صلى الله عليه وآله بالوحي، وأوجب على العباد الأخذ منه، كما أمرهم بالرجوع إلى العترة الطاهرة عليهم السلام في كل أمر يفتقرون إلى السؤال عنه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[1] وقال عز وجل: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[2] ولا يستقيم معناها إلّا بآل محمد عليهم السلام، والقول بأنّ المراد منهم أهل الكتاب أبطله الإمام الرضا عليه السلام بقوله لو كانوا هم المعنيين لدعوا الناس إلى الاعتقاد بدينهم[3].

الوجه الثاني: أنّ المنهج المذكور لا يخلو من غموض؛ لأنه لا يعلم مرادهم من المنهج العقلي، وفيه احتمالان:

الأول: أنّ العقل مستقلاً قادر على فهم القرآن وإدراك معانيه بلا حاجة إلى غيره، وهذا باطل بالبرهان والوجدان، ونواقضه كثيرة.

الثاني: أنّ العقل بالاستعانة باللغة والسنّة والقرائن التأريخية ونحو ذلك يدرك المعاني، وهذا سديد لكنه ليس منهجاً عقلياً محضاً، بل هو منهج جمعي يستعين بكل أداة تساعد على فهم الآيات. هذا من جهة، ومن جهة أخرى

---

(١) سورة الحشر: الآية٧.

(٢) سورة النحل: الآية٤٣.

(٣) تحف العقول: ص٤٣٥؛ الأمالي (للصدوق): ص٦٢٤؛ عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢١٦.

لا يعرف ما هو مرادهم من العقل الذي يعتمدونه في التفسير، فإن للعقل معاني ومصطلحات وأقساماً عديدة[(١)]، ولعل الأوفق بالمقصود أنّ مرادهم بالعقل قوة للنفس بها تتمكن من إدراك الحقائق وتستنتجها من المقدمات، وهو آلة التفكير ومحله الرأس، وينقسم باعتبار مدركاته إلى بديهي واكتسابي، ويراد بالأول إدراك المحاسن والقبائح البديهية التي لا تحتاج إلى تعليم وتعلّم، مثل قبح الظلم وحسن العدل، وأما الثاني فيراد به الحقائق التي يحصّلها عبر التعلّم والتعليم، والثاني أعم من الأول، ولعل هذا هو الذي اتبعه أصحاب المنهج العقلي باتجاهاته الأربعة في تفسير القرآن.

ولكنه ناقض لغرضهم؛ لأنهم إن أرادوا من العقل البديهي فهو مطابق للشرع ولا يخالفه كما قد يظهر من كتبهم، وأكثر آيات القرآن ليست منه، وإن أرادوا منه الاكتسابي فهو قاصر عن فهم المعاني الغيبية دون تعليم، وطريقه منحصر بالنقل وليس إلّا القرآن والسنّة.

ويتحصل: أن المنهج العقلي يقصر عن تفسير القرآن بالاعتماد على العقل المستقل دون الرجوع إلى السنّة.

الوجه الثالث: أن الاتجاهات الأربعة لهذا المنهج كل واحد منها لا يستغني عن السنّة؛ لأن الاتجاه الحسي يعتمد على الاستقراء الناقص لاستنتاج حقيقة كلية، وهذه نتيجة عقلية وليست حسية، وهذا من الأمور المتفق عليها في العلوم التجريبية، فإنّها تقوم على اختبار بعض العيّنات، فإذا لوحظ وجود قدر مشترك بينها يحكم على نظائرها بذات

---

(١) انظر كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: ج٢، ص١١٩٤.

الحكم؛ لأنّ الأمثال عندهم واحدة، ففي الطب ومعالجة الأمراض مثلاً يجرون اختبارات للدواء على بعض الأفراد، فإذا وجدوه مجدياً في معالجة المرض عمموه لكل الأفراد وهكذا، فالتجارب التي أقاموها حسية إلّا أن النتيجة الكلية التي استنتجوها عقلية، فلا معنى لجعل الاتجاه الحسي قسماً من الاتجاه العقلي.

والاتجاه الفلسفي والكلامي قد يجديهم في القضايا المتعلقة بالمبدأ و المعاد. أما القضايا الغيبية والحدود والأحكام والقصص القرآنية ونحوها فلا ترتبط كثيراً بالفلسفة والكلام، فيدور أمرهم بين أن يطوِّعوها لقواعد هذين العلمين وهو باطل عقلاً، وممنوع شرعاً، أو يتركوها بلا تفسير فينتقض غرضهم، أو يلجؤون فيها إلى السنّة فيثبت قصور منهجهم عن التفسير.

على أن الوثوق بصحة تفسيرهم استناداً إلى العقل الفلسفي والكلامي يتوقف على كون الأصول والقواعد الفلسفية والكلامية يقينية لا ظنية؛ لأن الظن ردع عنه القرآن نفسه(١)، فلا يمكن تفسيره به، والقواعد اليقينية مبتلاة بمحذورين:

الأول: أنّها قليلة لا تفي بالحاجة في كل القرآن.

الثاني: أنّها مبتلاة باحتمال الجهل المركب، فلا ضمان لصحة القاعدة الفلسفية والكلامية في عالم الثبوت، ولا معذرية لها في عالم الإثبات، ولا

---

(١) انظر سورة يونس: الآية ٣٦؛ سورة النجم: الآية ٢٨.

يمكن الوثوق ببراءة الذمة ثبوتاً وإثباتاً إلّا بالرجوع إلى السنّـة، وذات الإشكال يقال على الاتجاه الثالث أي الحداثوي. كما يقال على النهج العرفاني بمعناه المصطلح.

الوجه الرابع: أن المنهج العقلي بعيد عن حد التفسير، وهو إلى التطبيق أقرب منه إلى التفسير لسببين:

الأول: لأنّه بعد الفراغ من إثبات القاعدة في الفلسفة والكلام والعرفان أو الفكر الحداثوي ونحوها ينظر في الآيات للعثور على ما تنطبق عليه القاعدة، فهو في الحقيقة يسعى لتعزيز النتيجة العقلية بالآية وليس العكس، فلو تخالف مدلول الآية مع القاعدة لوى دلالة الآية بنحو يتطابق مع القاعدة ولا يتهم القاعدة بالخطأ، وهذا مما عرف عن طريقة أصحاب هذا المنهج(١).

الثاني: أنّه ينطلق في فهم الآية من الخلفيات الفكرية والقواعد العقلية أولاً، فهو لدى التفسير يرجع إلى العقل أولاً وما أقرّ به، ثم يفحص في دلائل الآيات فيجعل القاعدة سابقاً زماناً وأثراً على القرآن وليس العكس، وهو خلاف منهج القرآن الذي أمر بالرجوع إليه أولاً وفهم مقاصده ومعانيه والتدبر فيه، وفي عين الحال نهى عن الاعتماد على العقل خصوصاً في القضايا الغيبية، وحث على التعبد والاستماع إلى الوحي، وأشار إلى أنّه معلم للبشر، وأنه يهديهم للتي هي أقوم.

---

(١) انظر جدلية الدين والفلسفة: ج١، ص٤٣٨.

فالنهج بهذا المعنى يكون تطبيقياً؛ لأنه يطبق الآية على القواعد المستخلصة مسبقاً في علم المعقول، أو المتبناة لدى الباحث، وأما التفسير فينطلق من الآية لفهم معناها ودلالتها واستنتاج القواعد العقلية منها بنحو التأسيس أو التأييد.

إن قلت: لكننا لا نستغني عن العقل في فهم الآية وإلّا تعذّر الفهم ولزم الدور والتسلسل.

الجواب: نعم لا غنى للمفسر عن العقل في فهم الدلالة القرآنية لكن العقل على أقسام ثلاثة:

الأول: العقل المنطقي ويراد به بما هو آلة التفكير وتلقي المعرفة وإظهارها، وهو قوة جبلّية أودعها الباري عزّ وجل في البشر.

الثاني: العقل الصناعي، ويراد به النتائج النوعية التي يتوصل إليها في العلوم كالقواعد الكلامية والفلسفية وغيرها.

الثالث: العقل الشخصي، ويراد به الفكر الشخصي الذي يتوصل إليه الإنسان مستنداً إلى خلفياته وما يدركه من مقدمات لصناعة الفكر، وليس بالضرورة يتفق مع غيره فيه، وهو الذي يتبعه المحللون والمثقفون والأدباء في أعمالهم.

وما يعتمد في فهم الكلام ودرك معانيه وما عناه القرآن في خطاباته هو الأول، وهو مرتكز الفهم والتفاهم. أما الثاني والثالث فلا يحتاجهما المفسر ولو استند إليهما في تفسيره كان منحاه تطبيقياً لا تفسيرياً.

إن قلت: لكن القرآن الكريم تضمن آيات كثيرة لا يمكن فهمها بالنحو المناسب إلّا بالرجوع إلى القواعد الفلسفية والكلامية مثل قوله

تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا﴾[١] وقوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾[٢] ونحوهما.

الجواب: نقضاً بالآيات المتشابهة التي يضيع العقل فيها ولا يمكنه أن يدرك معناها أو الترجيح بين معانيها المحتملة كقوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوَءٍ﴾[٣] فماذا يفهم العقل من القرء ومن معنى التربص؟

ولا يمكنه فهم ذلك إلّا بالرجوع إلى اللغة، واللغة فسّرت القرء بتفسيرين متضادين هما الحيض والطهارة، فكيف يفهم العقل المقصود منهما؟ والجمع بينهما ممتنع، وترجيح أحدهما على الآخر بلا مرجح، فالعقل نفسه يتوقف في مثله، ولا حل له إلّا بالرجوع إلى اللغة والشرع، ولا تنفع القواعد الفلسفية والكلامية فيه.

وحلاً بأنّ مدلول مثل هاتين الآيتين ظاهر لدى العرف يدركه كل من يعرف اللغة، فالآية الأولى دالة على أنّ تعدد الآلهة يوجب فساد السموات والأرض، وبالتأمل والتدبر فيها يعرف سبب الفساد.

ولا حاجة إلى القواعد الفلسفية والكلامية فيه، ويشهد له أنّ الناس في زمان نزولها ومن تأخر عنهم فهموا المعنى المراد، ولم يدركوا القواعد الفلسفية والكلامية.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية٢٢.

(٢) سورة الأنعام: الآية١٠٣.

(٣) سورة البقرة: الآية٢٢٨.

ومثلها يقال في مثل قوله تعالى: ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾ لأنّ الدلالة العقلية في مثلها منطقية لا فلسفية ولا كلامية. نعم الذي يدرس القواعد الفلسفية والكلامية ربما يتضح عنده المعنى أكثر، لكن هذا من باب مزيد الفهم لا أصل الفهم. نظير فهم الطبيب من قوله تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[1] أكثر من فهم غيره؛ لعلمه بأثر الإسراف في الطعام والشراب على الصحة، وهذا لا يعني أن غير العالم بالطب لا يدرك معنى الآية، فالعلم تفصيلي وإجمالي، والعقل الصناعي قد يفيد العلم التفصيلي بالدلالة. أما غيره فيعلم بها علماً إجمالياً، والنتيجة على التقديرين أن فهم الدلائل العقلية في الآيات لا يتوقف على العقل الصناعي بل العقل المنطقي، وهو الحجة المشتركة بين جميع البشر.

ويتلخص من كل ما تقدم: أن المنهج العقلي في تفسير القرآن إن أريد به الاستغناء بالعقل عن الأدوات الأخرى كاللغة والسنّة فهو باطل، وإن أريد به التمسك بالعقل وبغيره فهو ليس بمنهج عقلي بل جمعي.

هذا كله إن أريد بالعقل المنطقي، وأما إذا أريد بالعقل الصناعي فهو خارج موضوعاً عن التفسير؛ لأنه من التطبيق لا التفسير ومتناقض حكماً.

---

(١) سورة الأعراف: الآية٣١.

رابعاً: المنهج التطبيقي

وهو الذي يستند إلى نتائج العلوم والمشاهدات الحسية والتجريبية في تفسير القرآن، كما لوحظ في محاولات بعض المفسرين والباحثين في علوم القرآن[١]، وهو الآخر قاصر عن التفسير، بل خارج عنه موضوعاً لأسباب:

الأول: لأنه يعتمد على الاستقراء الخارجي فيقتصر على المحسوسات والاختيارات، فيقصر عن تفسير القضايا الغيبية في القرآن.

الثاني: أنّه تطبيق للقرآن على التجارب البشرية، فهو تحميل للقرآن لا فهم له.

الثالث: أنّه يعتمد نتائج العلوم والتجارب، وهي في الغالب متطورة، وما أقره العلم اليوم قد يبطله غداً، وما يعده اليوم من الثوابت يكتشف خطأه بعد حين، كما هو معلوم من مراحل تطور العلوم والمعارف، فلا يمكن أن يعتمد في تفسير القرآن، وبالمحصلة يندرج في أخطر العناوين التي حرمها القرآن وهو التقوّل على الله والرجم بالغيب والعمل بالظنون والأهواء.

ولا ينبغي أن يفهم من ذلك أن القرآن يلغي نتائج العلوم، أو يمنع من الأخذ بها في فهم الآيات؛ لأنّه حث على العلم والتعلم، وحث على اعتماد العلم لبناء الحياة وتطويرها والتنمية البشرية، وإنّما التحريم من أن يجعل نتائج العلوم منطلقاً لفهم القرآن، والمطلوب هو فهم الدلائل القرآنية بالاستعانة بالعلم، فتكون نتائج العلوم مؤيدة وموضحة للدلالة لا مفسرة

---

(١) انظر الجواهر في تفسير القرآن (للشيخ الطنطاوي) مثلاً.

لها، نظير الاستعانة باللغة والمدركات العقلية، ولا زالت الدراسات العلمية تطالعنا باكتشافات علمية باهرة أشار إليها القرآن من ذي قبل قصرت عقول البشر وعلومهم السابقة عن إدراكها، وهذا من دلائل إعجاز القرآن.

خامساً: المنهج الذاتي

قيل إنّه أقدم المناهج التفسيرية وأرفعها شأناً[1]، وقد اعتمده كل من فسّر القرآن حتى الذين اعتمدوا المنهج النقلي، ويقوم على ركنين:

الأول: جمع الآيات القرآنية المتشاركة في الموضوع.

والثاني: جعل بعضها مفسِّراً للبعض الآخر وليس من باب تفسير المفردات؛ لأنها تؤخذ من اللغة والعرف، وإنما من باب رفع الإجمال عنها مفهوماً، أو بيان مصداقها، وبهذا يقترب من التفسير الموضوعي من جهة، ويفترق عنه من جهة أخرى. أما جهة الاقتراب فهي اعتماده الجمع والنظرة الدلالية الشاملة، وأما جهة الافتراق فهي اختلاف غاية البحث وموضوعه، فإنّ التفسير الموضوعي يدور على وحدة الموضوع. أما التفسير الذاتي فيدور على وحدة المفهوم، ويتميز هذا المنهج بأنه يعتمد التفسير لا التحميل والتطبيق؛ لأنه ينطلق من القرآن لفهم القرآن لا من خلفيات مسبقة، بخلاف المنهج العقلي والتطبيقي، ولذا قال العلامة الطباطبائي في مقدمة تفسيره في وصف القرآن:

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص١٧، (المقدمة).

هو كلام عربي مبين لا يتوقف في فهمه عربي ولا غيره ممن هو عارف باللغة وأساليب الكلام، وليس بين آيات القرآن - وهي بضع آلاف آية - آية واحدة ذات إغلاق وتعقيد في مفهومها بحيث يتحيرّ الذهن في فهم معناها، وكيف وهو أفصح الكلام؟

ومن شرط الفصاحة خلو الكلام عن الإغلاق والتعقيد حتى إنّ الآيات المعدودة من متشابه القرآن كالآيات المنسوخة وغيرها في غاية الوضوح من جهة المفهوم، وإنّما التشابه في المراد منها، وهو ظاهر، وإنما الاختلاف كل الاختلاف في المصداق الذي تنطبق عليه المفاهيم اللفظية من مفردها ومركبها، وفي المدلول التصوري والتصديقي[1]، ومعالجة هذا الاختلاف حسب هذا المنهج يتم بالرجوع إلى اللغة في بيان المفهوم، وإلى القرآن نفسه في بيان المصداق إما بالنظر إلى دلالة المفردات والقرائن الداخلية في ذات الآية، أو بالرجوع إلى آيات أخرى يتضح منها المراد مفهوماً أو مصداقاً، ويمكن توضيح ذلك بمثالين:

المثال الأول: ما ورد في قضية الولاية وتعيين الولي الذي يجب أن تتولاه الأمة في القيادة وتدبير أمور دينها ودنياها. وردت آيتان إحداهما تبيّن جهة النفي والأخرى جهة الإثبات، وبالجمع بينهما يتضح المعنى المراد.

ففي جهة النفي قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّه**

(١) تفسير الميزان: ج١، ص٩.

﴿لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١] فحذّرت المؤمنين الذين يتولون اليهود والنصارى من أمرين خطيرين:

الأول: الخروج من الإيمان والدخول في اليهودية والنصرانية : **﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾** وهي إخبار في مقام الإنشاء تفيد أن الذي يتولاهم يكون واقعاً منهم؛ لأنّ الولاية لا تكون إلّا عن اعتقاد ومحبة واتباع، فهي إخبار عن واقع الحال، وفي عين الحال إنشاء يفيد أنّ الباري عزّ وجل يجعلهم مثلهم في الديانة وإن كان المتولي لهم مسلماً فيترتب عليه حكمهم[٢].

الثاني: الضياع والضلالة وعدم الوصول إلى الغاية التي لأجلها دخلوا معهم وتولوهم؛ لأنّ ذلك من الظلم، وقد ذهب السيد الطباطبائي إلى أن المراد بالولاية قرب المحبة الموجب للامتزاج الروحي الموجب لتشابه الأخلاق والأفعال[٣]، وأبطل أقوال المفسرين الذين ذهبوا إلى ولاية النصرة والتحالف ونحوهما بقرينتين:

الأولى: الآيات التي تليها فإنها تشير إلى ولاية المحبة كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ﴾**[٤] والآيات التي نهت عن تولي المشركين فإنّها نهت عن الولاية بمعنى المحبة كقوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا**

---

(١) سورة المائدة: الآية٥١.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٣٥٥.

(٣) تفسير الميزان: ج٥، ص٣٧٨، وص٣٨٠.

(٤) سورة المائدة: الآية ٥٤.

الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاء تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾[١] إلى قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[٢].

والثانية: قوله تعالى: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾[٣] فإن إدراج المتولي لهم معهم في الموضوع والحكم لا يستقيم إلّا في ولاية المحبة؛ لأن ولاية النصرة عقد بين طرفين على نصرة بعضهم البعض في الحرب ونحوها، فإنّ هذا لا يوجب لحوقهم بهم موضوعاً[٤].

ومن جهة الإثبات قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٥] فإنّها دلت على أنّ من يجب أن يتولاه المؤمنون إمام تصدَّق في ركوع صلاته وهو أمير المؤمنين عليه السلام فيحبونه ويتبعونه ويشابهونه في الأفعال، ويتولى أمورهم الدينية والدنيوية[٦].

ونلاحظ أن الآية المباركة تشير إلى المصداق، وبالجمع بين الآيتين يفهم المراد بلا حاجة إلى الرجوع إلى غير القرآن في ذلك.

---

(١) سورة الممتحنة: الآية ١.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ٩.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥١.

(٤) انظر تفسير الميزان: ج٥، ص٣٨١؛ ج٦، ص٧.

(٥) سورة المائدة: الآية ٥٥.

(٦) انظر تفسير الميزان: ج٦، ص١٤، وما بعدها.

المثال الثاني: في تحديد ليلة القدر وأنّها من ليالي شهر رمضان المبارك، فإنّه لا توجد آية صريحة تدل على أن ليلة القدر في شهر رمضان، ولكن بملاحظة ثلاث آيات يستنتج منها ذلك، فتكون الآيات مفصلة للمجمل.

الأولى: قوله تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ**﴾(١) فإنّها دالة على أن نزول القرآن تم في شهر رمضان.

والثانية: قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ**﴾(٢) وتدل على أنّ القرآن نزل في ليلة وبضميمة الآية الأولى يعرف أنها من ليالي شهر رمضان.

والثالثة: قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ**﴾(٣) وتدل على أن نزول القرآن تم في ليلة القدر، وبضميمة الآيتين السابقتين يفهم أن ليلة القدر من ليالي شهر رمضان(٤).

وقيل إن هذا المنهج هو الأتم والأكمل، ولذا اعتمده جملة من أعلام المفسرين من الفريقين كالطبري والرازي والطوسي والطبرسي والطباطبائي، وفي صحة ذلك نظر بيّن عدا ما صرّح به السيد الطباطبائي من المتأخرين.

كما صرّح به وقال: إنّ فهم حقائق القرآن يمكن أن يتم بطريقين:

الأول: أن نبحث بحثاً علمياً أو فلسفياً أو غير ذلك عن مسألة من المسائل

---

(١) سورة البقرة: الآية١٨٥.

(٢) سورة الدخان: الآية٣.

(٣) سورة القدر: الآية١.

(٤) انظر تفسير الميزان: ج٢٠، ص٣٧٩.

التي تتعرض له الآية حتى نقف على الحق في المسألة، ثم نأتي بالآية ونحملها عليه، وهذه طريقة يرتضيها البحث النظري غير أنّ القرآن لا يرتضيها.

والثاني: أن نفسِّر القرآن بالقرآن، ونستوضح معنى الآية من نظيرتها بالتدبر المندوب إليه في نفس القرآن، ونشخص المصاديق ونعرفها بالخواص التي تعطيها الآيات(١)، واستدل لهذا المنهج بوجوه:

الوجه الأول: العقل بضميمة القرآن نفسه من ناحيتين:

الأولى: بيان القرآن نفسه، فإنه نص على أنه تبيان لكل شيء، فلا يعقل أن لا يكون تبياناً لنفسه؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه. قال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾(٢).

والثانية: أنه نص على أن القرآن هدى وبينّة وفرقان ونور مبين للناس في جميع ما يحتاجون، فكيف يكون هو نفسه محتاجاً إلى الغير. قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا**﴾(٣) والنور ظاهر بنفسه مظهر لغيره ولا يحتاج إلى الاستنارة بغيره(٤).

الوجه الثاني: طائفة من الروايات التي دلت على أن القرآن يفسِّر بعضه بعضاً.

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج١، ص١٤.

(٢) سورة النحل: الآية٨٩.

(٣) سورة النساء: الآية ١٧٤.

(٤) تفسير الميزان: ج١، ص١٤.

منها: ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام كما في نهج البلاغة: ﴿وكتاب الله بين أظهركم ناطق لا يعيا لسانه، وبيت لا تُهدم أركانه، وعزّ لا تهزم أعوانه ... كتاب الله تبصرون به وتنطقون به وتستمعون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض﴾[١] ودلالته على المدعى ظاهرة، وقريب منه ورد عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق العامة[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال: ﴿إنّ الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج العباد إليه إلّا بيّنه للناس حتى لا يستطيع عبد يقول: لو كان هذا نزل في القرآن إلّا وقد أنزل الله فيه﴾[٣].

والبيان إظهار المعنى للنفس، ويتوقف على الاستعانة بالغير[٤]، والتبيان هو ظهور الشيء في نفسه فلا يحتاج إلى غيره. قال تعالى: ﴿**قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[٥] والآيات والروايات نصت على أنّ في القرآن تبيان كل شيء لا بيانها فيتم المطلوب، وتعززه سيرة المعصومين عليهم السلام القائمة على تفسير آية بآية، والاستدلال بآية على معنى آية، وذلك لا يستقيم إلّا على هذا المنهج.

الوجه الثالث: حكم العقل، فإن الأخبار تواترت عن النبي صلى الله عليه وآله والعترة عليهم السلام بوجوب التمسك بالقرآن والأخذ به وعرض الروايات

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٦، الخطبة (١٣٣).
(٢) انظر كنز العمال: ج١، ص٦١٩، ح٢٨٦١.
(٣) البحار: ج٨٩، ص٨١، ح٩.
(٤) معجم الفروق اللغوية: ص١٠٨-١٠٩، (٤٢٧)، (٤٢٩)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٥٧، (بين)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٨٠، (بان).
(٥) سورة البقرة: الآية٢٥٦.

المنقولة عنهم عليهم السلام على كتاب الله، فإنّ هذا لا يستقم إلّا مع القول بأن جميع ما نقل عن النبي صلى الله عليه وآله والعترة مما يمكن استفادة معناه ومضمونه من الكتاب، ولو توقف ذلك على بيان النبي صلى الله عليه وآله كان من الدور الباطل وهو ظاهر[١].

وأما قوله صلى الله عليه وآله: «لن يفترقا»[٢] في حديث الثقلين المتواتر فهو غير مسوق لإبطال حجية ظاهر القرآن وقصر حجيته على السنّة الشريفة، وإنّما المراد أنّه يجعل الحجية لهما معاً، فيكون للقرآن الدلالة على معانيه والكشف عن المعارف الإلهية، ولأهل البيت الدلالة على الطريق وهداية الناس إلى أغراضه ومقاصده[٣]، ويعززّه ما رواه البرقي في المحاسن عن أبي جعفر عليه السلام قال: «فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك»[٤] إلى غير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على أن القرآن في نفسه بيّن ظاهر يمكن اعتماده ولا يصح الرجوع إلى غيره؛ لأن فيه الهلكة.

هذا خلاصة ما أفيد في هذا المنهج، ويمكن مناقشته من جهات عديدة:

منها: أنه قد يتم في فهم بعض الآيات لكنه لا يتم في الكثير منها؛ إذ لا يستغني المفسر عن الاستعانة بالروايات والقواعد المحررة في العلوم المختلفة لفهم مداليل الآيات وكشف مقاصدها، فإن الوجدان شاهد على

---

(١) تفسير الميزان: ج٣، ص٨٥.

(٢) الكافي: ج٢، ص٤١٥، ح١؛ الدعائم: ج١، ص٢٨.

(٣) تفسير الميزان: ج٣، ص٨٦.

(٤) المحاسن: ج١، ص٢٧٠، ح٣٦٠.

وجود آيات لا يعرف المراد منها، ولا تعرف آيات أخرى يمكن أن توضحها، وفي عين الحال فاقدة للقرينة الداخلية، وربما تكون القرينة غامضة أو مورثة للاشتباه، فماذا يصنع المفسِّر؟

مثلاً: في قوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾[١] و قوله تعالى: ﴿**وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ**﴾[٣] ونحوها من آيات لا يمكن فهمها الفهم الصحيح إلّا إذا رجع إلى بعض قواعد المذهب المحررة في علم الكلام وما يستفاد من الروايات المتواترة الدالة على عصمة الأنبياء وتنزههم من كل قبيح خلقي وأخلاقي[٤]، فضلاً عن القرائن التأريخية[٥]، ويشهد لذلك ما ذكره صاحب الميزان في تفسير الآية ١٠٢ من سورة البقرة من قوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ**﴾ إلى آخر الآية قال: اختلف المفسرون في تفسير الآية اختلافاً عجيباً لا يكاد يوجد نظيره في آية من آيات القرآن المجيد، وذكر وجوه الاختلاف الكثيرة في ضمائرها ومعاني كلماتها، ثم قال: وإذا ضربت بعض الأرقام التي ذكرناها من الاحتمالات في البعض الآخر ارتقت الاحتمالات إلى كمية عجيبة، وهي ما يقرب من مليون ومائتين وستين ألف احتمال، وهذا -لعمرو الله- من عجائب نظم القرآن، تترد الآية بين مذاهب

---

(١) سورة عبس: الآية ١.

(٢) سورة الضحى: الآية ٧.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٨٧.

(٤) انظر تفسير الميزان: ج١٤، ص٣١٦.

(٥) تفسير الميزان: ج٢٠، ص٣٥٤.

واحتمالات تدهش العقول وتحيرّ الالباب، ومثل ذلك قاله في تفسير الآية ١٧ من سورة هود[١]، ومعلوم أن كثرة الاحتمالات تخفي الحقيقة وتضيع حتى على البصير الناقد يصل إلى المعنى الصحيح دون الرجوع إلى المعصوم عليه السلام، ولذا صرح السيد الطباطبائي في موارد عديدة بأن فهم الآية يتوقف على مراجعة السنّة[٢].

ويتحصل: أن مرادهم من تفسير القرآن بالقرآن إن كان كل القرآن فهو منقوض، وإن كان بعضه في الجملة لم يكن منهجاً شاملاً لكل القرآن.

وأما الآيات والروايات التي استدلوا بها فهي معارضة بالآيات والروايات الأخرى التي نصت على وجوب الرجوع إلى الرسول وعترته عليهم السلام والأخذ منهم كما في قوله تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[٣] وإطلاقه يشمل موردين:

أحدهما: ما يؤسسه النبي صلى الله عليه وآله من معان ليس لها معنى ظاهر في القرآن.

ثانيهما: ما يشرحه ويبينه النبي صلى الله عليه وآله من معان وردت مجملة في القرآن، وشواهد الاثنين غنية عن البيان، وكذا في قوله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[٤] والعقل والنقل متضافران على أنّ الذكر هو رسول

---

(١) تفسير الميزان: ج١، ص٢٣٠-٢٣١، (بتصرّف).

(٢) انظر تفسير الميزان: ج٥، ص٣٨٣؛ ج٦، ص٨؛ ج٢٠، ص٣٧٩؛ ج١١، ص٥٨.

(٣) سورة الحشر: الآية ٧.

(٤) سورة النحل: الآية ٤٣.

الله ﷺ، وأهل الذكر هم آل محمد عليهم السلام، وإطلاق السؤال يشمل جميع المعارف والأحكام بما فيها ما ورد في القرآن.

وأما الروايات الواردة فمتواترة منها: رواية زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: «تفسير القرآن على سبعة أوجه منه ما كان ومنه ما لم يكن بعد. ذلك تعرفه الأئمة عليهم السلام »[(١)].

وفي رواية جابر قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني، ثم سألته ثانية فأجابني، بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال عليه السلام لي: «يا جابر! إنّ للقرآن بطناً، وللبطن بطناً وظهراً وللظهر ظهراً. يا جابر! وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن. إن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل يتصرّف على وجوه»[(٢)].

ومن طرق العامة عن عبد الله بن مسعود قال: (إنّ القرآن نزل على سبعة أحرف، ما منها حرف إلّا وله ظهر وبطن، وإنّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن)[(٣)].

---

(١) بصائر الدرجات: ص١٩٣، ح٨؛ البحار: ج٨٩، ص٩٨، ح٦٥.

(٢) انظر المحاسن: ج١، ص٣٠٠؛ تفسير القمي: ج١، ص١٩؛ تفسير العياشي: ج١، ص١٢، ح٨؛ تفسير البرهان: ج١، ص٥١، ح١٣.

(٣) تفسير القمي: ج١، ص٢٠، مقدمة المصحح؛ وانظر تفسير الثعلبي: ج١، ص٥٣؛ الاتقان في علوم القرآن: ج٢، ص٤٩٣؛ وفي تفسير الثعلبي والإتقان: ((عنده من الظاهر والباطن)).

وفي استبصار الكراجكي نسب ذلك إلى الأوصياء عليهم السلام[١].

وفي رواية زيد الشحام عن الباقر عليه السلام في خطابه لقتادة: ويحك يا قتادة! إنّما يعرف القرآن من خوطب به[٢] وهم آل محمد عليهم السلام.

وتضافر عن النبي والأئمة عليهم السلام: «أنّ تفسير القرآن لا يجوز إلّا بالأثر الصحيح والنص الصريح»[٣] والأثر ما ورد في السنّة الشريفة، وسنن النبي آثاره؛ لأنها تبقى بعده مأخوذة من الأثر وهو الذي يخلفه السابقون، ومنه قوله تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ﴾ وهي ما قدموا من الأعمال وما سنّوه بعده من سنن حسنة كانت أو قبيحة، وآثار الأعمال ما بقي منها[٤].

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[٥] أي على سننهم، وبهذا الاعتبار يطلق الأثر على الخبر المروي والسنّة الباقية في مصطلحات علم الحديث[٦]، ويشمل ما ورد عن الإمام والصحابي والتابعي الذين ينقلون عنهما، والنص في اصطلاح أهل العلم اللفظ الدال على معنى غير محتمل للنقيض[٧]، ولا يحتمل إلّا معنى واحداً في الفهم العقلائي، ويشمل

---

(١) الاستبصار (للكراجكي): ص١٢؛ انظر تفسير الصافي: ج١، ص٢٠.

(٢) الكافي: ج٨، ص٣١١، ح٤٨٥؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٢.

(٣) الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص٢٠٤، ح٣٣٦٠٩؛ تفسير الصافي: ج١، ص٣٥.

(٤) مجمع البحرين: ج٣، ص١٩٨، (أثر).

(٥) سورة الزخرف: الآية ٢٣.

(٦) انظر المعجم الوسيط: ج١، ص٥، (أثر).

(٧) مجمع البحرين: ج٤، ص١٨٦، (نصص).

محكمات الكتاب والسنّة[١]، والإثبات بعد النفي يفيد الحصر، فحصر تفسير القرآن بالقرآن فقط مخالف لمدلول الحديث المتواتر مضموناً.

والخلاصة: أن ما استدل به القائلون بهذا المنهج من الآيات والروايات معارض بالآيات والروايات الدالة على أن التفسير لا يكون بالقرآن وحده، ومعالجة التعارض إما بالترجيح أو الجمع، والترجيح للروايات الآمرة بالرجوع إلى السنّة، وعدم الاكتفاء بدلالة القرآن؛ لأنها أكثر عدداً وأصرح دلالة وأخص في المعنى، والخاص يتقدم على العام، وأما الجمع فيتم بنحوين:

الأول: رفع الإجمال؛ لإن ما دل على أن في القرآن تبيان كل شيء مجمل، والتبيان لكل شيء يستدعي وجود مبين تفصيلي له، ولا يمكن الرجوع إلى القرآن في غالبه كما عرفت، فلابد من الرجوع إلى السنّة فتحقيق غرض الآية وتحقق التبيان موضوعاً يتوقف على الرجوع إلى السنّة ويعزّزه شاهدان:

أولهما: قوله تعالى: ﴿**هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾[٢] وهم الأئمةعليهم السلام كما ورد عن الصادقعليه السلام[٣]، وبمقتضى مفهوم الوصف يستفاد أنّها في صدور غيرهم ليست بينّة فتفتقر إلى بيانهم، والضمير (هو) يعود إلى كل القرآن.

---

(١) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٢٦، (نص).

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٣) تفسير الصافي: ج١، ص٢٠.

ثانيهما: سيرة الأئمة عليهم السلام القائمة على بيان معاني القرآن بالاستناد إلى أقوال النبي صلى الله عليه وآله وأقوال بعضهم البعض، أو القرائن العقلية والتأريخية.

وباختصار: أن الآيات والروايات التي استدل بها أصحاب المنهج الذاتي ناظرة إلى الآيات والروايات الدالة على لزوم الرجوع إلى الآثار الصحيحة لفهم معانيه فيرتفع التعارض، والوجدان شاهد بأنّ الروايات تلفت إلى حقائق ونكات تفسيرية يتعذر الوصول إليها عبر الآيات.

الثاني: نفي التشابه، فإنّ المنهج الذاتي يقوم على دعوى أنّ القرآن كلام مفهوم حتى المتشابه منه، ولو سلّمنا ذلك فإنه يخرج عن التفسير موضوعاً؛ لما عرفت من أنّ التفسير هو بيان الشيء المبهم وإيضاحه، ولذا حكى الطريحي عن الطبرسي وارتضاه بأن التفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل المجمل والمتشابه، وذلك كأن يحمل المشترك اللفظي أو المعنوي على أحد المعاني بخصوصه، وأخرجا الظواهر عنه؛ لعدم إشكالها وعدم احتياجها إلى التفسير[1].

على أنّ الغرض من التفسير ليس فهم ألفاظ الآية، بل فهم المراد منها، وهذا ما يتعذر عادة إلّا بالرجوع إلى السنّة، فلا يمكن العمل بالآيات والروايات التي استدل بها أصحاب هذا المنهج بمعزل عن الآيات والروايات الآمرة بالرجوع إلى السنّة؛ لأنّ الآمرة إما تصنع الظهور أو تكشف عن المراد.

---

(١) مجمع البحرين: ج٤، ص١٨٦، (نصص).

بل ورد النهي عنه في رواية الكافي عن الصادق عليه السلام قال: ﴿قال أبي ما ضرب رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر﴾[1].

وعن الشيخ الصدوق قدس سره: (أنّ الحديث فسّر بأن تجيب الرجل في تفسير آية بتفسير آية أخرى)[2] ولعل الكفر المعني هو الخطأ وعدم إصابة الواقع لا كفر العقيدة.

وأما روايات العرض فلا تصلح شاهداً للمنهج المذكور؛ لثلاثة أسباب:

الأول: لأنّ غايتها إثبات صحة الصدور لا جهة الصدور، أو بيان دلالة الحديث باعتبار وقوع الدس والوضع في الأحاديث، جعلوا عليهم السلام الضابطة لمعرفة الحديث الصادر منهم، وهو أن لا يتنافى مع مدلول القرآن بنحو التناقض، ولو تنافى مع مدلوله الإطلاقي أو العمومي فإنه لا يعرض عنه؛ لوجوب حمله على التقييد والتخصيص، وقد اتفقت الكلمة على أن السنّة تقيد القرآن وتخصصه.

الثاني: أنّ روايات العرض خاصة بالروايات المشتبهة التي يشك في وضعها، وأما ما ورد منها بطريق معتبر ولا يتضمن معنى ينافي صريح القرآن فينبغي العمل وتفسير القرآن به؛ لأنّ السنّة تبيّن مجملات القرآن.

الثالث: أنها معارضة بالروايات التي أمرت بإرجاع القرآن إلى السنّة لفهم معناه وتأويله وباطنه، ويرتفع التعارض إذا حملناها على السببين الأول والثاني.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٦٣٢، ح١٧؛ الأصول الأصيلة: ص٢٩٦.

(٢) معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١.

ويتحصل من كل ما تقدم: أنّ المنهج الذاتي إن أريد به الاكتفاء بالقرآن في تفسير القرآن فهو مخالف للقرآن والسنّة، والتزام عملي بقول القائل حسبنا كتاب الله[١]، ولا نظن أن أصحاب هذا المنهج يريدون ذلك، والوجدان شاهد على وجود آيات لا يمكن أن تفسر بالقرآن وحده، وإن أريد منه أن بعض الآيات يمكن تفسيرها بالآيات الأخرى فهو وجيه بشرطين:

الأول: أن تكون الآية محكمة الدلالة في نفسها.

الثاني: أن لا ترد رواية تدل على معنى يخالف ظاهرها، وإلّا وجب الأخذ بالرواية؛ لأنه من العمل بالقرآن الذي وصف كلام المعصوم بالوحي وأمر بالأخذ منه. على أنّ تفسير بعض القرآن بالقرآن لا يعد منهجاً خاصاً للتفسير؛ لأن الموجبة الجزئية لا تفيد كبرى كلية.

سادساً: المنهج الجمعي (الأفضل)

ويراد به المنهج الذي يعتمد كل الأدوات والحجج التي لو استعان بها المفسّر لوصل إلى معرفة المراد، فإن توقف ذلك على اللغة لجأ إليها، وإن وجدها في آيات أخرى أخذ بها، وإن وجدها في الرواية أو العقل كذلك، فهو منهج لا يقتصر على طريقة واحدة في فهم الآيات كما عرفته من المناهج السابقة، بل يأخذ بالجميع، وهذا هو أفضل المناهج وأرقاها كما سيتضح فيما يأتي.

---

(١) مسند أحمد: ج١، ص٣٢٥؛ صحيح البخاري: ج٥، ص١٣٨.

المبحث العاشر: مزايا المنهج الجمعي

يتميز المنهج الجمعي بمزايا عديدة:

الأولى: المرونة، فإنه يحرر المفسِّر من قيود المناهج الخاصة، ويجعله باحثاً عن الحقيقة بأي أداة كانت.

الثانية: الجمع، إذ يأخذ بجميع الحجج العقلية والشرعية ولا يلغي أو يقصي بعضها، فإنّ قول أهل اللغة حجة في معاني الألفاظ من جهة حجية قول الخبير في الموضوعات، وكذا قول المؤرخ والمفسر، كما أن العقل والسنّة من الحجج أيضاً، والأخذ ببعضها دون بعض إقصاء للحجة بلا عذر، وربما يندرج في العصيان فضلاً عن تفويت الواقع والتقصير في فهم خطاب الله عزّ وجل.

الثالثة: الوصول إلى الغاية، فإنّ الاستناد إلى كل ما يمكن أن يساهم في فهم الآية يكون أقرب إلى فهم المراد، ولذا لم يستغن عنه أصحاب المناهج الأخرى، بل أخذوا به وإن غلب عليهم النهج الخاص، وهو شاهد على أنّه منهج فطري أو عقلي بديهي يحفز المفسِّر إليه دون تكلّف؛ لأنّ الغاية من التفسير هو فهم مراد الباري عز وجل في كتابه، وهو الواجب على كل مكلف، والمقصود لكل باحث، والمنهج طريق إليه، فلو أقصيت الأدوات التي يمكن أن تساهم في الوصول إلى الغاية خرج المفسر عن المنهجية، وافتقد مقومات البحث.

الرابعة: الموضوعية، بالانطلاق من ذات الآية في فهم المراد، فإن أعوزه ذلك الرجوع إلى اللغة رجع إليها، وإن أعوزه الرجوع الآيات الأخرى أو الروايات أو الاستعانة بالقواعد العقلية رجع إليها، وبذلك يكون العمل به

سعياً تفسيرياً لا تطبيقياً أو تحميلياً، وهذا الطريق هو الذي اخترناه وسرنا عليه في أبحاثنا القرآنية.

الخامسة: المنهجية، فإنّ الاستعانة بالأدوات الأخرى تتم في مراتب بحسب مكانة الأداة وقوة أثرها، والمراتب كالتالي:

أولاً: اللغة؛ لأن بها يتم فهم مفردات الآية إن لم تكن ظاهرة في معنى يفهمه العرف.

ثانياً: السنّة الشريفة؛ لأنها ترجمان القرآن والمبينة لمقاصده، وقد أمرنا باتباعها والأخذ منها في فهم القرآن وغيره، فإذا وردت رواية لبيان معنى الآية يستفاد منها بيان المفهوم أخذنا بمقتضاها، وإن وردت لبيان المصداق أخذنا بها وبظاهر الآية، وإذا لم ترد رواية أخذنا بظاهر الآية وما يستفاد منها.

ثالثاً: الآيات الأخرى التي يمكن أن توضح مراد الآية مورد البحث لتكون شاهداً على المعنى.

رابعاً: حكم العقل وما يستنتجه من الآية بالتدبر بدلالة الإيماء والإشارة والاقتضاء والملازمة العقلية، فإن تعارض ظاهر الآية مع حكم العقل البديهي أوّلنا اللفظ بما يتوافق مع حكم العقل؛ لاستحالة مخالفة القرآن للعقل، ولأنّ العقل هو دليل حجية ظاهر القرآن، فلا يعقل أن يتقدم الظاهر عليه، وإلّا لزم من وجوده عدمه. نعم في آيات الأحكام راعينا قواعد الاستنباط الفقهي كأقوال الأصوليين وإجماعات الفقهاء ونحوهما.

وأما أقوال المفسرين فلها حالتان:

الأولى: أن تكون موافقة لما استفدناه من الآية فنأخذ بها كقرينة وثوقية تفيد قوة الظن بالمراد.

الثانية: أن تكون مخالفة فلا نأخذ بها؛ لتضافر الأدلة على اختلاف فهمهم ومناهجهم والأدوات التي يستعملونها الموجب للاطمئنان بعدم إمكان اعتمادها، فإن اختلاف الأدوات والمقدمات يوجب اختلاف النتائج، وقد كثرت أقوال المفسرين في تفسير الآيات بما يمنع من الأخذ بها.

وأما نتائج العلوم فلم ننطلق منها لفهم الآيات، بل جعلنا مدار البحث ذات الآية وما يستنتج منها لاسيّما في اللطائف والتعاليم، وجعلنا الآية مؤسسة للقواعد والنتائج العلمية في الجوانب الإنسانية المختلفة، فإن كان في العلوم ما يؤيدها أخذناه كمعزز، وإلّا جعلنا الآية حاكمة؛ لأن نتائج العلوم استنتاجات بشرية قابلة للخطأ، وما أكثر ما تطالعنا الأبحاث المتأخرة عن أخطاء الأبحاث السابقة أو تطويرها أو تكميل نواقصها، فلا يمكن أن يكون العقل البشري ضابطة للقرآن، بل العقل نفسه يمنع ذلك، ويدعو إلى جعل الآية ضابطة للعقول البشرية، والمؤسس للعلوم المتعلقة بتعليم البشر وتربيتهم.

السادسة: مخاطبة العقول ومحاورتها أولاً، والسعي لأن يكون البحث موافقاً لمستويات أهل البحث والاطلاع، وقد راعى في أسلوبه أمرين:

الأول: البيان بشرح الآيات والإشارة إلى دلائلها المعرفية، ثم تطبيقها على الواقع.

الثاني: الإقناع لينتفع به المؤمن والملحد والعالم والمتعلم والمسلم وغير المسلم لإيصال ثلاث حقائق:

الأولى: أن القرآن هو الكتاب الكامل الشامل الذي يهدي البشر لمصالحهم، وينوّر عقولهم، ويزكّي قلوبهم، ويطهّر نفوسهم من الشرور، ويضيئها بالخير.

الثانية: أنّ القرآن كتاب الله وهو منزه من الأغراض والدواعي. غايته الارتقاء بالبشر إلى الكمالات الإنسانية ليعيشوا سعداء في الدنيا والآخرة، ولا يطلب من دعواه إلى الإيمان والعمل الصالح غير ذلك.

الثالثة: أن القرآن كتاب للحياة ينفع كل جيل في زمانه ومكانه وظروفه المحيطة لو لجأ إليه واسترشده، فهو ليس كتاب ثواب وذكر وعبادة فقط، فلو استهدى بهديه القائد والزعيم هداه إلى الأسلوب القيادي الأمثل، ولو استهدى به السياسي أرشده إلى النجاح، ولو لجأ إليه المربي والمرشد والمدير أعطى كلاً ما يحتاجه؛ لأنه ﴿**يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾[1] وعطاؤه لا يختص بالمسلم أو المؤمن، ولقد خسرت البشرية خسراناً كبيراً؛ لعدم اهتمامها بالقرآن وعدم أخذها منه، وأضاع المسلمون كرامتهم وعزتهم وسيادتهم في العالم، وتبدلت حياتهم شقاء؛ لهجرانهم القرآن واتباعهم ما عليه الشرق والغرب وأمثالهما من أفكار وتعاليم.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٩.

ولو عمل المسلمون بقادتهم الدينيين والسياسيين والإعلاميين والفكريين على العودة إلى القرآن وتعاليمه ورسخوا مبادئه وقيمه وحدوده وأحكامه في مناهج التعليم ووسائل الإعلام وأقاموا المعاهد والجامعات التي تدرس تعاليم القرآن وتستنتج منه أصول وقواعد الحياة الحرة الإنسانية الراقية والسعادة الروحية والبدنية؛ لسادوا العالم بهذه القيم التي تعشقها النفوس، وتذعن لها العقول، وصاروا قدوة لشعوب الأرض.

وأول الخطوات في ذلك تنزيه الدين وتعاليمه من التضليل الذي يصنعه الغرب والشرق عبر الإعلام والفرق الضالة التي تشوه الدين باسمه وبالحكام المستبدين الذين يفسدون في الأرض، فإن التشويه الذي صنعته الأيدي المعادية للدين والقرآن أوقعت الناس بالجهل بالقيم الحقيقية للدين وفقدان الثقة بقدرة الدين على إعطاء الحياة الأفضل للمجتمع الإنساني، وهذا ما جعل الدين غريباً كما أخبر رسول الله ﷺ: ﴿بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً﴾[١] وتوهمّوا بأنّ للغرب والشرق القدرة على توفير ذلك، وغفلوا عن أن الظلم والفساد والخوف والجوع والجهل في العالم يقوده الغرب والشرق وينظر له ويمنهج، وسيقود العالم إلى الدمار الحقيقي إذا لا يعود إلى رشده ويضبط أفكاره وسياساته في إطار القيم الدينية.

---

(١) صحيح مسلم: ج١، ص٩٠؛ سنن ابن ماجة: ج٢، ص١٣١٩، ح٣٩٨٦.

المبحث الحادي عشر: طبقات المفسِّرين

تتميز طبقات المفسّرين -وطبقات العلماء في كل علم- بإحدى ضابطتين:

الأولى: باعتبار الأسبقية الزمانية.

الثانية: باعتبار التفوق العلمي.

وكلتاهما مجتمعتان في أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً[١] ونص القرآن أنه في كتاب مكنون لا يمسّه إلّا المطهرون[٢].

فإن علياً عليه السلام أول من جمع القرآن بأمر الله ورسوله صلى الله عليه وآله بآياته ودلالاته، وهو أول مفسر في الإسلام باتفاق المسلمين، وأعلاهم علماً[٣].

وقد نص رسول الله صلى الله عليه وآله عليه بأنه مع القرآن والقرآن معه، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا الحوض[٤]، وقد تضمن ذلك دلالتين:

الأولى: الاتحاد في الجوهر والاختلاف في المظهر بين علي عليه السلام والقرآن، فلا يفارق أحدهما الآخر، فلو تكلم علي عليه السلام كان قرآناً، وما يقوله القرآن هو قول علي عليه السلام.

الثانية: أنّ هذا التلاحم بينهما لا يفترق في زمان أو مكان، ولا في دنيا ولا في آخرة، فمن أراد فهم القرآن ومعرفة مقاصده ومعانيه فليس له إلّا

---

(١) انظر سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٢) انظر سورة الواقعة: الآيتان ٧٨-٧٩.

(٣) تفسير الصافي: ج١، ص١؛ مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: ج١، ص٢٩٢؛ ح٢١٣.

(٤) كنز العمال: ج١١، ص٦٠٣، ح٣٢٩١٢؛ وانظر المستدرك على الصحيحين: ج٣ ص١٢٤.

علي عليه السلام وبيته وذريته عليهم السلام، وهذا ما نص عليه حديث الثقلين المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله بطرق الفريقين: «إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عَلّي الحوض وإنّكم لن تضلوا ما اتبعتموهما واستمسكتم بهما»[١].

وكان بيته معهداً لتفسير القرآن، فقد ورد أنّ نساء المدينة كنّ يحضرن عند الصدّيقة الطاهرة سلام الله عليها في بيتها لتفسّر لهنّ القرآن[٢]، كما ورد ذلك عن الصديقة الصغرى زينب عليها السلام في الكوفة، فقد ورد أنّ جمعاً من رجال الكوفة قالوا لأمير المؤمنين عليه السلام إئذن لنسائنا أن يأتين إلى ابنتك العقيلة ليتعلمن منها معالم الدين وتفسير القرآن، وذات يوم دخل الإمام عليه السلام الدار فسمعها تتحدث في درسها عن معاني الحروف المقطعة في أوائل السور، وكانت تفسِّر (كهيعص)[٣]، وطلب أهل الكوفة من أمير المؤمنين عليه السلام ذلك شاهد على أنّ العقيلة كانت معروفة بعلمها بالقرآن وتفسيره، وأنّ درسها كان قائماً في البيت، وأرادوا لنسائهم الالتحاق به، والاستئذان في الحضور عندها دليل على قيام الدرس لا تأسيسه.

---

(١) الأمالي (للطوسي): ص٥٤٨؛ وانظر مسند أحمد: ج٣، ص١٤-١٧؛ المناقب (لابن المغازلي): ٢٣٦-٢٣٤؛ الأمالي (للمفيد): ص١٣٥؛ كشف اليقين: ص٣٣٥.

(٢) مأساة الزهراء: ج١، ص٥٣.

(٣) الخصائص الزينبية: ص٦٨؛ زينب الكبرى (للنقدي): ص٣٦؛ رياحين الشريعة (للمحلاتي): ج٣، ص٥٧.

وبعد أمير المؤمنين عليه السلام وذريته يأتي ابن عباس حبر الأمة والمفسِّر فيها والذي لقبه رسول الله صلى الله عليه وآله بفارس القرآن كما في بعض الأخبار(١) -وقال فيه بأنه لن يموت حتى يؤتى علماً(٢)، كما ضمّه ومسح على صدره وقال: ﴿اللهم فقهه في الدين وعلّمه التأويل﴾(٣) وقد اجتمعت الأمة على علو كعبه في العلم والتفسير، ووصفه بالحبر أي العالم، والإضافة إلى الأمة تفيد أنّه أعلمها(٤) بعد المعصوم- وهو تلميذ علي عليه السلام.

وطبقات أهل التفسير -عند العامة- تنتهي إليه، فقد ورد اشتهار عشرة من الصحابة بالتفسير عدّوا منهم أمير المؤمنين عليه السلام وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود، وهم أكثر من روي عنهم، وقالوا: أكثر من روي عنه التفسير من الخلفاء علي بن أبي طالب عليه السلام، وبعده عبد الله بن مسعود، المتوفى بالمدينة سنة (٣٢) للهجرة، وعبد الله بن عباس المتوفى بالطائف سنة (٦٨) للهجرة، وقد رويت عنه في التفسير روايات لا تحصى كثرة، واعتمدت عنه أربعة طرق في الرواية، وأعلم التابعين في التفسير كانوا تلاميذه، أشهرهم مجاهد بن جبر المتوفى سنة ١٠٣ هجرية، وقد قال: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة، واعتمد تفسيره الشافعي والبخاري.

---

(١) البحار: ج٢٢، ص٣٤٣؛ سفينة البحار: ج٦، ص١١٩.
(٢) البحار: ج١٨، ص١٢٦؛ سفينة البحار: ج٦، ص١١٩.
(٣) اختيار معرفة الرجال: ج١، ص٢٧٣؛ الكامل: ج٤، ص٢٥٣؛ السيدة الجليلة: ج٣، ص٣٤٩.
(٤) سفينة البحار: ج٦، ص١٢٩.

وسعيد بن جبير المتوفى سنة ٩٤ هجرية، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة سنة ١٠٥ هجرية، وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى بمكة سنة ١٠٦ هجرية وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى سنة ١١٤ هجرية[١]، ومن جاء بعدهم أخذ عنهم.

وقد ورد في وصف علم ابن عباس وطول باعه في الفقه والتفسير ومختلف العلوم من الروايات وأقوال المعاصرين له ما يبهر العقول.

ففي الطبقات الكبرى عن ابن عتبة: كان ابن عباس يجلس يوماً ما يذكر فيه إلّا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، وما رأيت عالماً قط جلس إليه إلّا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلّا وجد عنده علماً[٢]، وقريب منه ورد عن عمرو بن دينار ومسروق[٣]، وكان أصحابه يسمّونه البحر، ويسمّونه الحبر، ووصفه عمر بالغوّاص[٤]، ووصفته عائشة بأنّه الأعلم في المناسك[٥]، وكان داره مدرسة يحضره طالبو الفقه والمعرفة[٦]، وقال طاوس: أدركت نحو خمسمائة من أصحاب النبي ﷺ إذا ذاكروا ابن عباس فخالفوه لم يزل يقررهم حتى ينتهوا إلى قوله[٧].

---

(١) انظر تفسير المراغي: ج١، ص٦-٧، (بتصرف).
(٢) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٦٨؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٣) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٤) البيان والتبيين: ج٢، ص١٤٢؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٩.
(٥) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٦٩.
(٦) الاستيعاب: ج٣، ص٩٣٧؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٩٠.
(٧) الاستيعاب: ج٣، ص٩٣٥؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٧.

ولما بلغ جابر بن عبد الله الأنصاري نعي ابن عباس صفق بإحدى يديه على الأخرى وقال: مات أعلم الناس وأحلم الناس، ولقد أصيبت به هذه الأمة مصيبة لا ترتق[1]، وصلّى عليه محمد بن الحنفية وقال: اليوم مات رباني هذه الأمة[2].

وقال: الحسن البصري: كان ابن عباس أوّل من عرف بالبصرة. صعد المنبر فقرأ البقرة وآل عمران ففسّرهما حرفاً حرفاً[3]، وفي تفسير الثعلبي أنّ ابن عباس كان يقرأ (حم عسق)[4] وكان يقول: كان عليعليه‌السلام يعلم علم الفتن بهذين اللفظين[5].

وعن ابن مسعود أن النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله دعا لابن عباس أن يعلمه الفقه وتأويل القرآن[6]، وكان علمه من عليعليه‌السلام. يقول فيه: (عليعليه‌السلام علمني، وكان علمه من النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله، والنبي علّمه الله تعالى من فوق عرشه، فعلم النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله من الله، وعلم عليعليه‌السلام من النبيصلى‌الله‌عليه‌وآله، وعلم أصحاب محمدصلى‌الله‌عليه‌وآله كلهم في علم عليعليه‌السلام كالقطرة الواحدة في سبعة أبحر)[7].

---

(١) الطبقات الكبرى: ج٢، ص٣٧٢.

(٢) ذخائر العقبى: ص٢٣٧؛ المستدرك: ج٣، ص٥٣٥.

(٣) الفائق في غريب الحديث: ج١، ص١٤٥؛ البداية والنهاية: ج٨، ص٣٣٢؛ التبيان والتبيين: ج١، ص٦٢.

(٤) وذكر عن ابن عباس إنه كان يقرأ (حم سق) بغير عين، وقال: إن السين فيها كل فرقة كائنة، وإن القاف كل جماعة كائنة، ويقول: إن علياً أنما كان يعلم الفتن فيهما.

(٥) تفسير الثعلبي: ج٨، ص٣٠٢؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٨٤.

(٦) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٧٣.

(٧) الأمالي (للمفيد): ص٢٣٦؛ قاموس الرجال: ج٦، ص٤٤٨.

وما ينقل من علمه وتفسيره واحتجاجاته وإفحامه لعمر وعثمان ومعاوية وعائشة وابن الزبير وباقي مخالفي علي عليه السلام وتحقيقه للمذهب الحق ما لا تحصيه هذه الدراسة، ولذا قال بعض المحققين: لو قيل إنّ هذا الرجل أفضل رجال الإسلام بعد النبي والأئمة وحمزة وجعفر عليه السلام كان في محله[1].

فأهل البيت عليهم السلام هم الأسبق زماناً في بيان معاني القرآن، وهم الأرقى فهماً وعلماً في مختلف الأعصار.

مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام في التفسير

يعرف هذا من الشواهد المتضافرة:

أحدها: أن جميع علماء الأمة من مختلف مدارسها ومشاربها كانوا يرجعون إليهم عليهم السلام في فهم معاني القرآن وبيان حدوده وأحكامه، وقد قال علي عليه السلام: «لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً في تفسير فاتحة الكتاب»[2] وهذا من منفرداته التي لا يضاهيه فيها أحد من الناس كانفراده بعلم طرق السماوات والأرض.

ثانيها: في مواطن الاحتجاج ومحاورة الخصوم الذين يسعون لإفحامهم كانوا يستدلون بدلائل القرآن والسنّة والعقل لا بالآراء والظنون التي

---

(١) قاموس الرجال: ج٦، ص٤٩٠-٤٩١.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ج١، ص٣٢٢؛ البحار: ج٤٠، ص١٥٧، ح٥٤؛ الأصول الأصيلة: ص٣٠٧.

تعمل بها المدارس الأخرى، لذا كانوا يبهرون خصومهم ويفحمونهم فلا يملكون إلّا الإقرار بقصورهم وتصاغرهم دون علومهم ومعارفهم.

ثالثها: تفردهم بآراء تطابق القرآن والعقل بما يقنع الأطراف المقابلة مهما بلغوا من الخصومة والندّية في الجدل، ويدعوهم إلى الإقرار بصواب ما سمعوه، وأنّه بالنسبة لهم جديد كأنهم لم يسمعوه أو يقرؤوه من قبل، وكان ذلك يحصل في كثير من الأحيان مع الملوك والسلاطين الذين يجهدون لإفحامهم والانتقاص من مكانتهم العلمية والروحية، وإليك نماذج منها عن الباقر والصادق والرضا عليهم السلام:

الأول: ما رواه أبو حمزة الثمالي عن أبي الربيع قال: حججت مع أبي جعفر عليه السلام في السنّة التي حج فيها هشام بن عبد الملك، وكان معه نافع مولى عمر بن الخطاب، فنظر نافع إلى أبي جعفر عليه السلام في ركن البيت وقد اجتمع عليه الخلق فقال: يا أمير! من هذا الذي قد تكافأ عليه الناس؟ فقال: هذا محمد بن علي بن الحسين عليهما السلام.

قال: لآتينّه ولأسألنّه عن مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبي أو وصي نبي. قال: فاذهب إليه لعلك تخجله.

فجاء نافع حتى اتكأ على الناس وأشرف على أبي جعفر عليه السلام فقال:

يا محمد بن علي! إنّي قرأت التوراة والانجيل والزبور والفرقان وقد عرفت حلالها وحرامها، وقد جئت أسألك عن مسائل لا يجيبني فيها إلّا نبي أو وصي نبي أو ابن نبي فرفع أبو جعفر عليه السلام رأسه فقال: ﴿سل عما بدا لك﴾.

قال: أخبرني كم بين عيسى ومحمد من سنة؟ قال: «أجيبك بقولك أم بقولي؟» قال: أجبني بالقولين! قال: «أما بقولي فخمسمائة سنة، وأما بقولك فستمائة سنة».

قال: فأخبرني عن قول الله عز وجل: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾(١) من الذي سأل محمداً وكان بينه وبين عيسى خمسمائة سنة؟ قال: «فتلا أبو جعفر عليه السلام هذه الآية: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا**﴾(٢) كان من الآيات التي أراها محمداً صلى الله عليه وآله حيث أسرى به إلى بيت المقدس أنه حشر الله الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين، ثم أمر جبرئيل عليه السلام فأذن شفعاً وأقام شفعاً، وقال في أذانه (حي على خير العمل) ثم تقدم محمد صلى الله عليه وآله فصلّى بالقوم، فلما انصرف قال الله عز وجل: ﴿**وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ**﴾(٣) فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: علامَ تشهدون؟ وما كنتم تعبدون؟ قالوا: نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له، وأنّك رسول الله أخذت على ذلك عهودنا ومواثيقنا».

فقال: صدقت يا أبا جعفر.. ثم سأله عن مسائل أخرى أجابه عليها، وكلها أقر له بها نافع، ثم قال بقيت مسألة واحدة. قال أبو جعفر عليه السلام:

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ١.

(٣) سورة الزخرف: الآية ٤٥.

﴿وما هي؟﴾ قال: فأخبرني متى كان الله؟ قال: ﴿ويلك فأخبرني متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟ سبحانه من لم يزل ولا يزال فرداً صمداً لم يتخذ صاحبة ولا ولدا﴾.

ثم أتى هشام بن عبد الملك فقال: ما صنعت؟ قال: دعني من كلامك هو والله أعلم الناس حقاً، وهو ابن رسول الله حقاً(١).

الثاني: ما رواه هشام بن الحكم قال: اجتمع ابن أبي العوجاء وأبو شاكر الديصاني وعبد الملك البصري وابن المقفع عند بيت الله الحرام يستهزئون بالحاج، ويطعنون على القرآن، فقال ابن أبي العوجاء: تعالوا ننقض كل واحد منّا ربع القرآن، وميعادنا من قابل في هذا الموضع نجتمع فيه وقد نقضنا القرآن كله، فإنّه في نقض القرآن إبطال نبوة محمدﷺ، وفي إبطال نبوته إبطال الإسلام وإثبات ما نحن فيه، فاتفقوا على ذلك وافترقوا، فلما كان من قابل اجتمعوا عند بيت الله الحرام، فقال ابن أبي العوجاء: أما أنا فمفكر منذ افترقنا في هذه الآية: ﴿**فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيًّا**﴾(٢) فما أقدر أن أضم إليها في فصاحتها وجمع معانيها شيئاً، فشغلتني هذه الآية عن التفكر فيما سواها.

فقال عبد الملك: وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ**

---

(١) انظر الكافي: ج٨، ص١٢٠، ح٩٣؛ الاحتجاج: ج٢، ص١٧٧.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٠.

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(١) ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال أبو شاكر: وأنا منذ فارقتكم مفكّر في هذه الآية: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾**(٢) لم أقدر على الإتيان بمثلها.

فقال ابن المقفع: يا قوم إن هذا القرآن ليس من جنس كلام البشر، وأنا منذ فارقتكم مفكر في هذه الآية: **﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾**(٣) لم أبلغ المعرفة بها، ولم أقدر على الإتيان بمثلها.

قال هشام بن الحكم: فبينما هم في ذلك، إذ مرّ بهم جعفر بن محمد الصادق عليه السلام فقال: **﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾**(٤) فنظر القوم بعضهم إلى بعض وقالوا: لئن كان للإسلام حقيقة لما انتهت أمر وصية محمد صلى الله عليه وآله إلّا إلى جعفر بن محمد، والله ما رأيناه قط إلّا هبناه واقشعرت جلودنا لهيبته، ثم تفرّقوا مقرّين بالعجز(٥).

الثالث: ما روي أنّ المأمون كان يحب في الباطن سقطات أبي الحسن الرضا عليه السلام وأن يغلبه في الاحتجاج ويظهر عليه غيره، فاجتمع يوماً عنده الفقهاء والمتكلمون فدسّ إليهم أن ناظروه في الإمامة!

---

(١) سورة الحج: الآية ٧٣.
(٢) سورة الأنبياء: الآية ٢٢.
(٣) سورة هود: الآية ٤٤.
(٤) سورة الإسراء: الآية ٨٨.
(٥) الاحتجاج: ج٢، ص٣٠٦؛ الخرائج: ج٢، ص٧١٠؛ البحار: ج١٧، ص٢١٣.

فقال لهم الرضاعليه السلام: ﴿اقتصروا على واحد منكم يلزمكم ما يلزمه﴾ فرضوا برجل يعرف بيحيى بن الضحّاك السمرقندي، ولم يكن بخراسان مثله، فقال الرضاعليه السلام: ﴿يا يحيى! أخبرني عمن صدق كاذباً على نفسه، أو كذب صادقاً على نفسه، أيكون محقاً مصيباً أم مبطلاً مخطياً؟﴾ فسكت يحيى فقال له المأمون: أجبه! فقال يعفيني الأمير من جوابه.، فقال المأمون: يا أبا الحسن! عرّفنا الغرض من المسألة؟ فقالعليه السلام: ﴿لابد ليحيى من أن يخبرني عن أئمته، أفهم كذبوا على أنفسهم أو صدقوا؟ فإن زعم أنّهم كذبوا فلا إمامة لكذّاب، وإن زعم أنهم صدقوا فقد قال أولهم: أقيلوني وليتكم ولست بخيركم، وقال تاليه: كانت بيعة أبي بكر فلتة وقى الله شرّها، فمن عاد لمثلها فاقتلوه، فوالله ما رضي لمن فعل مثل فعله إلّا القتل، فمن لم يكن بخير الناس والخيرية لا تقع إلّا بنعوت. منها: العلم، ومنها: الجهاد، ومنها: سائر الفضائل وليست فيه، ومن كانت بيعته فلتة يجب القتل على فعل مثلها كيف يُقبل عهده إلى غيره وهذه صورته؟

ثم يقول على المنبر: إنّ لي شيطاناً يعتريني، فإذا مال بي فقوّموني، وإن أخطأت فأرشدوني، فليسوا أئمة إن صدقوا وإن كذبوا فما عند يحيى شيء من هذا﴾.

فعجب المأمون من كلامهعليه السلام وقال: يا أبا الحسن! ما في الأرض من يحسن هذا سواك![1]

---

(١) عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج٢، ص٢٣١، ح١؛ الاحتجاج: ج٢، ص٤٥٥.

المبحث الثاني عشر: أثر الروايات في التفسير

إنّ وصف النبي والعترة عليهم السلام بالمفسِّرين للقرآن لا يخلو من تسامح بيّن؛ لأنهم فوق التفسير وأقوال المفسرين، فهم مظاهر علم الله ووعاء مشيئته وموضع سرّه ومحل أمره ونهيه، وقد أدبهم الله تعالى بآدابه، وفوّض إليهم دينه، فهم يمثلون إرادة الله سبحانه وحكمته، ويكشفون عنها بواسطة الألفاظ، لا أنّهم يكتشفونها من الألفاظ، وهم خلفاء الله وحججه لا علماء ومفسرون بالمعنى الاصطلاحي للتفسير.

محاذير الاستغناء عن الرواية

لا غنى عن الرواية الواردة عنهم في فهم القرآن ومعرفة مقاصده، والذي يستغني عن الرواية يبتلى بمحاذير يتعذر التهاون فيها:

الأول: مخالفة القرآن؛ لأنّه أمر بالأخذ بما جاء به النبي صلى الله عليه وآله، والسؤال عن أهل الذكر في كل ما يراد معرفته[١].

الثاني: مخالفة السنّة القطعية التي نصت على أنّ القرآن لا يمكن فهمه ومعرفة تفصيله وتخصيصه وناسخه ومنسوخه وتفسيره وتأويله إلّا بالرجوع إلى المعصوم عليه السلام.

الثالث: مخالفة العقل وطريقة العقلاء؛ لأنّهما قاضيان بلزوم الرجوع إلى العالم وذي الاختصاص في كل علم وفن، وقد اتفقت كلمة المسلمين على أنّهم عليهم السلام أعلم الناس بالله وبكتابه ودينه، فلا يعقل أن يفهم كلام الله

---

(١) انظر سورة النحل: الآية ٤٣؛ سورة الأنبياء: الآية ٧.

وبلوغ مقاصده ومراميه دون اللجوء إليهم، فإنّ العلوم الطبية -مثلاً - لا يفهمها إلّا الطبيب، والعلوم الفلكية لا يدرك حقائقها وآثارها إلّا الفلكي، وهكذا سائر العلوم التي تتعلق بالأعيان المادية، فكيف للإنسان العادي أن يدرك العلوم الغيبية بالاعتماد على اللغة فقط أو الأفهام القاصرة للبشر دون الرجوع إلى العلماء المتصلين بالغيب المطلعين على أحواله وأسراره؟

ومن هنا نلاحظ شدة الاضطراب والاختلاف على مستوى التناقض أحياناً بين المفسرين الذين لا يلجؤون إلى أهل البيت عليهم السلام في التفسير، وهذه تفاسير العامة شاهدة على هذه الحقيقة، فما أكثر الخلل الواقع في بيان معاني المفردات والمقاصد القرآنية، والكثير منها لا دليل عليها سوى الظنون والآراء الاستحسانية، ولا أظن أنّ الباحث والطالب يخفى عليه ذلك بأدنى مراجعة إلى تفاسيرهم. انظر من باب المثال إلى ما قالوه في قوله تعالى: ﴿وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾[1].

وهذه نتيجة لازمة مترتبة على تخليهم عن أخذ العلم ومعارف القرآن من آل محمد عليهم السلام، فإنّهم بهذا قطعوا أنفسهم عن القرآن وعن السنّة الصحيحة معاً، والروايات التي رووها عن النبي صلى الله عليه وآله في ذلك الكثير منها إما مختل السند أو الدلالة.

والعجب أنّهم يقرون بأعلمية أمير المؤمنين عليه السلام على سائر الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وآله؛ لتواتر النصوص وشهادة الواقع به، ورغم ذلك يعرضون

---

(١) سورة الفجر: الآيتان ١- ٢؛ وانظر نفحات الرحمن: ج٦، ص٤٨٥- ٤٨٦.

عنها في العمل، وقد تحدثعليه السلام عن علو كعبه في علوم القرآن وتفسيره، وفيه تجتمع كل شرائط الحجية التي قرروها في علم الأصول؛ لكونه ربيب النبيصلى الله عليه وآله الذي شهد له بالفقاهة والعلم والقضاء، ولم يشهد لغيره كما شهد له، وفي عين الحال هو من الطبقة الأولى من الصحابة ومن أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وتضافرت رواياتهم في وصفه في القرآن بالأوصاف العالية، وأنّه أول مفسر ومدون له لكنهم يميلون عنه بالرغم من ورود النهي عن النبيصلى الله عليه وآله عن ذلك، فعن ابن عباس قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: «إنّ الله أنزل عليَّ القرآن وهو الذي من خالفه ضل، ومن ابتغى علمه عند غير علي هلك»[١].

وقد ورد بطرق الفريقين عن سليم بن قيس الهلالي قال: سمعت أمير المؤمنينعليه السلام يقول: «ما نزلت آية على رسول اللهصلى الله عليه وآله إلّا أقرأنيها وأملاها عليَّ فأكتبها بخطي، وعلّمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها، ودعا الله لي أن يعلمني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليَّ فكتبته منذ دعا لي بما دعا، وما ترك شيئاً علّمه الله من حلال ولا حرام ولا أمر ولا نهي كان أو يكون من طاعة أو معصية إلّا علّمنيه وحفظته، فلم أنس منه حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدري ودعا الله أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكمة ونوراً،

---

(١) الأمالي (للصدوق): ص١٢١، ح١١؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٨٦، ح٣٣٥٦٠.

ولم أنس شيئاً، ولم يفتني شيء لم أكتبه﴾ ثم أشار النبيﷺ إلى الأوصياء من بعده وهم عترته الطاهرة، ووصفهم بأنّهم مع القرآن والقرآن معهم لا يفارقهم ولا يفارقونه(١).

وهذه الأوصاف المذكورة تدل على أنّهعليه السلام عارف بكل دلائل القرآن ومقاصده، ومعزز بدعاء النبيﷺ له -الذي لا يرد الله سبحانه له دعاء- مرتين مع وضع يده على صدره، فهو مسدد بالنور الإلهي لا ينسى ولا يخطأ ولا يميل عن الحق والواقع، وهذه خصائص لم يتصف بها أحد غيره من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، فكيف يؤخذ القرآن وتفسيره من غيره؟! وما يقال فيهعليه السلام يقال في الأوصياء من بعده، والقرينة التأريخية شاهدة على هذه الحقيقة، فإنّ كل المفسرين أخذوا علمهم واكتسبوه منهم. أما همعليهم السلام فلم يأخذوه إلّا عن رسول اللهﷺ، وقد أقر القريب والبعيد أنهمعليهم السلام لم يتعلموا عند أحد، ولم يحضروا في درس أحد، ولم يحتاجوا إلى أحد في بيان آية أو شرح مفردة، بل كل العلماء والمفسرين والقراء كانوا يقصدونهم ويأخذون منهم، وكانوا ينفردون بآراء تبهر العقول وتلزم أهل العلم والمعرفة نورانيتها وتجلّي الحق فيها.

فقد روى يعقوب بن جعفر قال: كنت مع أبي الحسنعليه السلام بمكة فقال له رجل: إنّك لتفسِّر من كتاب الله ما لم يُسمع؟ فقال: ﴿علينا نزل قبل

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٢٥، ح٢؛ شواهد التنزيل: ج١، ص٣٥، ح٤١؛ تفسير البرهان: ج١، ص٤٠، ح١٤.

الناس ولنا فُسِّر قبل أن يفسَّر في الناس، فنحن نعلم حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه وسفريّه وحضريّه، وفي أي ليلة نزلت كم من آية، وفيمن نزلت، فنحن حكماء الله في أرضه، وشهداؤه على خلقه»[١].

وفي رواية عبد الأعلى مولى آل سام قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «والله إنّي لأعلم كتاب الله من أوله إلى آخره كأنّه في كفي فيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر ما كان وخبر ما هو كائن. قال الله فيه تبيان كل شيء»[٢].

وتواتر هذا المضمون بل فاق التواتر في الكثير من الروايات، ومن ذلك نلفت الأنظار إلى ثلاث حقائق:

الحقيقة الأولى: لا توجد طبقات مفسِّرين

لأن المفسِّرين ليسوا إلّا محمداً وآل محمد عليهم السلام، فهم العالمون بتفسير القرآن وتأويله ومحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه، وقد شهد بذلك القرآن نفسه؛ إذ قال تعالى: **﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾**[٣] وقال عزّ وجل: **﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾**[٤] فآيات القرآن بينّة في صدورهم، ظاهرة لهم، ولم يشهد القرآن

---

(١) بصائر الدرجات: ص١٩٣، ح٤؛ وانظر البحار: ج٢٣، ص١٩٦، ح٢٦.

(٢) بصائر الدرجات: ص١٩١، ح٧.

(٣) سورة فاطر: الآية ٣٢.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

لأحد بأنه يعلم الكتاب إلّا لعلي عليه السلام؛ إذ قال تعالى: ﴿**قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ**﴾[١] ثم شهد أنّ تأويله لا يعلمه إلّا الراسخون في العلم[٢]، وليسوا إلّا هم عليهم السلام بلا منازع، فضلاً عن السنّة القطعية وتضافر الشواهد التأريخية واتفاق أهل العلم.

وأما غيرهم فهم علماء بالتفسير، فإن أخذوا منهم كانوا ناقلين عنهم، وإن أخذوا من غيرهم فلا اعتبار له، بل منهي عنه، وعلى هذا ينبغي التمييز بين المفسر وبين العالم بالتفسير كما هو الحال في سائر العلوم والمعارف.

فإنّ الفقيه هو صاحب ملكة بها يستنبط الحكم من الأدلة المعتبرة، ويفقه الدين من منابعه الأصلية أما العالم بالفقه فليس بالضرورة أن يكون فقيهاً مجتهداً، بل مطلعاً على استنباطات الفقهاء.

وكذا الطبيب والعالم بالطب، على أنّ توصيف المعصومين عليهم السلام بالمفسرين بالمعنى المصطلح للتفسير فيه تسامح ظاهر سنشير إلى سببه.

ودراسة الطبقات تكون للعالمين والمؤلفين بالتفسير وليست للمفسرين؛ لأن التفسير ليس له إلّا طبقة واحدة وهي الأسبق زماناً وعلماً، وهم محمد وآل محمد عليهم السلام.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.

(٢) انظر سورة آل عمران: الآية ٧.

الحقيقة الثانية: محاذير الروايات التفسيرية

إن الأحاديث الواردة عنهم عليهم السلام في بيان معاني القرآن مبتلاة بثلاثة محاذير:

الأول: الإشكال السندي في طائفة ليست قليلة منها.

الثاني: النقص في المعتبر منها؛ لعدم توفر ما يستوعب كل الآيات والسور بحسب ما توفر لدينا من المصادر.

الثالث: التعارض الدلالي، فإنّ بعضها يبيّن المعنى على خلاف المعنى الظاهر من القرآن، والقاعدة تقتضي الإعراض عن الرواية؛ لما تواتر عنهم عليهم السلام بأن ما خالف كتاب الله لم يقولوه، ويجب الإعراض عنه[1].

لكن المحذور الأول محلول عندنا؛ لأن كتبنا الروائية نقحت وجمعت الروايات المعتبرة في الغالب، ولا يوجد فيها ما لا يمكن اعتماده إلّا النادر جداً، لاسيما على مسلكنا العام في اعتماد الروايات القائم على مراعاة ثلاثة أمور في العمل بالرواية:

الأول: قوة المتن.

الثاني: صحة المضمون.

الثالث: وثوق السند.

---

(١) المحاسن: ج١، ص٢٢٦، ح١٥٠؛ الكافي: ج١، ص٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٤٤٩، ح٦٠٨؛ الحدائق: ج٤، ص٢٨١؛ مصباح الفقاهة: ج٣، ص٤٥٣.

والأول يمكن للعارف باللغة وأساليب الكلام والخبير بنورانية كلامهم عليهم السلام معرفته، والثاني يعرف من تطبيق المضمون على المضامين الصحيحة الواردة في الكتاب والسنّة القطعية، والثالث يعرف من القرائن المحتفة كوثاقة الكتاب ووثاقة الكاتب وتبنيه القولي أو العملي لما ينقله ويرويه، إلى غير ذلك مما نقحناه وحققناه في كتابنا (فقه الحديث)[١]، وعليه فالأصل هو اعتبار الروايات الواردة في كتبنا المعروفة المعتمدة.

وأما المحذور الثاني والثالث فيحلان بملاحظة الرواية في كل آية يراد فهم معناها، وهي لا تخلو من حالتين:

الأولى: أن لا توجد رواية واصلة تبيِّن معنى الآية، فينظر إلى الآية نفسها، فإن كانت ظاهرة في معنى أخذ به؛ لحجية الظهور كما في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ**﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿**فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ**﴾[٣]، وإن كانت مجملة أو متشابهة أرجعت إلى الآيات المحكمة لرفع إجمالها وتشابهها على ما تقتضيه القاعدة كما في قوله تعالى: ﴿**وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**﴾[٤] الظاهرة في المجيء الحسي المنظور بالأبصار، وقوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[٥] فإنّ الثانية تفسِّر الأولى وترفع تشابهها.

---

(١) فقه الحديث: ج٢، ص٢٤١، ح٣٧٧.

(٢) سورة الأعراف: الآية ٨٥.

(٣) سورة البقرة: الآية ٢٧٩.

(٤) سورة الفجر: الآية ٢٢.

(٥) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

الثانية: أن توجد رواية، وحينئذ ينظر في دلالتها، فإن كانت مجملة وهو نادر الوقوع فلا يؤخذ بها إلّا بعد رفع الإجمال، وإن كانت ظاهرة وهو الغالب فتكون على أنحاء:

أحدها: أن تكون واردة لبيان المعنى الخاص الحصري فتنفي ما عداه، ويؤخذ بها، وتحمل دلالة الآية عليها وإن كانت في ظاهرها عامة؛ لضرورة حمل العام على الخاص، وكون الخاص قرينة على عدم إرادة العموم من العام، ومن أمثلة ذلك آية التصدق بالخاتم وآية التطهير وآية إكمال الدين ونحوها، فإنّها واردة لبيان المعنى الحصري المقصود فلا تشمل غيره.

فآية إكمال الدين[1] مثلاً تضمنت الدلالة على أنّ كمال الدين وارتضاءه للناس متوقف على ولاية أمير المؤمنين عليه السلام، وتضافرت الروايات والشواهد التأريخية على نزولها في يوم تنصيب النبي صلى الله عليه وآله لأمير المؤمنين عليه السلام خليفة على الناس في يوم الغدير وأخذ بيعتهم له، وكل تفسير آخر ينفي ذلك يعد باطلاً، لاسيّما وأنّ مفردة (اليوم) وإكمال الدين الذي يشهد لعدم نزول شيء بعدها تمنع الشمول لغيره[2]، وقد أجمع المسلمون أنّ آخر ما فعله النبي صلى الله عليه وآله في حجة الوداع -وبعدها في مدة وجيزة رحل عن الدنيا- هي أخذ البيعة لأمير المؤمنين عليه السلام.

---

(١) انظر سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٧٣-٢٧٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٦، ص٤٣٦-٤٣٧؛ روح المعاني: ج٦، ص٣١٩-٣٢٠.

كما روى ذلك جمع من الصحابة منهم أبو سعيد الخدري[١]، فإذا تعارضت الآية مع الرواية الواردة لبيان المعنى الخاص يؤخذ بظهور الرواية ولا يؤخذ بظهور الآية؛ لأن الرواية كاشفة عن المراد الحقيقي للآية فلا يكون للآية ظهور حقيقي إلّا بعد مراجعة الرواية.

ثانيها: أن تكون واردة لبيان المصداق الظاهر أو الأظهر، فلا تنفي ما عداه، فيؤخذ بها كما يؤخذ بظهور الآية كما في قوله تعالى: ﴿**وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[٢] فإنّ سياقها ومنطوقها يفيدان العموم، وأن المقصود بالأذن الواعية هي كل أذن تسمع بالأحداث التي فيها عظة وعبرة كغرق الأرض ونجاة أهل الإيمان بسفينة نوح فتتعظ منها وتتعلم، وتتيقن بأن قدرة الله وحكمته حاكمتان في الوجود، فلا يفلت من عقابه مسيء، ولا يتضرر من فعله محسن؛ إذ قال سبحانه قبلها: ﴿**إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ**﴾[٣].

وورد بطرق الفريقين أن النبي صلى الله عليه وآله قال الأذن الواعية هو أمير المؤمنين عليه السلام.

فقد روى الطبري بإسناده عن مكحول أنّه لما نزلت هذه الآية قال النبي صلى الله عليه وآله: «اللهم اجعلها أُذن علي»[٤] وكذا ورد في تفسير الرازي والدر

(١) انظر مجمع البيان: ج٣، ص٢٤٦؛ روح المعاني: ج٦، ص٣٢٠.

(٢) سورة الحاقة: الآية ١٢.

(٣) سورة الحاقة: الآيتان ١١- ١٢.

(٤) تفسير الطبري: ج٢٩، ص٣٥.

المنثور والكشاف وغيرها[١]، وفي تفسير روح البيان أنه صلى الله عليه وآله أخذ بأذن علي بن أبي طالب وقال: ﴿هي هذه﴾[٢] والروايات بهذا المضمون عديدة[٣].

إلّا أن القاعدة تقتضي حمل الروايات على بيان المصداق الأجلى والأكمل فلا تمنع من شمولها لكل أُذن صاغية واعية تتعلم من الأحداث وتعتبر، وهو ما يقضي به العقل، ويتوافق مع روح الآيات والروايات ومبادئ الدين وضوابطه.

ثالثها: أن تكون واردة ولا يعلم بأنها في مقام بيان المعنى المراد أم الإشارة إلى المصداق، فيدور الأمر بين الأخذ بالرواية أم بالآية كما في الشجرة الملعونة في القرآن، إذ قال سبحانه: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ**﴾[٤] وقد تضافر في الأخبار أن المقصود بالشجرة بنو أمية، فإذا شك في أن هذا هو المعنى الحصري أم يراد به المصداق؟ فتشمل كل شجرة خبيثة، كما ذهب البعض إلى تفسير الشجرة بشجرة الزقوم استناداً إلى بعض القرائن[٥]، فالحق هو الأول لسببين:

الأول: أنّ الأصل في الروايات الواردة أنّها لبيان معاني القرآن لا بيان

---

(١) تفسير الرازي: ج٣٠، ص١٠٧؛ الدر المنثور: ج٨، ص٢٦٧؛ الكشاف: ج٤، ص٦٠٠.

(٢) روح البيان: ج١٠، ص١٣٦.

(٣) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٠٧.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٦٠.

(٥) انظر مجمع البيان: ج٦، ص٢٦٥-٢٦٦؛ تفسير كنز الدقائق: ج٧، ص٤٣٨-٤٤٢.

مصاديقه، فحمل الآية على المصداق يفتقر إلى دليل، فإذا لم يكن حمل على الأصل، ولا يقال أنّ الآية ظاهرة في العموم؛ لأنّ الرواية تكون قرينة منفصلة تكشف عن عدم إرادة العموم كما حقق في الأصول(١)، لاسيّما مع ملاحظة الأدلة المتضافرة الدالة على لزوم اتباع السنّة فيما وردت وعدم مخالفتها.

الثاني: أن الأخذ بمدلول الرواية هو القدر المتيقن الذي يطمأن بصحته، أما غيره فمشكوك، وإذا دار أمر المفسِّر بين الأخذ بالموثوق والمشكوك فإن الموثوق هو الراجح.

رابعها: أن تكون واردة لبيان معنى مخالف للقرآن بنحو الضد والنقيض لا التخصيص والتقييد، أو بيان المجمل ورفع التشابه، فيعرض عن الرواية ويعلم بعدم صدورها عنهم عليهم السلام، أو صدورها على جهة التقية، وقد ذكروا عليهم السلام أن كل حديث يخالف كتاب الله لم يقولوه، وأمروا بالإعراض عنه(٢).

كما في قوله تعالى: ﴿**عَبَسَ وَتَوَلَّى**﴾ فقد ذكر جمع من العامة أن الآية نزلت في رسول الله صلى الله عليه وآله في قضية عبد الله بن أم مكتوم حينما دخل عليه طالباً منه أن يعلمه -وهو صلى الله عليه وآله يحدث جمعاً من عظماء المشركين- فأعرض عنه النبي صلى الله عليه وآله، وأقبل على المشركين رغبة في جذبهم إلى الإسلام، فنزلت الآية تعاتبه في ذلك، ورووا بذلك بعض الأخبار.

---

(١) انظر زبدة الأصول: ج٢، ص٣٠٩؛ المحكم في أصول الفقه: ج٢، ص١٢٤.

(٢) المحاسن: ج١، ص٢٢٦، ح١٥٠؛ الكافي: ج١، ص٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٤٤٩، ح٦٠٨.

وأن النبي صلى الله عليه وآله كان يحسن إلى عبد الله بعد ذلك، وكان إذا رآه يبسط له رداءه ويقول: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربي»[(١)] وقد أجمعوا على ذلك، وبعضهم لما وجدوا أن هذا يتنافى مع سمو أخلاق النبي صلى الله عليه وآله التي شهد الباري عز وجل له بأنّه على خلق عظيم[(٢)]، كما يتنافى مع غرض البعثة حاولوا أن يجدوا مبررات تدفع شبهة النقص عنه[(٣)] تمسكاً منهم بأمرين:

أحدهما: أن بعض الروايات التي تتهم النبي روتها عائشة[(٤)].

ثانيهما: أن الذي ذمته الآية بحسب الروايات المعتبرة هو رجل من بني أمية هو عثمان، فأرادوا تنزيه الراوي ومن وردت به الرواية وما نزهوا النبي صلى الله عليه وآله من هذا النقص.

ويلاحظ عليه أنه معارض بصريح القرآن في آيات عديدة. في بعضها أمر النبي صلى الله عليه وآله بأن يخفض جناحه للمؤمنين كما في قوله تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾[(٥)] وفي بعضها شهد له بسمو الأخلاق وعظمتها؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[(٦)] وفي بعضها أشار

---

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص١٧٥-١٧٧؛ تفسير الرازي: ج١١، ص٥١، روح المعاني: ج٣٠، ص٣٣٨.

(٢) انظر سورة القلم: الآية ٤.

(٣) تفسير الرازي: ج١١، ص٥٢.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ج١٠، ص١٧٥.

(٥) سورة الشعراء: الآية ٢١٥.

(٦) سورة القلم: الآية ٤.

إلى أنّ الغلظة والفضاضة توجب نفرة الناس منه؛ إذ قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[١] وكلها تتنافى مع الرواية التي نسبت العبوسة له، وهي قطوب الوجه من ضيق الصدر[٢]، والتولي: الإعراض عن الأعمى الذي جاء يسأل ويتعلم وتركه[٣]، والتولي قد يكون بالجسم وقد يكون بترك الإصغاء والاستماع إليه[٤].

وكلاهما عرفاً منافيان لخفض الجناح والخلق العالي، ومن مظاهر فضاضة الخلق وغلظة القلب، وحيث يمتنع الجمع وجب الإعراض عن الرواية، ويشهد له ما ورد عن الصادقعليه السلام إنّها لا تعني النبيصلى الله عليه وآله، بل تعني رجلاً من بني أمية كان عند النبيصلى الله عليه وآله، لما رأى الأعمى نفر منه وعبس وجمع نفسه وأعرض بوجهه عنه، فحكى الله تعالى ذلك، وأنكره عليه، وهو عثمان[٥]، فضلاً عن القرائن الداخلية في الآية كضمير الغائب.

وأما ما ورد عن الصادقعليه السلام بأن رسول الله كان إذا رأى عبد الله بن أم مكتوم قال: مرحباً، لا والله لا يعاتبني الله فيك أبداً، وكان يصنع به من

---

(١) سورة آل عمران ١٥٩.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٤٤، (عبس).

(٣) مجمع البحرين: ج٤، ص٨٤، (عبس)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص١٠٥٧، (ولي).

(٤) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٨٦، (ولي).

(٥) مجمع البيان: ج٥، ص٤٣٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص١٤٧؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٨٤-٨٥، (عبس).

اللطف حتى كان يكف عن النبيﷺ مما يفعل به[1]. فلا يعزز ما رواه العامة؛ لأنه صريح في نفي العتاب عن نفسه، ولا يخلو من إشارة عن دفع شبهة نسبة العبوسة إليه، وأن المعني في الآية غيره. كما يشهد له (لا) النافية، ولعله كان يزيد في لطفه به لكسر الثقافة الجاهلية التي كانت مستحكمة آنذاك في تمييز الناس وتصنيفهم طبقات، أو لكونها سيرته وسنته في التعامل مع ضعفاء الناس وفقرائهم، ولطف سيرته في أهل الصفة شاهدة على هذه الحقيقة.

ويتلخص: أنّ الرواية إذا وردت بمضمون يناقض القرآن يجب الإعراض عنها؛ لأن المناقضة كاشفة عن عدم الصدور، وربما تكشف عن عدم إرادة الظاهر، فلذا تحمل على معنى آخر يوافق مدلول الآية، فإن تعذر أعرض عنها كذلك، ويغلب ذلك في آيات وروايات الأحكام، ولعل من موارده ما ورد بشأن حق الزوج على زوجته في القرار في بيت الزوجية وعدم جواز الخروج منه إلّا بإذنه.

فقد ورد في رواية عبد الله بن سنان عن الصادقعليه السلام قال: «إن رجلاً من الأنصار على عهد رسول اللهﷺ خرج في بعض حوائجه فعهد إلى أمرأته عهداً أن لا تخرج من بيتها حتى يقدم. قال: وإنّ أباها قد مرض، فبعثت المرأة إلى رسول اللهﷺ تستأذنه أن تعوده، فقالﷺ: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فثقل ذلك عليها فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقال: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فمات أبوها فبعثت إليه إنّ أبي

(١) مجمع البيان: ج٥، ص٤٣٧؛ تفسير كنز الدقائق: ج١٤، ص١٤٦.

قد مات فتأمرني أن أصلي عليه؟ فقال: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك. قال: فدفن الرجل فبعث إليها رسول الله ﷺ فقال: إنّ الله قد غفر لك ولأبيك لطاعتك لزوجك»[١].

وقد التزم بعض الفقهاء كما قد يظهر من كلماتهم بالمنع من الخروج مطلقاً حتى في حالات الضرورة[٢] مع أنها تتنافى مع مضمون جملة من الآيات.

منها: آية رفع العسر والحرج[٣] وآية الاضطرار التي تتيح فعل المحظور عنده[٤].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[٥] وقال تعالى: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ**﴾[٦] فإن الآيات المباركة تثبت المكافأة بين حقوق الزوجة والزوج وواجباتهما في إطار المعروف، وتلزم الأزواج بالمعاشرة به.

والمعروف مفهوم عرفي وهو ما يستحسنه العرف ويكون متعارفاً فيه

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥١٣، ح١؛ الفقيه: ج٣، ص٢٨٠، ح١٣٣٣؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١٩ من أبواب مقدمات النكاح، ص١٧٤-١٧٥، ح١.

(٢) انظر شرائع الإسلام (القسم الثاني): ص٥٧٥؛ القواعد والفوائد: ج١، ص١٧٠؛ مسالك الأفهام: ج٨، ص٣٣٧.

(٣) انظر سورة الحج: الآية ٧٨.

(٤) انظر سورة البقرة: الآية ١٧٣.

(٥) سورة البقرة: الآية ٢٢٨.

(٦) سورة النساء: الآية ١٩.

بغير مانع شرعي[١]، ولاريب أن منع المرأة من الخروج من بيت زوجها دون إذنه بسبب الضرورات العرفية والاجتماعية كالحاجة إلى مراجعة الطبيب في المرض الشديد، أو الحضور عند الأم والأب عند الحاجة مخالف للمعروف، ولذا يعد العقلاء منع الزوج لها والحال هذه قبيحاً، ويذمونه على فعله، والشرع أباح فعل المحظور بسبب العسر والحرج والاضطرار؛ لأنه سبحانه قال: ﴿**وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ**﴾[٢] وقال: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلاَ عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ**﴾[٣]. فالعنوانان الأولي والثانوي يبيحان للمرأة الخروج من البيت دون إذن الزوج عند الضرورات.

ولا شك أن ما ورد في الرواية هو من الضرورات الاجتماعية، فالمنع الوارد فيها يتنافى مع صريح الآيات الشريفة، وعليه يجب الفحص عن حل يجمع بين المدلولين لرفع التعارض الواقع، وإلّا وجب الإعراض عن الرواية؛ لأنه صلى الله عليه وآله لا يقول ما يخالف القرآن، وربما يلتمس من منطوقها بعض المخارج لرفع التعارض.

أحدها: أن الزوج قد أخذ العهد الشرعي على الزوجة بعدم الخروج والوفاء بالعهد واجب شرعاً، وعيادة الوالد مستحبة أو واجبة أخلاقاً، والأول يترجح على الثاني؛ لذا منعها النبي صلى الله عليه وآله، ولعلها لم تقع في الحرج والاضطرار حتى يبيح لها الخروج.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٥٦١، (عرف)؛ مجمع البحرين: ج٥، ص٩٣، (عرف).
(٢) سورة الحج: الآية ٧٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ١٧٣.

ثانيها: أنّ الزوج إنّما أخذ العهد عليها بعدم الخروج؛ لوجود مفاسد تترتب على خروجها، فتتزاحم مصلحة عيادة الأب مع مفسدة الخروج، فرأى النبيﷺ أنّ المفسدة أعظم من المصلحة، فتكون القضية شخصية خارجية لا نوعية حقيقية.

ثالثها: أن المرأة بعثت إلى النبيﷺ تستأذنه بالخروج طلباً منه لأن يبيح ما منعه الزوج، وهذا مبتلى بمحذورين:

أحدهما: التصرف في حق الغير ولم يعهد عن النبيﷺ أنه استعمله بالرغم من أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم.

ثانيهما: فتح باب الاستئذان منه في مخالفة الأزواج، فأرادﷺ أن يغلق هذا الباب، فيندرج الأمر في تعارض المصلحة النوعية التي تقتضي حفظ نظم الأسرة والمجتمع، وإلزام الزوجات بالأزواج مع المصلحة الشخصية، والقاعدة العقلائية الشرعية تقتضي تقديم المصالح النوعية على الشخصية.

رابعها: أنهﷺ أراد أن يغفر لها ولأبيها ويدخله الجنة، وكان ذلك معلقاً على إطاعة بنته لزوجها؛ لذا قالﷺ: «إن الله قد غفر لك ولأبيك لطاعتك لزوجك»[1].

وفي عين الحال يضرب المثل لسائر النساء في أن إطاعة الأزواج من موجبات غفران الذنوب لهنّ ولآبائهنَّ، فتجتمع في منعها من الخروج المصلحة

---

(١) الكافي: ج٥، ص٥١٣، ح١؛ الفقيه: ج٣، ص٢٨٠، ح١٣٣٣؛ الوسائل: ج٢٠، الباب ١٩ من أبواب مقدمات النكاح، ص١٧٤-١٧٥، ح١.

الشخصية والمصلحة النوعية الأهم من الحضور عنده للعيادة والصلاة عليه.

والخلاصة: أن الرواية الشريفة إن لم تحمل على الجمع الدلالي ينبغي الإعراض عنها؛ لمخالفتها للقرآن، ولكن من محاسن الأمور هو قلة وقوع التعارض الذي لا يمكن حله بالجمع الدلالي، فالحاجة إلى الإعراض عن الرواية المخالفة للقرآن قليلة قد لا تعد بالحسبان. هذا كله في الروايات الواردة بطرقنا.

فلا غنى لمن أراد بيان معاني القرآن من الرواية، والإشكال السندي في رواياتنا الواردة في الكتب المعروفة مدفوع، والإشكال الدلالي محلول بالجمع، بل ثبت بالتحري والتحقيق وجود التطابق بين القرآن والسنّة الواردة في كتبنا المعتمدة، وعدم وجود التخالف الذي يستدعي الجمع إلّا في حالات قليلة لا تخفى على المتتبعين، وهذا ما يتضح من الحقيقة التالية.

الحقيقة الثالثة: مهام النبيﷺ في القرآن

نصّ القرآن الكريم على جملة من مهام النبيﷺ في الأمة، ومنها مهمتان:

الأولى: تبيين القرآن لهم وشرح مقاصده ومعانيه؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(١) والتبيين لا يختص بالمسلمين، بل عموم الناس؛ لأنه آخر الكتب السماوية، وغايته هداية البشر أجمع إلى مصالحهم، والتبيين يتعلق بما نزِّل إليهم لا ما

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

نزل إليهم؛ لأنّ ما نزل إليهم يستدعي فهمه دون حاجة إلى واسطة، بخلاف (ما نزِّل) فإنه يحتاج إلى شارح ومبيِّن، وغاية ذلك أمران:

أحدهما: التبيين.

وثانيهما: فتح آفاق العقل والتفكير لكي يتوصلوا بأنفسهم لما ورد في القرآن وبيان النبيﷺ، ويستنتجون منه ما يهمهم ويسد احتياجاتهم؛ لأنّ القرآن لا يريد للبشر أن يكون مغلقاً محدوداً بما يرد إليه، بل يريد أن يرتقي بعقله وفكره لكي يطور ملكاته فيبدع ويخترع.

والثانية: تعليمهم الكتاب والحكمة، وهذه الثانية ثمرة للأولى؛ لأنّ القرآن يشتمل على معارف وحدود وأحكام وإرشادات، وهذه لا تدرك بالبيان بل بالتعليم، وتتضمن بيان كل مجهول، ويتم بيان المفردات وشرح معانيها وتطبيقها على مصاديقها، ولعل هذا أحد أسرار بعث النبيﷺ إنساناً ومن قومه. قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**﴾[1] وقد فسِّر الكتاب بالقرآن، والحكمة بالسنّة؛ لأنّها تضع المعاني والتطبيقات في مواضعها، وقول بعض المفسرين بأنّ مهمته تقتصر على بيان الآيات المجملة والمتشابهة غير سديد[2]، كما أنّ قول بعض الخاصة والعامة بأنّ القرآن نزل بلغة العرب

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) روح المعاني: ج١٤، ص١٥٠؛ التفسير الكبير: ج٢٠، ص٣٨.

وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا يفهمونه، ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه يصح في الجملة لا في كل المعاني[١].

فالشواهد متضافرة على أنّهم كانوا يسألون النبيﷺ عن معاني بعض المفردات ومصاديقها، كما أن الصحابة لم يكونوا على فهم واحد، بل هم مقامات ومراتب في العقل والدرك والإحاطة، وهو ما تقتضيه طبيعة البشر، وهذا ما يتضح من قول ابن مسعود: والله لقد أخذت من في رسول اللهﷺ بضعاً وسبعين سورة، ولقد علمَ أصحاب رسول اللهﷺ أني من أعلمهم بكتاب الله تعالى، وما أنا بخيرهم[٢].

ولعله إشارة إلى وجود من هو أعلم منه كابن عباس وأمير المؤمنينعليه السلام إن صحت المقارنة بين حجة الله وبين غيره.

وفي بعض الأحيان قد يدركون معنى المفردة لكنهم يجهلون المراد بها، كما يجهلون مصداقها، وهذه قضية طبيعية في كل تأسيس، فمثلاً في قوله تعالى: ﴿**وَالْفَجْرِ ۞ وَلَيَالٍ عَشْرٍ**﴾[٣] فإن كل من يعرف العربية يدرك معنى الفجر وليال وعشر لكن هذا وحده لم يكن كافياً لمعرفة مراد الآية ومقصدها دون الرجوع إلى الرسولﷺ، وكذا في مثل قوله تعالى: ﴿**إِنَّ**

---

(١) انظر تفسير الميزان: ج١٩، ص٢٦٥؛ المقدمة (لابن خلدون): ج٣، ص١٠٣٠.

(٢) الآثار النووية: ص٢٨٠، ح٨٢٠؛ وانظر فتح الباري: ج١، ص٤٢٣؛ سفينة النجاة: ص٢٥٩.

(٣) سورة الفجر: الآيتان ١-٢.

الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾[١] فإنّهم فيما يعلمونه أن الصلاة هي الدعاء ولكن كتاباً موقوتاً لم يتداول لديهم، ويحتمل عدة معان.

فالمعنى في الجملة معروف لديهم ولكنه في التفصيل مجهول؛ لذا بيّن النبي المراد بالصلاة وعلّمهم كيفيتها، وقال لهم: «صلّوا كما رأيتموني أصلي»[٢] وذات القضية تقال في تفسير آية الحج[٣] حتى حج صلى الله عليه وآله وقال: «خذوا عني مناسككم»[٤] والأمر بالأخذ عنه للإشارة إلى ما يأخذونه مباشرة أو بالواسطة، ولا يؤدون المناسك بحسب اجتهاداتهم وآرائهم.

وعن الصادق عليه السلام: «إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله نزلت عليه الصلاة ولم يسمِّ الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزلت عليه الزكاة ولم يسمِّ لهم من كل أربعين درهماً درهماً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم، ونزل الحج فلم يقل لهم: طوفوا اسبوعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي فسّر ذلك لهم»[٥] والروايات بهذا المعنى عديدة[٦]، فليس كل ما في القرآن يفهمه الناس، ولا كل من يعرف العربية يدرك مقاصده.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٠٣.

(٢) عوالي اللآلئ: ج١، ص١٩٨، ح٨؛ ج٣، ص٨٥، ح٧٦.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

(٤) عوالي اللآلئ: ج١، ص٢١٥، ح٧٣؛ ج٤، ص٣٤، ح١١٨.

(٥) الكافي: ج١، ص٢٨٦، ح١؛ جامع أحاديث الشيعة: ج١، ص١٨٦، ح٢٨٧.

(٦) انظر المستدرك: ج١، ص١٠٩؛ الكفاية (للخطيب): ص١٤٨؛ حلية الأولياء: ج٢، ص١٩٨.

وورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: ﴿ليس كل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله من كان يسأله ويستفهمه حتى أنهم كانوا ليحبّون أن يجيء الأعرابي والطارئ فيسأله صلى الله عليه وآله حتى يسمعوا، وكان لا يمر بي من ذلك شيء إلّا سألت عنه وحفظته﴾[١].

وفي تفسير الميزان نقلاً عن الدر المنثور عن أبي أمامة قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يقولون: إن الله تعالى ينفعنا بالأعراب ومسائلهم. أقبل أعرابي يوماً فقال: يا رسول الله: لقد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أرى أنّ في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: وما هي الشجرة؟ قال: شجرة السدر فإنَّ لها شوكاً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿أليس يقول الله ﴿**فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ**﴾[٢] يخضده الله من شوكة فيجعل مكان كل شوكة ثمرة﴾[٣].

وفي الخبر جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال له: اشتريت متاعاً من خلاف وربحت فيه كذا وكذا، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿ألا أنبئك بما هو أكثر منه ربحاً﴾ فقال: أيوجد مثل هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿نعم احفظ عشر آيات من القرآن﴾ فذهب الرجل وحفظ عشر آيات وعاد إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يعلمه بذلك[٤].

---

(١) نهج البلاغة: ج٢، ص١٩١، الخطبة (٢١٠) وفيه: ((حتى أن كانوا ليحبون))؛ شرح نهج البلاغة: ج١١، ص٤٨؛ المعيار والموازنة: ص٣٠٤.

(٢) سورة الواقعة: الآية ٢٨.

(٣) تفسير الميزان: ج١٩، ص١٢٨؛ وانظر المستدرك: ج٢، ص٤٧٦؛ تفسير القمي: ج٢، ص٣٤٨.

(٤) مجمع الفوائد ومنبع الزوائد: ج٧، ص١٦٥؛ حياة الصحابة: ج٣، ص٤٦٣.

شواهد تطبيقية

والشواهد التطبيقية لهذه الحقيقة كثيرة:

منها: ما ورد في بيان المعنى كما في قوله تعالى: ﴿**التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ**﴾[1] فإنّ جميع المفردات ظاهرة المعنى إلاّ السائحون فإن المعنى المراد يخالف المعنى اللغوي؛ لأن السائح في اللغة مأخوذ من السيح وهو الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض، ويطلق على المتنقل في البلاد والمتنزه، أو للاستطلاع والبحث والكشف ونحو ذلك[2].

وقوله تعالى: ﴿**فَسِيحُواْ فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ**﴾[3] أي سيروا فيها آمنين حيث شئتم، والأشهر الأربعة هي شوال وذو القعدة وذو الحجة ومحرم وقيل غير ذلك[4]، لكن الآية ظاهرة في إدراج السياحة في العبادات؛ لذا وردت في سياق العبادة والحمد والركوع والسجود، فلم يفهموا المراد من السائحين فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عنه، وقال لهم: ﴿هم الصائمون﴾[5] وقال صلى الله عليه وآله إن سياحة أمتي الصيام[6]، وعن الأئمة عليهم السلام

---

(١) سورة التوبة: الآية ١١٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٣١، (ساح)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٤٦٧، (ساح).

(٣) سورة التوبة: الآية ٢.

(٤) مجمع البحرين: ج٢، ص٣٧٦، (سيح).

(٥) تفسير نور الثقلين: ج٢، ٢٧١؛ الدر المنثور: ج٣، ص٢٨١.

(٦) مجمع البيان: ج٥، ص٧٤-٧٥؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص١٧٨، ح٣٦٦؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٨، ص٢٧٠.

أنه الجهاد أيضاً[١]، والفرق كبير بين المعنى الظاهر والمعنى المراد.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة**﴾[٢] فإنّ معنى القوة ظاهر، وهو معنى عام يشمل كل قدرة فعلية وطاقة على العمل أو تهيئة مقدمات حصولها[٣]، وفي بعض الأخبار عرّفها رسول الله صلى الله عليه وآله بالرمي، وكرره ثلاثاً[٤]، وهو من تطبيق المعنى على المصداق، أو تعريف المصداق الأهم؛ لورود بعض الأخبار التي فسرتها بالسلاح[٥] وخضاب المقاتلين بالسواد[٦]، ومثله يقال فيما ورد عن الأئمة عليهم السلام من إضافة صحة البدن والعود إلى كفاية[٧].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾[٨] فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الاستطاعة والكفر بالرغم من معرفة مفهومهما لغة وعرفاً، فقال:

---

(١) تفسير القمي: ج١، ص٣٠٦؛ الكافي: ج٥، ص١٣، ح١.

(٢) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٣) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٩٤، (قوى)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٦٨، (قوى).

(٤) مجمع البيان: ج٤، ص٨٥٢؛ تفسير نور الثقلين: ج٣، ص٥٧، ح١٤١؛ الدر المنثور: ج٣، ص١٩٢.

(٥) تفسير القمي: ج١، ص٢٧٩.

(٦) الفقيه: ج١، ص١٢٣، ح٢٨٢.

(٧) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص١٤٢، ح١؛ الخصال: ص٦٠٦، ح٩.

(٨) سورة آل عمران: الآية ٩٧.

﴿الاستطاعة الزاد والراحلة﴾[١] وهو معنى شرعي خاص، أو المصداق الأهم للمعنى اللغوي للاستطاعة، وقد بنى الفقهاء على هذا التفسير جملة من الأحكام المتعلقة بالحج[٢].

وقيَّد الكفر بالكفر العملي لا العقيدي؛ إذ سأله رجل يا رسول الله! مَن تركه فقد كفر؟ فقال صلى الله عليه وآله: ﴿من تركه لا يخاف عقوبته ولا يرجو ثوابه﴾[٣] وهو كفر العصيان لا كفر الجحود والإنكار.

وقريب منه ورد عن الصادق والكاظم عليهما السلام[٤].

ومنها: ما ورد في بيان معنى البشرى في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۞ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾[٥] إذ سألوا رسول الله عنها فقال: ﴿هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو ترى له﴾[٦].

وهذا بيان للمعنى أو لمصداقه الأهم لا يفهمه العارفون باللغة، ومثله يقال فيما ورد عن الأئمة عليهم السلام من تفسيرها ببشرى قيام القائم

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج١، ص٣٧٢؛ جامع البيان: ج٤، ص١٦؛ الدر المنثور: ج٢، ص١٠٥.

(٢) انظر مسالك الأفهام: ج٢، ص١٠٥؛ الجامع لأحكام القرآن: ج٤، ص١٢٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن: ج٢، ص٥٠٦، ح٦٤٤٨؛ الدر المنثور: ج٢، ص٥٧؛ جامع البيان: ج٤، ص٢٠.

(٤) تفسير العياشي: ج١، ص١٩٣، ح١١٥؛ الكافي: ج٤، ص٢٦٦؛ مسائل علي بن جعفر: ص٢٦١.

(٥) سورة يونس: الآيتان ٦٣-٦٤.

(٦) المستدرك: ج٢، ص٣٤٠؛ تفسير نور الثقلين: ج٢، ص٣٠٩.

وظهوره عليه السلام[١]، وبشرى رؤية المحتضر النبي والأئمة وفاطمة عليها السلام فيبشرونه ويدفعون عنه أهوال الموت[٢].

ومثله ما ورد في بيان معنى المنكر الذي كان قوم لوط يفعلونه، والذي حكاه قوله تعالى: ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾[٣] فقال صلى الله عليه وآله: «كانوا يحذفون أهل الطريق ويسخرون، فهو المنكر الذي يأتون به»[٤].

وهذا معنى خاص لا يدرك من لفظ المفردة ومفهومها اللغوي أو العرفي، وورد عن الرضا عليه السلام معنى آخر لا يفهم من اللفظ أيضاً[٥].

وأحياناً يطابق الآية المعنى اللغوي لكنهم كانوا يتوقعون لها معنى آخر قصده القرآن فيسألون النبي صلى الله عليه وآله عنه، كما ورد في سؤال بعضهم عن بسوق النخل الذي حكاه الباري عز وجل في قوله تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[٦] فقال صلى الله عليه وآله: «هو ارتفاعها وامتدادها وطولها»[٧] وهو ذات المعنى اللغوي[٨].

---

(١) الكافي: ج١، ص٤٢٩، ح٨٣.

(٢) الكافي: ج٣، ص١٢٨، ح١.

(٣) سورة العنكبوت: الآية ٢٩.

(٤) انظر عوالي اللآلئ: ج١، ص٣٢٧؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٣٦٧، ح٣٦؛ المستدرك: ج٢، ص٤١٠؛ الدر المنثور: ج٥، ص١٤٤.

(٥) انظر تفسير القمي: ج٢، ص١٥٠؛ مجمع البيان: ج٨، ص٤٤٠.

(٦) سورة ق: الآية ١٠.

(٧) المستدرك: ج٢، ص٤٦٤.

(٨) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص١٢٣، (بسق).

ومنها: ما ورد في بيان حدود المعنى، فقد سئل صلى الله عليه وآله عن حدود غض البصر المأمور به في قوله تعالى: ﴿**قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ**﴾[١] ففصَّل بين نظرات ثلاث:

الأولى: التي يقع النظر عليها دون تعمد.

والثانية: إدامة النظر بعد وقوعه عليها فجأة.

والثالثة: تعمد النظر.

فالأولى جائزة والثانية والثالثة هما المقصودان في الآية، واستثنى الكفين والقدمين والوجه إن كان من قبيل النظرة الأولى.

ومعلوم أن هذه التفاصيل لا تعرف من منطوق الآية دون الرجوع إلى السنّة[٢].

ومنها: ما ورد في تفصيل المعنى المجمل كما في قوله تعالى: ﴿**تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ**﴾[٣] قال صلى الله عليه وآله: «تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه، وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته»[٤].

وعن أمير المؤمنين عليه السلام فسر (كالحون) بالخلود في جهنم[٥]، وفي تفسير

---

(١) سورة النور: الآية٣٠.

(٢) انظر الخصال: ص٣٠٦، ح٨٤؛ ص٦٣٧، ح١٠؛ ص٩٨، ح٤٦؛ تفسير نور الثقلين: ج٥، ص١٤١، الأحاديث ٩٥، ٩٦، ٩٧؛ البحار: ج٧، ص٩٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية١٠٤.

(٤) المستدرك: ج٢، ص٣٩٥؛ تفسير القرآن: ج٣، ص٢٦٨.

(٥) الاحتجاج: ج١، ص٣٦٤.

القمي قال: أي مفتوحي الفم متربدي الوجوه[١]، وهي متوافقة في المعنى لأن الكلح في اللغة العبوسة[٢].

ومثله يقال فيما ورد في معنى قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾[٣]؛ إذ قال ﷺ: «أتدرون ما أخبارها؟» فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال: «إن أخبارها أن تشهد على كل عبد وأمة بما عمل على ظهرها، أن تقول: عمل كذا وكذا في يوم كذا، فذلك أخبارها»[٤].

ونلاحظ من مجموع الشواهد أن معرفة معاني الألفاظ ليست كافية لفهم مقاصد القرآن ومراداته، بل لابد من الرجوع إلى السنّة لمعرفة المعاني وحدودها وتطبيقاتها ومصاديقها، ولولا السنّة لانتقض غرض نزوله، ولا تفترق في ذلك الألفاظ التي لها معان ظاهرة أو غيرها، ولذا قال تعالى: ﴿يُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾[٥] ولو كان معرفتهم باللغة وببعض المفردات كافية لما استقام وصفه بالتعليم.

ومن هنا قلنا لا غنى للقرآن عن السنّة كما لا غنى له عن اللغة والقواعد العقلية، فإنّ الجميع يتدخل في فهم القرآن والوصول إلى عمق معانيه ومقاصده، وكل ذلك دعا إليه القرآن واستند إليه في إرشاداته

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٩٤.
(٢) مجمع البحرين: ج٢، ص٤٠٨،(كلح)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٧٩٥، (كلح).
(٣) سورة الزلزلة: الآية٤.
(٤) مجمع البيان: ج١٠، ص٧٩٨؛ تفسير نور الثقلين: ج٨، ص٢٨٧، ح٨.
(٥) سورة البقرة: الآية١٢٩.

وإشاراته، وعلى هذا الأساس قامت طريقتنا في دراسة الآيات؛ إذ قسّمنا البحث في كل آية على أربعة أبحاث[١]:

يتعلق الأول بدراسة السياق والنظر في الترابط بين الآية السابقة واللاحقة من حيث الموضوع أو الغرض إيماناً منّا بأن القرآن له روح واحدة سارية من أوله إلى آخره، وأن تسلسله في السور والآيات توقيفي ولم تتدخل فيه يد البشر، ويتعلق البحث الثاني ببيان مفردات الآية وشرح معانيها ودلالاتها اللغوية.

والثالث يتعلق بدراسة النكات واللطائف التي يستنتجها العقل من دلالاتها اللغوية والعرفية بمقتضى دلالة الاقتضاء أو الإشارة أو الإيماء ونحوها من أقسام الدلالة التلازمية العقلية.

وبيان دقة التعبير في المفردة من حيث فقه اللغة، وإظهار وجوه الفرق بينها وبين المفردات المقاربة لها، أو ما يعبر عنها بالمرادفة أو المشاركة لها في اللفظ أو المعنى.

فإن كلام الحكيم منزه من الجزافية أو العناية بجمال العبارة دون النظر إلى دقة دلالتها ومناسباتها المعنوية، فإذا عبَّر عن الإنسان تارة بالبشر دون الآدمي أو عبَّر عنه بابن آدم دون الإنسان فإنّ ذلك كله لحكمة يقتضيها التعبير، ويكشف به عن دلائل معرفية عميقة لابد من تلمسها والسعي للوصول إليها، وهذا ما لا يمكن إدراكه بواسطة ظاهر العبارة، بل لابد من الغوص في إشاراتها وإيماءاتها للوصول إليها.

---

(١) انظر ما يقوله القرآن في سورة يس.

والبحث الرابع يتعلق بالنظر إلى العبرة في الآية وما يستفاد منها من تعاليم ترتبط بهداية البشر وإكمال عقولهم وقلوبهم ليتطابقوا مع السنن الإلهية، ويعيشوا الحياة الأفضل، وبهذا نكون قد ربطنا القرآن بالحياة والمجتمع الإنساني، وألفتنا الأنظار إلى ضرورة التعلم من القرآن والاستهداء بهديه؛ لأنه وبضميمة السنّة المطهرة الذي يمكن وصفه بالمعلم الكامل الذي يعلم البشر بإخلاص، ويهديهم للتي هي أقوم بلا أجر ولا مقابل بالهداية الإرائية والإيصالية؛ لذا جمعنا في الأبحاث بين الدلالة اللغوية والعقلية والنقلية المستفادة من القرآن والسنّة.

وبهذا يتوافق البحث مع غايات القرآن، فإنه ليس كتاب أحكام بل معارف وتهذيب وتعليم توصل الإنسان إلى كماله العقلي والقلبي، كما أنه لم يخاطب عموم الناس بمستوى واحد، بل خاطبهم بمستوياتهم المختلفة ببيان واحد، فخاطب الحكيم والسياسي والعالم واللغوي والطبيب والفلكي والفيزياوي كما خاطب المرأة والرجل والشاب واليافع، وكل فرد من أفراد المجتمع الإنساني خاطبه وألفته إلى مواطن الهداية والإرشاد بمستوى عقله وفكره ووجدانه، وهذا من إعجازاته، فإنه بخطاب واحد يقصد إفهام جماعات كثيرة من الناس مختلفة في مستوياتها العقلية والفكرية والوجدانية، ويقنع الجميع، ويوصلهم إلى مصالحهم، ويهديهم للتي هي أقوم. هذا الكتاب العظيم الحامل لهذه الغاية العظيمة يستدعي منا دراسة كل آية من آياته من ناحية المدلول اللفظي والعقلي والتطبيقي، وتلمس دلائله وإرشاداته في الشؤون الخاصة والعامة، فإذا حصرناه في

حدود مدلوله اللغوي أو في بعده الحكمي أو الفردي نكون قد ظلمناه وخسرنا خسراناً كبيراً.

ومن هنا تميز هذا البحث بأنه ينطلق من ذات الآية واستكناه معانيها ومقاصدها وإرشاداتها وتعاليمها.

فإن كان هناك ما يؤيد مضمونها استعان به، وإلّا جعل ما تضمنته الآية هو القاعدة والأصل، وبهذا يكون قد اقترب كثيراً من معنى التفسير، وقارب بينه وبين التأويل والظهر والبطن اللذين تحدثت عنهما الروايات، وابتعد عن الخلفيات الذهنية التي تعطي للآيات بعداً تطبيقياً لا تفسيرياً، كما يبتعد عن شبهة التفسير بالرأي وإقحام الآراء الشخصية في فهم القرآن كما بيناه في مناقشة المناهج المتقدمة.

المبحث الثالث عشر: مشكلات التفسير وما ينبغي للمفسِّر

في الوقت الذي يتوقف التفسير على إحاطة باللغة والحديث والقواعد العقلية وجملة من العلوم المعرفية فإنه يواجه جملة من المشكلات على المفسِّر الالتفات إليها.

منها: مشكلة التفسير بالرأي

ربما يقع المفسِّر فيه وهو منهي عنه شرعاً وخطأ عقلاً؛ لأنّ للقرآن غايات ومعاني أرادها الباري عزّ وجل لا يمكن الوصول إليها بالاعتماد على الآراء والظنون الخاصة، وإنّما تتوقف على نوعين من الضوابط: أحدهما ثبوتية، والأخرى إثباتية. أما الأولى فهي القواعد العقلية والمحكمات القرآنية والروائية، والثانية فهي اللغة وظواهر الآيات والروايات، والأولى تفيد العلم، والثانية تفيد الظن النوعي، وكلاهما حجة، سوى أنّ الأولى حجيتها ذاتية، والثانية عقلائية. وأما الظنون الشخصية فهي أجنبية عنهما ولا يجوز اعتمادها شرعاً وعقلاً.

فعلى المفسر أن يراعي في شرح معاني الآيات وبيان مقاصدها الطرق والقواعد النوعية لا المتبنيات الخاصة لكي يتجنب مشكلة التقوّل على الله سبحانه والعمل بالظن الخاص الذي نهى عنه القرآن نفسه بقوله: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[١] وقوله: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾[٢] و: ﴿إِنَّ الظَّنَّ

(١) سورة الإسراء: الآية٣٦.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٢.

لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾[١] وهو محمول على الظن غير العقلائي كما حقق في الأصول[٢].

ومنها: مشكلة الإجمال

فإنه يمنع من فهم مراد الآية.

ومنها: مشكلة المرونة في الدلالة

فيحار العقل في فهم المراد منها، وقد وصف القرآن بأنّه حمال ذو وجوه[٣]، ويعود إلى الإجمال سوى أنّ الأولى إجمال في اللفظ، والثانية إجمال في المعنى، إلى غير ذلك من مشكلات توجب على المفسر مراعاة القواعد العقلائية لدى التفسير وعدم الاكتفاء بالدلالة الأولى أو الفهم الخاص، وقد قرر جملة منها في أبحاث علوم القرآن، وأشارت إلى جملة منها المقدمات في بعض كتب التفسير، وأما ما ينبغي أن يراعيه المفسر فقضايا كثيرة أهمها ثلاث:

---

(١) سورة النجم: الآية ٢٨.

(٢) المهذب في أصول الفقه: ص١٠٦، ص١١٠.

(٣) البحار: ج٢، ص٢٤٥، ح٥٦؛ ج٣٣، ص٣٧٦، ح٦٠٦.

القضية الأولى: مراعاة الظهور النوعي

أي اعتماد الظهور النوعي وعدم الاعتبار بالظهور الشخصي ولا الخاص؛ لأن الظهور حجة نوعية، وتضافرت الأدلة على حجيته في باب الدلالة اللفظية.

وبيان ذلك: ينقسم الظهور المستفاد من الألفاظ على أقسام:

أحدها: الظهور الشخصي، وهو المعنى الذي يخطر في ذهن الشخص دون غيره، ويستند في الغالب إلى خلفياته الذهنية وأفكاره والبيئة الحاضنة له وذوقه واستحسانه الخاص. مثل لفظة (أسد) فإنّها في العرف العام تعني الحيوان المفترس، وربما يستظهر منها بعض الأشخاص غير ذلك (كالبطل) مثلاً، فإذا وردت المفردة في جملة ولم تنصب قرينة على المراد يؤخذ بمعناها العام دون الخاص؛ لأنّه هو المدار في التفاهم العقلائي. أما المفاهيم الشخصية فلا تخص إلّا أهلها؛ لأنّها معان نسبية غير ثابتة تختلف من شخص لآخر، فلا يمكن أن تبنى الخطابات العامة عليها.

ثانيها: الظهور الخاص، وهو ما يتعارف في المصطلحات بين أهل الاختصاص في كل فن، مثل كلمة: (الرواية) فإنّها في عرف الأدباء تعني القصة التي يدونها الأديب، وفي عرف المحدثين الحديث الشريف، وفي عرف المؤرخين الحادثة، ومثلها (الحكم) فإنه في عرف الساسة السلطة، وفي عرف القضاء ما يصدره القاضي في فصل القضايا، وفي عرف الفقهاء التكليف الشرعي، فما يستظهره الفقيه من الحكم غير ما يستظهره القاضي

وهكذا، وهذا الظهور يكون حجة في كل عرف بحسبه، ولا يتعلق بعموم الناس، ولذا لا يعتمد في الدلالة اللفظية العامة في القرآن والسنّة إلّا إذا قام الدليل على إرادة المعنى المصطلح منها، وقامت القاعدة على حمل الألفاظ القرآنية على الدلالة اللغوية لا الدلالة الاصطلاحية ما لم تقم قرينة على الخلاف؛ لأن القرآن تكلم بلغة نوع الناس لا العرف الخاص.

ثالثها: الظهور النوعي، وهو المعنى الذي يفهمه نوع العارفين باللغة من اللفظة، ولا يختلفون فيه، فيكون من الحقائق الثابتة التي يتوصل بها إلى فهم المراد، مثل لفظة (أسد) في المثال السابق فإن نوع الناس يفهمون منها الحيوان المفترس، ولو ورد في النص يحمل عليه ولا يحمل على البطل الذي يفهمه شخص واحد من الناس، ويقوم الظهور النوعي على ركنين:

الأول: أن الأصل حمل الألفاظ على معانيها الظاهرة لدى العرف العام وعدم الاعتناء بما يستظهره الأشخاص، وهو ما يعبر عنه بأصالة الظهور.

الثاني: أن الأصل حجية الظهور ووجوب العمل به، فلو انعقد الظهور في المعنى ولم يأخذ به المفسر وأخذ بالمعنى الخاص كان ذلك من موجبات الذم، والحكم عليه بالخطأ والخروج عن الموازين العقلائية.

فلا يجوز حمل اللفظ على معناه الشخصي إلّا إذا توفرت قرينة عليه؛ لأن الظهور الشخصي ظن وهو ليس بحجة.

إن قلت: لكن الملحوظ أن المفسرين والفقهاء يرجعون إلى استظهاراتهم من دلائل الآيات والروايات لبيان المعاني؟

والجواب: أنّ ذلك ليس من باب الرجوع إلى ظهورهم الشخصي وإنّما من

باب المرآتية للعرف النوعي، أي أنهم يجدون أن ما يستظهرونه يعود إلى نوع العقلاء، وأن نوع العقلاء يستفيدون من الآية ذات الدلالة، وهو طريق فهم اللغة لدى أهلها، فإن كل من يسمع كلمة (نزل المطر) يفهم المراد من المطر الماء النازل من السماء، وهو وإن لم يرجع إلى نوع الناس في فهم ذلك لكنه يرى أن مفردة (مطر) ظاهرة في هذا المعنى عند نوع الناس وليس عنده فقط.

ومنه يعرف أن الظهور الشخصي والظهور النوعي قد يتطابقان وهو الحجة، وقد يختلفان فلا يؤخذ بالظهور الشخصي وإنما بالظهور النوعي، لثلاثة أسباب:

أسباب حجية الظهور النوعي

السبب الأول: أن الظهور النوعي هو المقصود في الخطابات القرآنية؛ لأنه بيان للناس دون الظهور الشخصي، بل ذم القرآن الاعتماد على الظنون الخاصة والاستظهارات الشخصية، ونسبها إلى الجهل في آيات كثيرة، ووصف الذين يأوّلون القرآن بحسب ميولهم وأنظارهم بمرضى القلوب[1]، وكشف عن أنه في غالبه مخطئ للواقع ثبوتاً، وساقط عن الاعتبار إثباتاً بل لو اعتمد القرآن وكذا السنّة الظهور الشخصي انتقض غرضهما واستحال التعلم منهما.

السبب الثاني: لأنه مدار النظام العام بين الناس، فلو لم يؤخذ به سقطت سائر الحجج ولم يبق طريق للتفاهم، فإن القوانين والتعاليم

---

(١) انظر سورة آل عمران: الآية ٧.

وتبادل العلوم ونقل المعلومات والأخبار والتعبير عن المشاعر وإظهار المقاصد كله يعتمد على الظهور النوعي، ولو أخذ بالظهور الشخصي اختل النظام ولم يستقر حجر على حجر، وامتنع التعليم، وتعذرت المفاهمة، وسقطت كل الحجج؛ لأن الظهور الشخصي خاص ببعض الأفراد، ولا ثبات له ولا اتفاق عليه.

السبب الثالث: حكم العقل؛ لأن اعتماد الظهور الشخصي ملازم لعدم اعتماده، فيلزم من وجوده عدمه، وهو محال، والسر في ذلك أنّ الظهور الشخصي يتعلق بنفس الشخص، كما لو استظهر الشخص من قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء طَهُورًا﴾[1] أن المقصود بالماء العلم، فكيف ينقل هذه الحقيقة لغيره، فإن اعتمد الغير على ظهوره الشخصي واستظهر من بيانه معنى آخر تعذر التفاهم، وإن اعتمد الظهور النوعي ثبت بطلان الظهور الشخصي.

ومن ذلك تظهر حقائق:

لا اعتبار لتعدد القراءات

الحقيقة الأولى: بطلان المحاولات الشخصية والاستظهارات الخاصة في فهم القرآن، وما قد يعبر عنه البعض بقراءة النص وإمكانية تعدد القراءات؛ لأن تعدد القراءات إن أريد بها القراءات الشخصية فهي ترجع إلى الاستظهارات الشخصية، وهي باطلة، وإن أريد بها القراءات النوعية

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٤٨.

فهي الأخرى غير صحيحة؛ لأن الظهور النوعي واحد يدركه نوع العارفين باللغة، فلا مجال لتعدده، وإن أريد به تطبيق المعنى النوعي على مصاديقه وموارده فهو يتوقف على إحراز المصداق وملاحظة انطباق المعنى عليه، والمرجع في ضبط ذلك لا يمكن أن يكون الشخص؛ لما عرفت من عدم اعتبار الظنون الشخصية في الدلالات، وإنما المرجع هو العرف النوعي، فما يراه العرف مصداقاً للمعنى أخذ به وإلّا فلا.

فمثلاً في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾[1] فإن الظهور النوعي للأمهات الوالدات، والقدر المتفق عليه هي الوالدة التي تحمل جنينها ثم تنجبه، وأما إذا احتضنت المرأة النطفة ولم تكن هي صاحبتها كما لو لقحت بيضة الزوجة بمني زوجها ثم زرعت في رحم امرأة ثانية فربما يقع الخلاف في أن المرأة الثانية هي أم أيضاً وتترتب عليها أحكام الأمومة أم لا؟

فربما يستظهر البعض أنّها أم، وربما يستظهر آخر العدم، والمرجع في ذلك إلى العرف النوعي لا الظهور الشخصي، فإن رأى العرف العام أنّها أم لصدق عنوان الولادة عليها مثلاً حكم بالأمومة، وإلّا فلا.

فتطبيق المعنى على المصداق ليس جزافياً أو مزاجياً بل يخضع إلى ضابطة ثابتة هي النظر العرفي بحسب نوعه، وإلّا لم يستقر حكم ولا قانون ولا تعليم.

والخلاصة: أن القول بتعدد قراءة النص لا محصِّل له؛ لأنّ القراءة الشخصية باطلة، والنوعية ليست متعددة، والتطبيق مرجعه العرف لا الأشخاص.

---

(١) سورة المجادلة: الآية٢.

الإعتبار بزمان الصدور

الحقيقة الثانية: أنّ المراد بالظهور النوعي الذي هو مدار الاعتبار في فهم النصوص القرآنية والروائية الظهور الحاصل في زمان صدور الآيات والروايات لا الحاصل لدينا الذي يعبر عنه بزمان الوصول.

وبيان ذلك: أن ظهور الألفاظ في معانيها له حالتان:

الأولى: الظهور الحاصل في زمان صدور النص.

الثانية: الظهور الحاصل في زمان وصوله إلينا.

مثلاً في قوله تعالى: ﴿**وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ**﴾[1] فإن السيارة في زمان نزول الآية القافلة، بينما هي في زماننا العربة، وبينهما اشتراك في أصل المعنى، إلّا أن مصداق السيارة في زمن الصدور غيره في زمن الوصول.

وفهم الآيات ينبغي أن يحمل على المعاني التي صدر بها النص. هذه هي القاعدة، والظهور النوعي للفظ تارة يتطابق بين زمان الصدور وزمان الوصول مثل قوله تعالى: ﴿**أَحَلَّ اللّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا**﴾[2] فإن البيع والربا في الزمانين واحد فلا إشكال، وتارة يختلفان كما في السيارة فيحمل اللفظ على المعنى الصدوري؛ لأنه المعني بالكلام أولاً.

وتارة لا نعلم بتوافقهما واختلافهما فيحمل على التطابق؛ لأن الأصل هو التطابق في الاستعمالات إلّا ما خرج بدليل على ما حققناه في الأصول[3].

---

(١) سورة يوسف: الآية١٩.

(٢) سورة البقرة: الآية٢٧٥.

(٣) انظر المعتمد في الأصول: ج٢، ص٢٠٣.

إن قلت: على هذا لا يبقى دور للتطور الذهني وتنامي العلوم في فهم الآيات والروايات.

الجواب: أنّ الدور موجود في كل زمان ومكان من جهات ثلاث:

الأولى: فهم الآيات والروايات التي بينَّت حقائق سابقة لزمانها كالآيات الفلكية والسماوية وأسرار الخلقة ونحوها التي لازالت العلوم الحديثة تكتشف بعض أسرارها.

الثانية: الاجتهاد في تطبيق المعاني على مصاديقها المستحدثة.

الثالثة: ترسيخ الحقائق المعرفية وتعضيدها بنتائج العلوم ورفع غموضها وإجمالها وإهمالها وتشابهها، وهذه كلها لا تتعلق بأصل ظهور النص، بل بفهم مقاصده وحدوده وتطبيقه على مصاديقه.

الالفاظ والمعاني الحقيقية

الحقيقة الثالثة: أن القضايا المعرفية والحكمية في القرآن والسنّة وفي كل علم وفن حقيقية مجردة عن الزمان والمكان والأشخاص، وإنما ناظرة إلى الطبائع الأصلية، فمثلاً حينما يقول الباري عزّ وجل: ﴿**إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**﴾[1] فإنّه يحمل الخمر على الطبيعة الخمرية، ولا خصوصية لمنشئه، وأنّه مستخلص من التمر أم العنب أم التفاح أم غيرها، ولا خصوصية للونه وطعمه ورائحته، ولا حتى اسمه؛

---

(١) سورة المائدة: الآية ٩٠.

لأنّ المحرم هو طبيعة الخمر المسكرة، فلو حصل في بعض البلدان أن سلبوا من المسكر اسم الخمر وأسموه بالعصير مثلاً أو غيروا طعمه أو شربوه بعنوان غذاء فإن ذلك لا ينفي عنه الحرمة، وكذا لو حصل ذلك في بعض الأزمنة؛ لأن الحرمة متعلقة بذات الطبيعة المسكرة، والزمان والمكان لا يغيران من الحقيقة شيء.

فدعوى البعض بأنّ الزمان والمكان مؤثرات في فهم النص لا يخلو من غموض، فإن أراد به أنّ للزمان والمكان الأثر في فهم الظهور النوعي فهو باطل؛ لما عرفت من أن المدار الظهور النوعي في عصر الصدور؛ لأنّه المعني بالخطابات القرآنية أولاً.

وإن أراد به أنّ لهما الأثر في الظهور الشخصي فقد عرفت بطلانه، وإن أراد أنّ لهما الأثر في تشخيص الموضوعات والمصاديق الخارجية للمعنى فهو صحيح لكنه من باب التطبيق لا الفهم كما عرفت من الحقيقة الأولى.

القضية الثانية: مراعاة المحكم والمتشابه

فلا يجوز العمل بالمتشابه إلّا بعد رفع التشابه بخلاف المحكم، وتوضيح هذه القضية يستدعي بيان جملة حقائق:

الحقيقة الأولى: أنّ الإحكام والتشابه في آيات الكتاب اصطلاح قرآني نصت عليه آيات عديدة عمدتها قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[١].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

والمراد بالآيات المحكمة ما يعرف المعنى المراد منها من ذات ألفاظها إما من جهة الدلالة النصية أو الظهورية، فالإحكام في الآيات قسمان علمي ووثوقي وإدراك ذلك يدركه العارف باللغة من ذات الألفاظ دون حاجة إلى الاستعانة بالقرائن والأدلة الأخرى لفهمها، نظير قوله تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. مأخوذة من الإحكام أي الإتقان، وتتضمن القضاء والفصل في الحكم[2].

والمحكم من القرآن مصدر بمعنى اسم المفعول أي ما أحكم معناه فكان ظاهراً لا شبهة فيه ولا يحتاج إلى تأويل، وعن بعض أهل اللغة أن الحكم هو المنع، ويعبر عما يصدره القاضي حكماً؛ لأنه يمنع من الظلم، والإحكام يراد به الإتقان؛ لأنه يمنع الخلل في الشيء، والحكمة هذا قياسها؛ لأنها تمنع الجهل، والطبيب يقال له حكيم؛ لأنه يمنع من المرض، وعلى هذا القياس يفسر المحكم في الآيات وهو ما يمنع التشابه والاختلاط بغيره[3]، وبين المعنيين ملازمة.

وبخلاف ذلك الآيات المتشابهة، فإنّه لا يعرف المراد منها من ذات اللفظ، وإنّما بواسطة الاستعانة بغيرها. تسمى الآيات بذلك؛ لوقوع التردد في المراد منها واشتباه قارئها وسامعها فيها، فالتشابه وصف لها قبل الاستعانة بالغير ورفع الاشتباه عنها، وأما بعد رفعها تكون محكمة، ولذا

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٦٥.
(٢) انظر مجمع البحرين: ج٦، ص٤٣، (حكم)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص١٩٠،(حكم).
(٣) انظر معجم مقاييس اللغة: ص٢٥٨، (حكم).

وصف الآيات المحكمات بأم الكتاب؛ لأنّها مرجع المتشابهات، فكل متشابه يندرج في المحكم بعد رفع تشابهه، سواء رفع التشابه بالرجوع إلى الآيات المحكمة أو إلى الأدوات الأخرى.

أسباب التشابه

للتشابه أسباب عديدة عمدتها ثلاثة:

أحدها: اختلاط معناه بغيره فلا يعلم المعنى المراد؛ لوجود أكثر من معنى يحتمله اللفظ، أو احتمال المعنى معنىً قبيحاً لا يليق بحمل اللفظ كما في قوله تعالى عليه: ﴿**وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾(١) فإن الإضلال لا يليق بحكمته تعالى فلا يعلم المراد منه حتى يقترن به ما يدل عليه بالرجوع إلى القرائن.

وثانيها: عدم العلم بالمصداق المراد من المعنى، كما في قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾(٢) فإنّ معنى العرش مفهوم لدى السامع ولكن له مصداقان أحدهما مادي والآخر معنوي، ولا يعلم أن المراد بالعرش المادي أم المعنوي، وحلّه بالرجوع إلى الأدلة والقرائن الرافعة.

وثالثها: عدم العلم بمصداق المعنى كالشجرة الملعونة في القرآن، فإن ألفاظها مفهومة من حيث المعنى وليست من قبيل المشترك اللفظي أو المصداقي، بل لا يعلم مصداقها، وحيث إن مصاديقها المشتبهة كثيرة فلا يرتفع الاشتباه إلاّ بالرجوع إلى الروايات، فالأدلة الرافعة للتشابه ثلاثة في الغالب:

---

(١) سورة الجاثية: الآية ٢٣.

(٢) سورة طه: الآية ٥.

هي الجمع الدلالي والقرائن العقلية واللفظية المحتفة والروايات الشريفة.

وبذلك يتضح أنّ الجاهل باللغة الذي لا يعرف معاني الألفاظ لا يتشابه لديه المعنى؛ لعدم درك المعنى في الأساس، وقد اختلف المفسرون والأصوليون وأهل اللغة في تعريف المحكم والمتشابه، وتعددت أقوالهم كثيراً[1]، والعمدة ما ذكرناه.

معنيان للإحكام والتشابه

الحقيقة الثانية: للإحكام والتشابه في القرآن إطلاقان:

أحدهما: عام وصف به القرآن كله؛ إذ قال سبحانه: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[2] فوصف الكتاب قبل بيانه وتفصيل معانيه بالإحكام، وسرّ ذلك إما لجهة كونه الأصل الذي منه تتفرع باقي الآيات كما تؤيده آية آل عمران: ﴿**هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[3]، وإما من جهة إتقانه في نزوله وتلقيه ودقة معانيه، وإما من جهة منعه من الاختلاط بغيره من كلمات غير الله سبحانه، والأول أظهر. هذا في الإحكام.

وفي التشابه قال سبحانه: ﴿**اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**﴾[4] فوصف التشابه أطلق

(١) انظر مناهج البيان: ج١، ص٢٣؛ مجمع البحرين: ج٦، ص٤٣، (حكم).

(٢) سورة هود: الآية١.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٤) سورة الزمر: الآية٢٣.

على كل القرآن إما باعتبار أنّ بعض آياته تحتمل أكثر من معنى، ولذا أمر القرآن بالتدبر فيه والتفكر والرجوع إلى أهل الذكر والراسخين في العلم لمعرفة المعنى المراد منه، وإما باعتبار أن آياته متشابهة في الألفاظ والنظم واستقامة المعنى والاشتراك في الغاية حتى في الآيات المتكررة في ألفاظها فإنّها واردة في نظم ونسق فائق الروعة والجمال من حيث التعبير، وعالي المضمون من حيث المعنى، ولذا وصف بأنّه متشابه ومثان تقشعر منه جلود الخاشعين لربهم[1].

ثانيهما: خاص وصفت به بعض آياته؛ إذ قال سبحانه: ﴿**هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾[2] وقوله: ﴿**مِنْهُ آيَاتٌ**﴾ قسّم آيات القرآن صنفين: صنف آيات محكمات والآخر متشابهات، وجعل الأصل للمحكمات لا للمتشابهات، وهذا مطابق للسنّة الإلهية في الوجود من ضرورة وجود مركز تعود إليه الأمور في التكوين والتشريع، وهو المعصوم عليه السلام، وفي القرآن الآيات المحكمة، وإليه تشير بعض الأخبار التي وصفت محمداً وآل محمد عليهم السلام بالقرآن ومحكمات الكتاب، فكما أن الأمر الإلهي تجلّى في المعصوم ومنه تفرّعت الأشياء وجوداً ونظاماً كذلك الآيات المحكمة هي الأصل في القرآن ومنه تتفرع باقي الآيات، ولذا وصفت بالأم أي أصل الشيء ومنشؤه.

---

(١) انظر تفسير كنز الدقائق: ج١١، ص٢٨٧؛ نفحات الرحمن: ج٥، ص٣٧٥؛ تقريب القرآن إلى الأذهان: ج٤، ص٥٥٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية٧.

وبذلك يتضح أن المراد بالآيات المحكمة هي الآيات صريحة الدلالة بالنص والظهور والمعصوم عليه السلام، ولا يمكن رفع التشابه إلاّ بهما، فالحجية التامة للمحكم من القرآن والعترة. أما المتشابه فلا يجوز العمل به في حال تشابهه ولكن يجب التسليم والإذعان لها اعتقاداً، وهو ما نص عليه قول الصادق عليه السلام لما سئل عن المحكم والمتشابه فقال: «المحكم ما يعمل به، والمتشابه ما اشتبه على جاهله»[1] ولا يخلو من إشارة إلى أن التشابه أمر نسبي وليس بثابت؛ لاختلاف العارفين فيه، فما يكون متشابهاً عند شخص قد يكون محكماً عند آخر؛ لإحاطته بالقرائن الرافعة للاشتباه؛ لذا وصف الإمام عليه السلام بأنه يشتبه على جاهله لا على الجاهل.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام: «إنَّ الله جل ذكره ... قسَّم كلامه ثلاثة أقسام، فجعل قسماً منه يعرفه العالم والجاهل، وقسماً لا يعرفه إلاّ من صفا ذهنه، ولطف حسه، وصح تمييزه، ممن شرح الله صدره للإسلام، وقسماً لا يعرفه إلاّ الله وأمناؤه والراسخون في العلم»[2] وهو صريح في إمكان معرفة الإحكام ورفع التشابه لمن صفا عقله وزكا قلبه وأحاطه الله تعالى باللوازم والملازمات.

وفي رواية ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «كان الكتاب الأوّل ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وآمر، وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال، فاحلِّوا

---

(١) تفسير العياشي: ج١، ص٨٧، ح٣٨.

(٢) الاحتجاج: ج١، ص٣٧٦؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٩٥؛ البحار: ج٨٩، ص٤٥، ح٣.

حلاله، وحرّموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنّا به كل من عند ربنا»[١] ويستفاد منه أن القرآن له رتبتان:

الأولى: الكتاب وهو ما نزل محكماً على قلب النبيﷺ قبل اطلاع الناس عليه كما أشار إليه قوله: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ**﴾[٢].

والثانية: القرآن، وهو تفصيل الكتاب وإظهاره إلى الناس، واشتمل على تفاصيل الأحكام والتعاليم، ويتضمن التشابه؛ لاشتباهه على جاهله في القراءة، ويعزّزه توصيفه بالقرآن، أي ما يقرأ، فالتشابه حصل في القرآن بقراءة الناس له، وقبل ذلك فهو محكم في ذاته، ومحكم عند رسول اللهﷺ وأوصيائه.

وهناك رتبة ثالثة وهي الفرقان، وتطلق على الآيات المحكمة خاصة. أشار إليها الصادقعليه السلام في رواية ابن سنان قال: سألت أبا عبد اللهعليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أم شيء واحد؟ قال: فقال: «القرآن جملة الكتاب، والفرقان المحكم الواجب العمل به»[٣] ووجه تسميته بالفرقان ظاهر[٤].

فيتحصل: أنّ الوحي الإلهي على ثلاث مراتب هي الكتاب والقرآن والفرقان، والقرآن هو الذي يشتمل على الإحكام والتشابه في الآيات، وأما الكتاب والفرقان فهما محكمان سوى أن الكتاب محكم في ذاته، وأما الفرقان فهو المحكم في ذاته والمتشابه بعد رفع التشابه منه.

---

(١) فتح الباري: ج٩، ص٢٦؛ نفحات الرحمن: ج١، ص٨٢؛ الدر المنثور: ج٢، ص١٤٩.
(٢) سورة هود: الآية ١.
(٣) معاني الأخبار: ص١٩٠، ح١؛ الكافي: ج٢، ص٦٣٠، ح١١.
(٤) انظر مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٣٣، (فرق).

ضرورة وجود التشابه

الحقيقة الثالثة: أنّ وجود التشابه في آيات القرآن ضرورة تقتضيها سنن التكوين والتشريع، ويمكن الإشارة لثلاث منها:

الأولى: لأجل ترسيخ قيمتين في الناس.

أحدهما: العقل والتفكير والتدبر وتفتيح بصيرته ليرى الحقائق بنفسه.

وثانيهما: مرجعية المعصومعليه السلام وبيان أهمية وجوده وأثره في هداية الخلق وتعليمهم وإيصالهم إلى مصالحهم، فإن الأمة بلا معصوم تتخبط في الجهالة وتضيع في الظنون والآراء والأهواء، ولا يمكن أن تبلغ غايتها في الدنيا والدين، وهو ما أشار إليه أمير المؤمنينعليه السلام في رد سؤال الزنديق الذي اعترض على وقوع التشابه في الكتاب العزيز. قال: «إنّما فعل الله ذلك لئلا يدعي أهل الباطل من المستولين على ميراث رسول اللهصلى الله عليه وآله من علم الكتاب ما لم يجعل الله لهم، وليقودهم الاضطرار إلى الائتمار لمن ولّاه أمرهم، فاستكبروا عن طاعته تعززاً وافتراء على الله عزّ وجل، واغتراراً بكثرة من ظاهرهم وعاونهم وعاند الله جلّ اسمه ورسولهصلى الله عليه وآله »[(١)].

الثانية: تبيين فضل العلم ومكانة العلماء وتمايز الناس في المراتب؛ إذ لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما لا يستوي الذين يعلمون والراسخون في العلم، وبهذا يقطع الطريق على المنتحلين للعلم من إقحام

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٣٧٦؛ البحار: ج٨٩، ص٤٦، ح٣؛ ج٩٠، ص١٢٠.

آرائهم في القرآن وفضح المقتحمين منهم في ذلك، فإن كل منصف يرجع إلى ما ورد عن المعصومين عليهم السلام والتابعين لهم من العلماء الربانيين في فهم دلائل الآيات وإدراك غاياتها ومقاصدها يدرك الفرق الكبير بين النهجين في علو المعرفة ودقة الفكر والتطابق في فهم الحقائق الغيبية والحدود والأحكام الإلهية بين القرآن والسنّة والعقل، والذي يراجع كتب التفسير الصادرة عن الفريقين يجد ذلك ماثلاً لديه.

ومعلوم أن القدرة على رفع التشابه تشكيكية، والعلماء فيها على مراتب، وأعلاهم رتبة وأجلهم في ذلك المعصوم عليه السلام، ففي رواية علقمة بن محمد الحضرمي عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث قال: ﴿معاشر الناس! تدبروا القرآن وافهموا آياته، وانظروا إلى محكماته، ولا تتبعوا متشابهه، فوالله لن يبيّن لكم زواجره، ولا يوضح لكم تفسيره إلاّ الذي أنا آخذ بيده ومصعده إليّ وشائل بعضده﴾[1] وفيها إشعار قوي بأنّها وردت بعد واقعة غدير خم، وأنّ المقصود به أمير المؤمنين عليه السلام.

وعن الرضا عليه السلام :﴿من رد متشابه القرآن إلى محكمه هدي إلى صراط مستقيم﴾[2] وهي ظاهرة في تأسيس قاعدة في جواز العمل بالمتشابه بعد رده إلى المحكم، وقرينة الحال تقتضي أن يختص ذلك بالعالمين القادرين على الرد، وقال عليه السلام أيضاً في محكمات السنّة ومتشابهاتها: ﴿فردوا متشابهها إلى

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٧٥؛ البحار: ج٣٧، ص٢٠٩.

(٢) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٩٠.

محكمها ولا تتبعوا متشابهها دون محكمها فتضلوا»[١] وسياقها يفيد إيكال ذلك إلى القادرين عليه.

الثالثة: لأجل اختبار العباد وامتحانهم بها وإظهار الصادقين في إيمانهم وتسليمهم لله ورسوله وتمييزهم عن الكاذبين المعاندين. أشار الباري إلى ذلك في الآية السابقة من سورة آل عمران الواردة في تقسيم الآيات إلى محكمات ومتشابهات. قال عز وجل: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾[٢] فقد جعل علامة لمرضى القلوب والمنحرفين عن الحق، وهي اتباع المتشابه وتأويله بحسب أهوائهم ومشتهياتهم، ويعرف ذلك من اتباعهم للظهورات الشخصية والاستحسانات والميول، والسر في اتباعهم لذلك هو طلب الفتنة، خلافاً لواقع اللغة وفهم العرف النوعي ولضوابط العقل والروايات الشريفة كما سيأتي بيانه في التأويل، ووصف قلوبهم بالزيغ أي الميل عن الحق[٣] دون العقول؛ لأنهم كرهوا الحق وأحبوا الباطل. أما العقول فهي تذعن لحقائق الكتاب، وتقضي بوجوب اتباع المحكم دون

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج٢، ص٢٩٠.

(٢) سورة آل عمران: الآية٧.

(٣) معجم الفروق اللغوية: ص٢٦٩، (١٠٦٧)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٣٨٧، (زيغ).

المتشابه فلا تزيغ؛ لأن غايتها الوصول إلى الواقع، وذلك يدرك باتباع المحكم لا المتشابه.

فالقلوب متقلبة حسب الميول والأهواء بخلاف العقول، ولذا قال في ذيل الآية: ﴿**وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الأَلْبَابِ**﴾ أي العقول وصفتهم أنهم يذعنون لكل آيات الكتاب، ويسلِّمون بأنّها من عند ربهم ولكنهم يعملون بالآيات المحكمة، ويرجعون في الآيات المتشابهة إلى الله والراسخين في العلم، وهذه هي صفة الإيمان الصادق.

فالآيات المتشابهة محك يعرض عليه الناس؛ لتمييز أهل الزيغ والنفاق والمتظاهرين بالإيمان الذين يتبعون أهواءهم عن الصادقين المخلصين الذين يتبعون عقولهم والراسخين في العلم.

ومن ذلك نستخلص نتيجة وهي أن آيات الكتاب العزيز ثلاث: هي المحكمة ويجب الإذعان لها والعمل بها لعموم الناس، والمتشابهة ويجب الاذعان لها ولا يجوز العمل بها إلّا برفع التشابه بالرجوع إلى الراسخين في العلم، والآيات التي تكون محكمة للبعض ومتشابهة للبعض الآخر، فالأول يعاملها معاملة المحكمة والثاني معاملة المتشابهة.

إن قلت: إن هذه النتيجة تؤيد المنهج الذاتي في تفسير القرآن؛ لأن إرجاع المتشابهة إلى المحكمة من تفسير القرآن بالقرآن وقد قلتم بعدم تماميته.

فالجواب من وجهين:

الوجه الأول: أنّ الإرجاع أعم من القرآن؛ لأن المدار على رفع التشابه بأي وسيلة كان، فربما ارتفع بإرجاع آية إلى آية كما في قوله تعالى: ﴿**وُجُوهٌ**

يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۞ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١] الظاهرة في الرؤية البصرية التي يحكم العقل بامتناع نسبتها للباري عزّ وجل، فترجع إلى قوله تعالى: ﴿**لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ**﴾[٢] النافية للرؤية البصرية فتحمل على رؤية القلب والبصيرة، أو على الرؤية العقلية، أي رؤية الاستدلال والنظر، والأول أوفق لقوله تعالى: ﴿**مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى**﴾[٣] الصريح في أن للفؤاد رؤية، وأن لرؤيته خصوصية وهي الملازمة للصواب، بخلاف رؤية العقل والبصر فإنّهما قد يخطآن، ونلاحظ أن الجمع الدلالي بين الآيات مع القرينة العقلية يوصلنا إلى رفع التشابه.

ويمكن رفعه بالرجوع إلى الروايات، وقد اتفقت على حملها على مجاز التقدير والمجاز في الكلمة فنصت على أنّ المراد بالرب رحمة الرب، والمراد بالنظر إليه الأمل برحمته وثوابه[٤]، ولما أعرض العامة عن هذه الحقيقة وقع بعضهم بالتجسيم في بيان معنى الآية[٥]، وربما يرجع إلى القرينة العقلية في رفع التشابه كما في الواو في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[٦] فإنّها مرددة بين العاطفة فتفيد أن الذين يعلمون

---

(١) سورة القيامة: الآية ٢٢- ٢٣.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

(٣) سورة النجم: الآية ١١.

(٤) انظر تفسير القمي: ج٢، ص٣٩٧؛ التوحيد: ص٢٦٢، ح٥؛ الاحتجاج: ج١، ص٥٦٨، محاجة (١٣٧).

(٥) انظر مجمع البيان: ج١٠، ص١٩٨.

(٦) سورة آل عمران: الآية٧.

التأويل هم الله سبحانه والراسخون في العلم، والاستئنافية فتنفي علم التأويل عن غير الله، والأول هو قول أصحابنا، والثاني قول العامة[١]، وكل منهما يستند إلى الظهور، وحيث يقع التردد في المعنيين يحصل التشابه، ويتم رفعه بالقرينة العقلية من جهتين:

الأولى: أنّ حصر العلم بتأويل الكتاب بالله سبحانه وحده يصيّر وروده في الكتاب بلا فائدة، وهو مساوق للّغوية التي تتنزه عنها حكمة الحكيم.

الثانية: لو حصر الباري علم التأويل به فلا يخلو إما أن يعلِّم النبيﷺ به أو لا فإن كان الأول ثبت أن الواو عاطفة؛ لأنه سيد الراسخين في العلم، وإن لم يعلِّمه إياه ثبتت اللغوية.

وبهذا يتضح صدق الروايات المتضافرة بطرقنا الدالة على أن الراسخين بالعلم يعلمون التأويل[٢]، وتبطل بعض الروايات الواردة بطرق العامة التي تنفيه[٣].

الوجه الثاني: أننا لم ننف صحة المنهج الذاتي في الجملة، وما أوردناه هو دعوى الاستغناء عن غير القرآن من القرائن في فهم معاني الآيات، ولم ننكر أن بعض الآيات تفسِّر بعضها البعض، وبه وردت روايات أيضاً، فليكن إرجاع المتشابه إلى المحكم من هذا القبيل.

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٢، ص٢٤١.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج١، ص٢٩٣، ح٦٤٨؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٩٥.

(٣) انظر الدر المنثور: ج٢، ص١٤٩.

إن قلت: إن الإقرار بوجود التشابه يتنافى مع القرآن الذي نص على أنه بيان للناس وأنّ فيه تبيان كل شيء.

فالجواب: لا تنافي؛ لأنّ كونه بياناً للناس وفيه تبيان لكل شيء لا يدل على أن كل ما فيه محكم لاسيّما بعد نص الآية على انقسام الآيات إلى قسمين، فالمتشابه يكون بياناً للناس وتبياناً لكل شيء بعد رجوعه إلى المحكم ورفع التشابه عنه، والأمر جلي.

والقول بأنّ بعض الآيات كانت ولا زالت متشابهة فهي متشابهة حدوثاً وبقاءً نظير مفتتحات السور والحروف المقطعة ضعيف؛ لأن هذه الآيات معلومة عند الراسخين بالعلم، وقد وردت روايات كثيرة في بيان معانيها كما سنشير إليه في تفسير سورة يس، فهي متشابهة حدوثاً لا بقاءً.

القضية الثالثة: الظهور والبطون والتفسير والتأويل

وهذه من القضايا المهمة التي نص عليها القرآن والسنّة في نصوص كثيرة، ويقوم عليها فهم الآيات والروايات، وتحل بها معضلات علمية كبيرة، ولا يمكن للمفسِّر والباحث في المعارف القرآنية أن يغفل عنها، وهي تستدعي دراسة مستقلة وافية لكننا سنشير إليها بمقدار ما تسع له المقدمة.

والتأويل في اللغة والعرف مأخوذ من الأوْل أي الرجوع إلى الأصل[١]، ومنه تأويل الكلام أي عاقبته وما يؤول إليه[٢]، وقد أطلق في القرآن والسنّة

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٩٩، (أول).

(٢) معجم مقاييس اللغة: ص٨٣، (أول).

في مقابل التفسير والتنزيل، ونصّا على أنه من العلم الخاص الذي لا يعلمه إلّا الراسخون في العلم وهم محمد وآل محمدعليهم السلام ومن يأخذ منهم، ولم يحددا معناه مما يدل على أنهما أوكلاه إلى الفهم العرفي.

فكل آية في كتاب الله نزلت بألفاظها ومعانيها لها تفسير يمكن الوصول إليه بواسطة العبارة، ولها معان خفية لا يصل إليها إلّا الراسخون في العلم، وهم الذين يعلمون بالشيء بدلائل كثيرة تورث اليقين، أو بضرورة لا يمكن إزالتها[1]، ولذا وصف علمهم بالرسوخ أي الثبوت والاستقرار، وهم أخص من العلماء؛ لأن علم العلماء منحصر بالدليل الموصل إليه، ومثله لا يكون راسخاً؛ لأن الدليل الموصل إلى العلم قابل للخطأ والاشتباه، فرب علم هو جهل مركب.

قواعد لتأويل الآيات

وتأويل الكتاب لا يباين التفسير ولا يضاده، وإنما يكمله ويشير إلى المعاني التي لا تستظهر من العبارة وإنما تفهم بواسطة الإشارات والتلويحات التي يلمح لها اللفظ، ولا يدركها إلّا ذوو العقول العالية، ويمكن التوصل إلى المعاني المؤولة في الآية عبر دلائل عديدة عمدتها ثلاثة:

الأول: إرجاع المعنى إلى الأصل.

الثاني: الرجوع إلى غاية المعنى الظاهر.

الثالث: الرجوع إلى الاشتراك في الأثر.

(١) معجم الفروق اللغوية: ص٢٥٥، (١٠٠١).

ومن باب المثال المقرّب مفردة (آل النبيﷺ) فإنها تطلق على ثلاثة أصناف من الناس.

الأول: ذرّيته وعترته باعتبار أنهﷺ أصلهم الوجودي، وبهذا الاعتبار تؤول العترة وسائر السادة الأشراف بالنبيﷺ باعتبار رجوعهم إليه في الأصل، فهم أبناؤه النسبيون.

والثاني: العلماء الربانيون والراسخون بالعلم باعتبار رجوعهم إليه في العلم والأخلاق، فهم أبناؤه الروحيون.

والثالث: عموم المسلمين باعتبار رجوعهم إليه في الدين والعقيدة والعمل، فإنهﷺ وعليعليه السلام أبوا هذه الأمة تكويناً وتشريعاً.

ويمكن أن تجتمع هذه الثلاثة في بعض الأشخاص كما اجتمعت في الأئمة الأطهارعليهم السلام؛ لذا صار وجودهﷺ وجودهمعليهم السلام، ووجودهم وجوده.

وأعلى مراتب الأبوة هي الثانية ثم الثالثة ثم الأولى، وبعضهم أدرج الثالثة في الثانية فيكون التأويل على قسمين فقط، ومن هنا قال بعض أهل الكمال: أنّ آل النبيﷺ كل من يؤول إليه وهم قسمان:

الأول: من يؤول إليه مآلاً صورياً جسمانياً كأولاده ومن يحذو حذوهم من أقاربه الصوريين الذين يحرم عليهم الصدقة في الشريعة المحمدية.

والثاني: من يؤول إليه مآلاً معنوياً روحانياً وهم أولاده الروحانيون من العلماء الراسخين والأولياء الكاملين والحكماء المتألهين المقتبسين من مشكاة أنواره، ولا شك أن النسبة الثانية آكد من الأولى، وإذا اجتمعت النسبتان كان نوراً على نور كما في الأئمة المشهورين من العترة الطاهرةعليهم السلام، وكما حرم على الأولاد الصوريين الصدقة الصورية كذلك حرم على الأولاد

المعنويين الصدقة المعنوية. أعني تقليد الغير في العلوم والمعارف[١].

وبذلك يتضح أن التأويل ليس مناقضاً للتفسير ولا ينفصل عنه، بل هو مكمل له؛ لأن التأويل يستفاد من إشارات الكلام لا من ظهوره، وقد قصده المتكلم بالكلام، لكنه من حيث المآل مرجع الكلام أو قصده من حيث الغاية لكنه متأخر عنه في الظهور.

ومن هنا اتفق المحققون من المفسرين والفقهاء والأصوليين والمتكلمين على إطلاق التأويل على حمل الآية على خلاف معناها الظاهر؛ بسبب وجود المانع العقلي أو الشرعي، وتفسيرها بمعنى خفي يشترك مع المعنى الظاهر في الأصل أو الغاية أو الأثر أو باثنين منها أو بجميعها نظير قوله تعالى: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ فإنها ظاهرة في وجود عرش مادي يجلس عليه صاحبه، ولكن حيث يصطدم هذا المعنى مع دليل العقل القاضي بامتناع الجسم والجسمية على الرحمن، والدليل النقلي القاضي بأنه سبحانه ليس بجسم وليس له شبه ولا مثل، ولا يكون في مكان فتحمل الآية على معنى آخر للعرش يطابقه في الأصل والأثر والغاية، وهو القدرة والسلطة الإلهية، وهو العرش المعنوي؛ إذ يتفق مع العرش المادي في الأصل؛ لرجوعه إلى أمر الله وقدرته، ويشترك معه في الغاية؛ لأن غاية الآية بيان سعة قدرة الله ونفوذ سلطته في الأشياء، كما يشترك معه في الأثر وهو نفوذ أمره وحكمه في الأشياء.

---

(١) مجمع البحرين: ج٥، ص٣١٣- ٣١٤، (أول).

فقول البعض بالتفكيك على خلاف التحقيق[١]، وكذا ذهاب بعض المفسرين إلى مساوقة التفسير والتأويل كما قد يستظهر من قول بعضهم تأويل الآية كذا لدى تفسيرها[٢].

التأويل المعتبر

ونلفت الأنظار إلى حقيقة خلاصتها: أنَّ التأويل في القرآن الكريم قسمان: أحدهما معتبر والثاني غير معتبر؛ إذ قال سبحانه: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[٣] وبه أشار إلى أن التأويل الذي يستند إلى الميول والأمزجة والظنون الشخصية باطل، ومنشؤه مرض القلب والانحراف، وقد تقدم بيانه في الظهور الشخصي، بخلاف التأويل الذي يستند إلى الله وإلى الراسخين في العلم، فلا يصح لكل أحد أن يتصدى للتأويل ما لم يستند إلى الله والراسخين في العلم، وهم النبي والأئمة عليهم السلام والذين يأخذون منهم من العلماء الربانيين، فالآية لا تنفي إمكانية التأويل بل تحدده بقسم خاص من الناس وهم الذين يستندون إلى الدلائل والإشارات اللطيفة في الآيات للوصول إلى المعاني الخفية بالاعتبارات

(١) انظر تفسير الميزان: ج٣، ص٢٥؛ منهاج البيان: ج١، ص٢٨.

(٢) جامع البيان: ج١، ص١٩٩؛ ج٢، ص١٢٦؛ ج٦، ص٩٨؛ كشاف اصطلاح الفنون والعلوم: ج١، ص٣٧٦؛ انظر منهاج البيان: ج١، ص٢٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية٧.

الثلاثة التي ذكرناها. وهو ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام فيما ورد عنه: «لا يعلم تأويله إلّا من لطف حسه وصفا ذهنه وصح تمييزه»(١).

وقد اطلق القرآن التأويل على جملة قضايا تعزز هذه الحقيقة:

منها: قضية موسى والخضر عليهما السلام.

فقد فعل الخضر عليه السلام ثلاث قضايا تعد بحسب الظاهر كبائر هي خرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار، وكلها اعترض عليها موسى عليه السلام ولكن الخضر عليه السلام بيّن له وجود دواع وأسباب خفية لفعله وصفها بالتأويل؛ إذ قال: ﴿**ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا**﴾(٢) وقال: ﴿**أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ۝ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ**﴾(٣).

ونلاحظ أن المبررات التي ذكرها الخضر كلها تعود إلى الغاية الأهم التي تبيح ترك المهم، فإنّ إعابة السفينة لأجل حفظها من المصادرة غاية يفعلها كل العقلاء حتى المساكين، فهو في باطن فعله محسن وإن كان ظاهر الفعل أنه تصرف في مال الغير.

---

(١) الاحتجاج: ج١، ص٥٩٦، محاجة (١٣٧)؛ نور الثقلين: ج٦، ص٨٢، ح٢٣٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٣) سورة الكهف: الآيات ٧٩-٨٢.

وقتل الغلام بدنياً أهون من قتله روحياً بالكفر والطغيان عليه وعلى والديه، فبالقتل حفظت حياته وحياة والديه الروحية، خصوصاً مع وجود التعويض الأفضل بولد صالح يبرهما، ويكون لهما زكاة.

وإقامة الجدار لأجل حفظ كنز اليتيمين إحسان لهما، وهو أهم من قبح التصرف في شؤونهما.

ويتلخص: أن القرآن عبَّر عن إرجاع الفعل إلى غاياته الأهم بالتأويل، ولكن معرفة الغاية ليست متاحة لكل أحد ما لم يكن محيطاً عالماً مطلعاً على الخفايا والأسرار، أو قادراً على قراءة ما وراءها، وهو المعبر عنه بالرسوخ في العلم.

ومنها: ما ورد في قصة يوسف عليه السلام؛ إذ وصف صدق الرؤيا التي رآها يوسف عليه السلام من سجود أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له، وتحققها في الخارج بالتأويل، وأشار إلى أنّ ربه جعل هذه الرؤيا حقاً. قال تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ**﴾[1] ولما تحققت قال: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً**﴾[2] وهو من رجوع الواقع إلى الصورة التي رآها يوسف في منامه، فتطابق الوجود العيني بالوجود الذهني، ولذا وصفها بالحق؛ لأنه من مطابقة الخارج للصورة الحاصلة في مقابل الصدق الذي هو مطابقة الصورة للواقع[3]،

(١) سورة يوسف: الآية ٤.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠٠.

(٣) انظر معجم الفروق اللغوية: ص١٩٤، (٧٧٣).

وهو نوع من رجوع الشيء إلى أصله؛ لأن الأصل الرؤيا التي رآها يوسف ثم تحققت في الواقع.

وقريب منها ما ورد في رؤيا الملك سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات، ولما سأل عن تعبير رؤياه قالوا له: ﴿**أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ بِعَالِمِينَ**﴾[(١)].

وكذا رؤيا صاحبيه اللذين دخلا معه السجن فرأى أحدهما يعصر خمراً ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، فسألا يوسف عن تعبير ما رأيا وقالا: ﴿**نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ**﴾ ونسب علمه بالتأويل إلى تعليم الله سبحانه له. قال: ﴿**ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي**﴾[(٢)] وقد تحققت جميع القضايا التي أشارت إليها الرؤى الثلاث، ووصفت بالتأويل؛ لأنها من رجوع الشيء إلى أصله، والملفت أنه في الجميع نسبها إلى العلم والتعليم الإلهي؛ للإشارة إلى أنه ليس مهمة كل أحد.

ومنها: ما ورد من تحقق إخبارات الأنبياء عن يوم القيامة وتحذير الناس من مشاهدها. عبَّر عنها بالتأويل، وهو من رجوع الخبر إلى الواقع، وهو الأصل، فيكون تأويله من رجوع الشيء إلى أصله[(٣)].

ومنها: ما ورد في الأمر بالقسط في الوزن والكيل؛ إذ قال سبحانه: ﴿**وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذا كِلْتُمْ وَزِنُواْ بِالقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾[(٤)].

---

(١) سورة يوسف: الآية٤٤.

(٢) سورة يوسف: الآيات٣٧.

(٣) انظر سورة الأعراف: الآيات ٥٢-٥٣؛ سورة يوسف: الآيات ٣٧-٣٩.

(٤) سورة الإسراء: الآية ٣٥.

ووجه التأويل يعود إلى وجوهه الثلاثة، أي رجوع الشيء إلى أصله وغايته ووحدة أثره؛ لأن الذي لا يفي بالكيل والوزن ماذا يريد؟ أنه يريد تحصيل النفع وزيادة المال.

وهو مبني على توهم أنّ ذلك من حقه، وربما يجد له مبررات غالباً ما يذكرها الباخسون، لكن الباري عزّ وجل أمر بالوفاء بالكيل والعدل في الوزن؛ لأنه الحق الذي لأجله وضع الكيل والوزن، وهو سبب حفظ الحقوق ووصول كل شخص إلى غايته؛ لذا قال عنه بأنه: ﴿**خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾.

وتتحصل من الآيات الشريفة نتيجتان:

الأولى: أن التأويل والتفسير مترابطان سوى أن التفسير يتعلق بالدلالة الظاهرة المستندة إلى العبارة، وأما التأويل فيتعلق بالدلالة الخفية المستندة إلى الإشارة، كما أن التفسير يدور على الظهور اللفظي، والتأويل يدور على التلازم العقلي.

الثانية: أن التفسير مما يمكن بلوغه عبر العلوم الاكتسابية بالرجوع إلى اللغة والعرف وظواهر الروايات والإدراكات العقلية والحسية. أما التأويل فلا يمكن بلوغه إلّا بطريقين:

أحدهما: التعليم الإلهي عبر الإلهامات والإيحاءات وما يقذفه الباري عز وجل في القلوب.

ثانيهما: الإحاطة بالأشياء وأسرارها، ولذا لا يبلغه إلّا نبي أو وصي نبي أو عالم رباني.

وهذا ما أشارت إليه الروايات.

منها: قول الصادقعليه السلام: ﴿كتاب الله على أربعة أشياء العبارة والإشارة واللطائف والحقائق، فالعبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء﴾[١] وسيأتي بعض البيان لذلك.

وعن أمير المؤمنينعليه السلام: ﴿ما من آية إلّا ولها أربعة معان: ظاهر وباطن وحد ومطلع، فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحد هو أحكام الحلال والحرام، والمطلع هو مراد الله من العبد بها﴾[٢].

والتلاوة أي ما تقرأ في ظاهرها اللفظي، وهي العبارة التي أشار إليها حديث الصادقعليه السلام، والباطن هو المعنى الخفي الذي يحتاج إلى فهم واستنتاج عقلي واستعانة بالعلوم، وهي الإشارة في حديث الصادقعليه السلام.

أما الحد وأحكام الله سبحانه فلا تعرف من العبارة والإشارة؛ لخلوهما من تفاصيل الأحكام، فلذا تختص بالأولياء، وأما فهم مراد الله سبحانه في الأحكام والمعارف والأخلاق فهي الحقائق الثابتة التي أرادها الله لعباده في كتابه، وهذه لا يعرفها إلّا الأنبياء، وحيث إن المنصرف من كتاب الله والمعتضد بالقرائن العقلية والنقلية هو القرآن يحمل الأنبياء بصيغة الجمع على من كان في مقامهم وهم الأئمةعليهم السلام.

---

(١) الدرة الباهرة: ص٣١؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١٠.

(٢) تفسير الصافي: ج١، ص٢٨؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١١١.

ولذا سماها بالمطلع، وهو بالتخفيف محل طلوع الشيء وظهوره، ومنه قوله تعالى: ﴿سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[١] وبالتشديد محل الإشراف والاطلاع على الشيء من مكان عال[٢]، ولا يبلغ الأول في المعنويات إلّا من زالت عن بصره وبصيرته الحجب، ولا يبلغ الثاني إلّا من ارتقى وأشرف على الأشياء وعلم أسرارها، وهي خصوصية لا يملكها إلّا المعصوم عليه السلام.

وبذلك يتضح أنّ إدراك معاني القرآن لها أربع مراتب من الأدنى إلى الأعلى:

العوام ولهم التفسير، والخواص وهم العلماء ولهم التأويل، والأولياء وهم العلماء الربانيون الذين رسخوا بالعلم ولهم اللطائف، وهي رتبة أعلى في التأويل، ثم المعصومون عليهم السلام ولهم الحقائق.

والتأويل يشمل المراتب الثلاثة ما عدا التفسير.

وذلك يرجع إلى حقيقة التكوين، فإن الأشياء لها عوالم ونشآت، وفي كل عالم لها صورة ومعنى وتجلّ في الوجود يظهر للقوة المدركة المناسبة من الحس والعقل والقلب، فالرزق مثلاً له في الوجود الحسي مظهر وتجلّ يظهر في الحنطة والخبز والمال وله في السماء تجلّ آخر؛ إذ قال سبحانه: ﴿وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٣] وهو تقدير أسبابها كالمطر، أو بتقديرها ثم بسطها كما ورد عن الإمام المجتبى عليه السلام[٤] وللرزق السماوي تجلّ آخر

---

(١) سورة القدر: الآية ٥.

(٢) مجمع البحرين: ج٤، ٣٦٨-٣٦٩، (طلع)؛ المعجم الوسيط: ج٢، ص٥٦٢، (طلع).

(٣) سورة الذاريات: الآية ٢٢.

(٤) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧١.

للعقول هو العلوم والمعارف والألطاف، وللقلوب البصائر والحب والبغض فإن للأبدان أرزاقاً وكذا للنفوس، بل لكل شيء رزق مقسوم، وهو ما به قوامه وبقاؤه ونموه، ونلاحظ أن معنى الرزق واحد لكنه يختلف بحسب مراتبه الوجودية.

وعلى هذا يكون الرزق المادي هو المعنى الظاهر الذي يدركه العرف وكل من يفهم اللغة، ورزق معنوي يدركه الخواص وأهل الاختصاص وهو باطن، وهناك رزق أعمق بطناً من الأول، وهو باطن الباطن وهو ولاية أمير المؤمنينعليه السلام، والرزق ينطبق عليها جميعاً بالانطباق الحقيقي لا المجازي؛ لأن الألفاظ موضوعة للمعاني الحقيقية الواقعية، وحقيقة الرزق في الواقع ذات مراتب ظاهرة وباطنة، وكل واحدة لها مراتب.

وبذلك يتضح معنى الكثير من الروايات التي فسرت الآيات بمعان قد تبدو لغير المتفطنين غريبة لكنها بحسب ما ذكرناه تبدو دقيقة.

كما ورد عن الصادقعليه السلام في معنى قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ**﴾[1] أنَّه الحسن بن عليعليه السلام أمر بالكف عن القتال والصلح، وأما قوله: ﴿**فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ**﴾ قال: «هو الحسين بن عليعليه السلام كتب عليه القتل، والله لو برز معه أهل الأرض لقتلوا»[2] ومثله ما ورد في قوله تعالى: ﴿**وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ**﴾ أن

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٧.

(٢) انظر تفسير العياشي: ج١، ص٢٥٨؛ تفسير البرهان: ج١، ص٦، ح٧.

الإنسان رسول الله صلى الله عليه وآله، وأن والديه الحسن والحسين عليهما السلام[1]، كما يتضح معنى قولهم عليهم السلام: «إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرف على وجوه»[2] لأنه ناظر إلى اختلاف مراتب المعاني وتفاوت مراتب العارفين.

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٩٧.
(٢) الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٢، ح٣٣٥٧٢.

المبحث الرابع عشر: في ظهر القرآن وبطنه

ويتضمن حقيقتين:

الحقيقة الأولى: التأويل والتجدد

تضافرت الروايات في وصف التأويل بالبطن والتفسير بالظهر. منها ما ورد عن الباقر عليه السلام: «ظهره تنزيله وبطنة تأويله»[١] كما تضافرت في بيان أن للبطن بطوناً وبعضها ذكر سبعة بطون[٢]، وبعضها أكثر من ذلك، وهي متواترة معنىً، وتضافرت أيضاً في أن كل آية لها ظهر وبطن، وفي رواية فضيل بن يسار قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الرواية: «ما من القرآن آية إلّا ولها ظهر وبطن»[٣] والإثبات بعد النفي يفيد التأكيد والشمول حتى في مثل (ق) و(ن) و(يس) وغيرها من آيات الحروف المقطعة.

فقال عليه السلام: «ظهره تنزيله، وبطنه تأويله، منه ما قد مضى، ومنه ما لم يكن يجري كما يجري الشمس والقمر، كلّما جاء تأويل شيء منه يكون على الأموات كما يكون على الأحياء. قال الله: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ نحن نعلمه»[٤].

وهي صريحة في أن باب التأويل مفتوح ومتجدد عبر الزمان كتجدد الشمس والقمر من حيث الإفاضات والآثار وإن كانا من حيث الحقائق ثابتين، ولذا قال يجري على الأموات والأحياء.

---

(١) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ تفسير الصافي: ج١، ص٢٧.

(٢) تفسير الصافي: ج١، ص٥٢.

(٣) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٦، ح٣٣٥٨٠، ج٨٩، ص٩٤، ح٤٧؛ ص٩٧، ح٦٤.

(٤) بصائر الدرجات: ص٢١٦، ح٧؛ البحار: ج٨٩، ص٩٧، ح٦٤.

وأما التنزيل وهو التفسير فيقوم على الظاهر، ولذا وصفه بالظهر؛ لأنه يعتمد الدلالة المطابقية والتضمنية والتلازمية الظاهرة، ووصفه بالظهر في مقابل البطن إما لأن الظهر من الظهور، أو لأن الظهر لا يكشف عن واقع الشيء إلّا بالشكل البدوي الأولي. أما لب الشيء وجوهره وخصوصياته فتعرف من بطنه، ولذا يعبر عن كل ما يخفى ويتوقف دركه على فهم عميق بطن، ويعتمد الدلالات التلازمية الخفية كالإشارة والإيماء والاقتضاء، أو فهم وحدة الملاك، أو أقوائيته، أو فهم خصائص الكلمات والحروف وعلم الحساب والأعداد، أو خصائص الأشياء وآثارها، إلى غير ذلك من أدوات يستعان بها لفهم المعاني الخفية للآية، وهذا علم لا يتوقف على العلوم الاكتسابية فقط، بل يفتقر إلى طهارة باطنية، ونورانية في القلب، ونقاوة في الروح، وتهذيب في الملكات، وتشبّه بالخالق العظيم وأوليائه في الفضائل حتى يكون الذهن والقلب محلاً للفيوضات والإلهامات الإلهية، ولذا كان علماً خاصاً، واتصف أهله بالراسخين في العلم لا العلماء.

وليس علم التأويل مأخوذاً من خارج القرآن، بل جذوره وأصوله في القرآن، ولكن تقصر عنه عقول الرجال، ففي رواية المعلّى بن خنيس قال: قال الصادقعليه السلام: «ما من أمر يختلف فيه اثنان إلّا وله أصل في كتاب الله ولكن لا تبلغه عقول الرجال»[١].

وفي رواية أخرى عنهعليه السلام قال: «إنّ الله أنزل في القرآن تبيان كل شيء حتى والله ما ترك الله شيئاً يحتاج إليه العباد حتى لا يستطيع عبد يقول: لو

---

(١) المحاسن: ص٢٦٥، ح٣٥٥؛ الكافي: ج١، ص٤٩، ح٦.

كان هذا أنزل في القرآن إلّا وقد أنزله الله فيه﴾[١] فالقرآن كامل المضامين في نزوله، وخطابه عام لجميع الخلق بما فيهم النبي والأئمة عليهم السلام، ولكل واحد من البشر أن يدرك منه ما يسعه ويبلغه عقله وقلبه.

وعلوم القرآن كلها مجموعة في صدور النبي والأئمة عليهم السلام، ثم من بعدهم يأتي الأدنون رتبة منهم من العلماء الربانيين الذين تشبهوا بهم في الصفات والملكات، وقد ورد بطرق العامة عن ابن مسعود قال: إن القرآن نزل على سبعة أحرف ما منها حرف إلّا وله ظهر وبطن، وإنّ علي بن أبي طالب عنده منه علم الظاهر والباطن﴾[٢] وقريب منه ورد عن ابن عباس[٣]، وقال في ذلك الغزالي: إن هذه المرتبة لا تنال بمجرد العلم، بل يتمكن المرء في هذه الرتبة بقوة العلم اللدني[٤].

وقد ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في بيان معاني القرآن الظاهرة والباطنة ما يبهر العقول، وقال عليه السلام لما حكى عهد موسى على نبينا وآله عليهما السلام: ﴿إن شرح كتابه كان أربعين جملاً لو أذن الله ورسوله لي لأشرع في شرح معاني ألف الفاتحة حتى يبلغ مثل ذلك. يعني أربعين وقراً أو جملاً﴾[٥].

فإذا كان ما في حرف واحد من كلمة من معان وعلوم ومعارف هكذا فما بالك بالقرآن كله، ومعلوم أن هذا ما لا تتحمله عقول البشر؛ لذا لا

---

(١) الكافي: ج١، ص٥٩، ح١؛ البحار: ج٦٥، ص٢٣٧.
(٢) حلية الأولياء: ج١، ص٦٥؛ وانظر تفسير الثعالبي: ج١، ص٥٣.
(٣) مناقب آل أبي طالب: ج٢، ص٤٣.
(٤) انظر البحار: ج٨٩، ص١٠٤، ح٨٣؛ نفحات الرحمن: ج١، ص١١٣.
(٥) البحار: ج٨٩، ص١٠٤، ح٨٣.

يؤذن بنشره حتى للمعصوم، وإنما يكتفى بما يحتاجه الخلق فيقيم صلبه في المعرفة والأخلاق والأحكام.

وعن الباقر عليه السلام قال: ﴿لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عزّ وجل حَمَلَة لنشرت التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد﴾[١].

ولعل هذا من موارد العلوم التي يفتح في كل باب منها ألف باب، ولا يمكن للإنسان العادي مهما أوتي من العلم أن يستنبط من كلمة واحدة مثل (الصمد) كل هذه المعاني والحقائق الاعتقادية والعلمية، ولكن بمراجعة اللغة ومواطن استعمال الصمد قد يجد المتأمل فيها إشارات ولطائف تلوح إلى هذه المعاني لا يدركها إلّا الراسخون في العلم، فإن الصمد السيد المتفوّق في السؤدد الذي يصمد إليه الناس، ويقصدونه في حوائجهم وأمورهم، ويلجؤون إليه في الشدائد، ومنه يرجون الرخاء ودوام النعمة[٢]، وكل صفة من أوصافه تتضمن إشارات إلى العقول لتحكم بوجوب الاعتقاد والإيمان والعمل على نشر الدين.

وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: ﴿ليس شيء بأبعد من قلوب الرجال من تفسير القرآن، وفي ذلك تحيرّ الخلائق أجمعون إلّا من شاء الله ... فافهم ذلك إن شاء الله، وإيّاك وتلاوة القرآن برأيك، فإن الناس غير مشتركين في علمه كاشتراكهم فيما سواه من الأمور، ولا

---

(١) التوحيد: ص٩٢، ح٦.

(٢) مجمع البحرين: ج٣، ص٨٨، (صمد)؛ مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٤٩٣، (صمد)؛ المعجم الوسيط: ج١، ص٥٢٢، (صمد).

قادرين عليه ولا على تأويله إلّا من حدِّه وبابه الذي جعله الله له، فافهم إن شاء الله، واطلب الأمر من مكانه تجده إن شاء الله»[(١)] وحدّه وبابه هم النبي والأئمة عليهم السلام.

وإليه أشارت رواية جابر بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث محامد أهل بيته عليهم السلام قال: «نحن معدن التنزيل ومعنى التأويل»[(٢)].

إشارات البطون

ويتحصل من مجموع الروايات: أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وظاهره تفسيره وباطنه تأويله، ولباطنه بطون عديدة، وكلها مودعة في آياته وعليها إشارات يدرك بعضها العلماء وبعضها الراسخون في العلم، ويمكن تقريب هذه الحقيقة إلى الأذهان ببعض الأمثلة:

منها: قوله تعالى: ﴿**قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[(٣)] فإنّها دالة على خمس دلالات بعضها ظاهر، وبعضها باطن للظاهر، وبعضها باطن للباطن.

الأولى: خطاب وجهته النملة لجماعة النمل في دخول مساكنهم حذراً من الهلاك بجنود سليمان عليه السلام، وهذا ظاهر من منطوق الآية بالدلالة المطابقية.

(١) المحاسن: ص٢٦٨، ح٣٥٦؛ البحار: ج٨٩، ص١٠٠، ح٧٢.

(٢) مشارق أنوار اليقين: ص٤٠؛ البحار: ج٢٥، ص٢٢، ح٣٨.

(٣) سورة النمل: الآية١٨.

الثانية: أنّ للنمل عقلاً وشعوراً ومنطقاً، وله سمعاً وفهماً واستجابة للكلام، وهذا معنى أعمق من الظاهر يفهم بالدلالة التلازمية.

الثالثة: وهي كالثانية أن النمل يعرف سليمان عليه السلام ويؤمن به ويقر بنزاهته من الظلم؛ لذا بررت تحطيمه للنمل بعدم الشعور.

الرابعة: أنّ النمل لا يموت قتلاً ولا موتاً بالمرض، بل بالتحطيم، أي الكسر[1] إذا سحقتها الجنود، وهذا ما أكدته الدراسات الفيزياوية لجسم النملة، وتوصلت إلى أنه مصنوع من مواد زجاجية، وهذا معنى أعمق من الثاني والثالث يدركه من أحاط بالعلم والمعرفة عن حياة النمل.

الخامسة: ما تضمنه خطابها من دلائل عظيمة لا تستظهر من المعنى البدوي للآية وإنما من الإشارات والتنبيهات، فهي أحست بقدوم سليمان عليه السلام وجنوده، وبادرت بالإخبار شعوراً منها بالمسؤولية، ونادت ونبهت جماعتها وأمرتها بالدخول، ونهتها عن البقاء في الخارج تخلصاً من الهلاك، وأعذرت سليمان عليه السلام وجنوده، فبكلام واحد أشارت إلى معان كثيرة، فقالت ﴿**يَا أَيُّهَا النَّمْلُ**﴾ ولم تقل (يا نمل)؛ لأن في (أيّها) تنبيه لسائر النمل في الوادي لكي تجلب انتباه الجميع، ولا يفوت بعضها النداء والحذر فيصاب بالتحطيم، بخلاف (ياء) النداء فإنه لا يمنع من وجود الغفلة في بعض المنادى.

وفي (ادخلوا) ضمير العقلاء يشير إلى وجود العقل بين المتكلم والسامع، وأن المتكلم يدرك الخطر وآثاره ويتنبأ بالمستقبل، والسامع

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٢٤٢، (حطم).

يعي ويدرك النصيحة، ثم قوله: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ يشير إلى أن للنمل مساكن وبيوتاً يستقر بها ويسكن فيها، ولا يعيش في بيوته جماعات، بل غرف خاصة، ومن قوله: ﴿سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ يستفاد أن النمل ليس من جنود سليمان عليه السلام بالرغم من أن جنده كانت متنوعة ومختلفة، كما أن أمرها ونهيها قد يشعر بأنها كانت ذات مكانة فيها، ولعلها الملكة التي تملك كل هذه الصلاحيات، وهذا معنى أعمق من الرابع مستفاد من ألفاظ الآية وإشاراتها.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[1] وهي بحسب سياقها التفسيري تعني الخالق عزّ وجل؛ لأنّ الآية التي قبلها أشارت إلى نفخ الصور وحشر الناس إلى معادهم، لكن الروايات دلت على أن المراد برب الأرض إمام الأرض، وهو معنى خفي قد لا يستظهر من الآية بدواً، وفي بعضها أنّ المراد بها حجة الزمان عجل الله تعالى فرجه الشريف؛ لأنّه إذا قام أشرقت الأرض بنوره، واستغنى العباد عن ضوء الشمس ونور القمر، وذهبت الظلمة[2].

وهناك معان باطنة أخرى تندرج في إمام الأرض تقوم بالربوبية فيها، وهي: العدل، فإنه إذا ساد في أهل الأرض فتح العقول والقلوب، وفجر الطاقات، وأضاء على الخلق خيره وبركاته، فهو بهذا المعنى يكون رب الأرض أي منميها ومغذيها.

---

(١) سورة الزمر: الآية٦٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٣؛ الإرشاد: ص٣٤٢.

ومثله العلم، فإنه نور الله في عباده، وكذلك العمل؛ لأنّ بالعمل تحيا الأرض، وتظهر كنوزها، والنظام والحاكم العادل، وكلها تتوفر في الإمام المعصوم عليه السلام لقيامها به؛ لذا يوصف بأنه رب الأرض.

فالروايات الواردة لا تخالف المعنى الظاهر من الآية، بل أشارت إلى المعاني الخفية الباطنة التي تدركها العقول بالملازمات والمعنى الجامع الذي أشارت إليه الرواية.

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللهِ**﴾[(١)] والحديث اللهوي في معناه الظاهر المحتف بالقرينتين الحالية والمقالية الاستماع إلى الكلام المتضمن للضلالة كأساطير الأولين، وكلام أهل الباطل من شعر وقصص؛ للانصراف عن مثل قراءة القرآن والاستماع له[(٢)].

وورد أنها نزلت في النضر بن الحارث لما ذهب إلى فارس للتجارة فاشترى كتاب (كليلة ودمنة) و(أخبار رستم واسفنديار) و(أحاديث الأكاسرة) فجعل يحدّث بها قريشاً في أنديتهم، ويقول: إنّ محمداً صلى الله عليه وآله يحدّثكم بعاد وثمود وأنا أحدثكم بحديث رستم واسفنديار فيستملحون حديثه، ويتركون استماع القرآن[(٣)]، إلّا أنّ الروايات الواردة عن الأئمة عليهم السلام عرَّفت لهو الحديث بمعان أخرى:

---

(١) سورة لقمان: الآية٦.

(٢) نفحات الرحمن: ج٥، ص١١٢.

(٣) نفحات الرحمن: ج٥، ص١١٢؛ روح البيان: ج٧، ص٦٥؛ وانظر تفسير القمي: ج٢، ص١٦١.

ففي رواية أبي بصير عن الباقر عرَّفه بكسب المغنيات[١]، وفي رواية محمد بن مسلم عنهعليه السلام عرِّف بالغناء[٢]، وكذا في رواية مهران بن محمد عن الصادقعليه السلام[٣]، وفي رواية الوشا عن الرضا[٤]عليه السلام وغيرها، وهو مصداق خفي للهو الحديث، وعن النبيصلى الله عليه وآله عرَّفه بتعليم المغنيات وبيعهن[٥]، وهو معنى لازم للمعنى السابق، وعن الصادقعليه السلام قال: «إنه الطعن في الحق والاستهزاء به، وما كان أبو جهل وأصحابه يجيون به؛ إذ قال: يا معشر قريش! ألا أطعمكم من الزقوم الذي يخوفكم به صاحبكم؟ ثم أرسل إلى زبد وتمر فقال: هذا هو الزقوم الذي يخوفكم به»[٦] وهو معنى أخفى من السابق.

وعن النبيصلى الله عليه وآله قال: «هو اللعب والباطل كثير النفقة، وعدم طيب النفس بالمال»[٧] وهو الآخر أخفى من سابقه.

ويمكن تقريبه ببيان الروايات طولاً، فإنّ بعضها واردة لبيان المعنى الخفي الذي لا يستفاد من ظاهر اللفظ، أو بيان المصداق الخفي للهو الحديث، ووجه التفسير بهما هو من باب الرجوع إلى الأصل أو الاشتراك في

---

(١) الكافي: ج٥، ص١١٩، ح١.
(٢) الكافي: ج٦، ص٤٣١، ح٤.
(٣) المصدر السابق: ج٥.
(٤) المصدر السابق: ج٨.
(٥) تفسير نور الثقلين: ج٥، ص٤١٣، ح١٠.
(٦) مجمع البيان: ج٨، ص٧٦-٧٧.
(٧) مجمع البيان: ج٨، ص٧٧.

الغاية والأثر، وهو الإلهاء عن سبيل الله، وبهذا الاعتبار يمكن التوسعة في المعاني الخفية ليشمل الإعلام الكاذب، والثقافة الباطلة، ومناهج التعليم المضلة، وبيع أدوات اللهو والقمار، وتداول الأخبار الكاذبة، ودراسة الشعر والأدب المنحرف وترويجهما، والألعاب الرياضية الشاغلة، وكل ما يضل الناس عن الحق لذات الملاكات الثلاثة[(١)].

ومنها: قوله تعالى: ﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ**﴾[(٢)] ومعناها بالتفسير الظاهر واضح، وغض الصوت يراد به تخفيضه[(٣)]، والنشاز في صوت الحمير الذي تتأباه الطباع مما يدرك بالحس إلاّ أن الاقتصار على هذا المعنى ممتنع؛ لاستلزامه توضيح الواضح؛ إذ لا أحد يجهل إنكار صوت الحمار، ولذا ورت الروايات في الكشف عن أن المراد من المعنى الظاهر الكناية عما هو خفي من مصاديقه، فعن الصادق عليه السلام عرَّفه بالعطسة المرتفعة القبيحة[(٤)]، والرجل يرفع صوته في الحديث رفعاً قبيحاً[(٥)].

وكلا المعنيين ناظران إلى الإنكار في الصوت وخروجه عن المألوف بما يوجب النفرة، فيمكن التوسعة فيه ليشمل كل ما يشترك معه في الغاية

---

(١) انظر مجمع البيان: ج٨، ص٧٧.
(٢) سورة لقمان: الآية١٩.
(٣) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٦٠٧، (غضض)؛ مجمع البحرين: ج٤، ص٢١٨، (غضض).
(٤) الكافي: ج٢، ص٦٥٦، ح٢١.
(٥) مجمع البيان: ج٨، ص٩٨.

والأثر كصريخ المغني، وتصايح الخصوم، والإعلام المنكر، وكل ما يوجب النفرة من كلام باطل وشعر لهوي كاشف عن جهل وضلالة، وشيطنة وعدم فهم للحقائق والمبادئ والقيم كما هو حال الحمار وصوته.

وقد ورد أن المشركين كانوا يفتخرون برفع الصوت، وقيل إنّ صوت كل حيوان تسبيح إلاّ صوت الحمير فإنها تصيح لرؤية الشيطان، وفي الحديث: ﴿إذا سمعتم نهاق الحمير فتعوّذوا بالله من الشيطان فإنّها رأت شيطاناً﴾[١].

ويعزز هذه الحقيقة شاهد حسي وهو ما قرر في المنطق من أنّ لكل موجود ثلاث مراتب وجودية، وهي الوجود اللفظي والوجود الذهني والوجود العيني، وهذا أمر يدركه الوجدان ولا يحتاج إلى برهان.

فمثلاً: كلمة (نار) فإن لها معنى يتبادر من اللفظ وهو اللهيب الذي يبدو للحاسة[٢]، والحرارة المحرقة[٣]، ولها صورة ذهنية وهي صورة اللهيب، ولها وجود عيني وهو حقيقة النار، إلاّ أن لهذا الوجود العيني مصاديق كثيرة جلية وخفية لا تبدو لعموم الناس من حيث النظرة البدوية المستندة إلى الظاهر، لكنها بالتأمل وإدراك الملازمات يتوصل إليها، وكلها يصح تسميتها بالنار من جهة الاشتراك بالأصل أو في الغاية أو في الأثر.

فمثلاً: الحركة والاحتكاك والحرب والطاقة الكهربائية وبعض أنواع الأشعة من مصاديق النار. بعضها خفي، وبعضها جلي؛ لرجوعها إلى أصل

---

(١) انظر نفحات الرحمن: ج٥، ص١٢٣؛ روح البيان: ج٧، ص٨٧.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن الكريم: ص٨٢٨، (نور).

(٣) المعجم الوسيط: ج٢، ص٩٦٢، (نار).

واحد وغاية واحدة وأثر واحد، ومثلها الحطب والنفط والغاز والبانزين والزيوت وغيرها من مشتقات النفط هي الأخرى من مصاديق النار، وبعضها مصاديق أكثر خفاء مثل العداوة والغضب والحقد والحسد، وبعضها أكثر خفاء من هذه كالشهوة والطعام والغرام وأكل مال اليتيم وسائر المعاصي والقبائح، فإنها أيضاً نار بالوجوه الثلاثة المذكورة.

وعلى هذا يصح حمل النار على كل واحد من هذه المصاديق، ولكنها خفية على العموم، وتشترك في ضوابط التأويل. يقال لها معان تأويلية لا يدركها إلاّ من رسخت قدمه في العلم، وهذا ما قد يستظهر من بعض الروايات. منها رواية حمران بن أعين قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن ظهر القرآن وبطنه فقال: «ظهره الذين نزل فيهم القرآن، وبطنه الذين عملوا بأعمالهم يجري فيهم ما نزل في أولئك»[1] وهي دالة على أنّ القرآن لا ينزل بالمفاهيم والصور الذهنية، بل ناظر إلى المصاديق الخارجية، فإذا نزلت الآية في جماعة بسبب ما يجهلونه من خصائص وصفات فإنّها تنطبق على كل من يشابههم في ذلك، وهذا ما اتفقت عليه قواعد أربع عند أهل العلم:

الأولى: أن المورد لا يخصص الوارد .

الثانية: نزول القرآن بلغة إيّاك أعني واسمعي يا جارة كما ورد في بعض الأخبار.

الثالثة: أن القضايا القرآنية واردة بنحو القضايا الحقيقية لا الخارجية.

---

(١) معاني الأخبار: ص٢٥٩، ح١؛ البحار: ج٨٩، ص٨٣، ح١٤؛ مواهب الرحمن: ج٥، ص٧١.

الرابعة: اعتبار الظهور النوعي في القرآن وعدم الاعتبار للظهور الشخصي المستند إلى الظنون والاستحسانات الشخصية، وتدل الرواية أيضاً على أنّ العلم بباطن القرآن ليس بممتنع على غير المعصومعليه السلام، بل يتوقف على استعداد وقابلية لذلك كما أشرنا.

وتعززها رواية جابر قال: سألت أبا جعفرعليه السلام عن شيء من التفسير فأجابني، ثم سألته عنه ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جعلت فداك كنت أجبتني في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم! فقال: «يا جابر! إنّ للقرآن بطناً وللبطن بطناً، وله ظهر وللظهر ظهر. يا جابر! ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن. إن الآية يكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل متصرف على وجوه»[1] ويشير الإمامعليه السلام فيها إلى دلائل هامة في تفسير القرآن:

الأولى: أن التفسير له إطلاق عام يشمل البطن والظهر معاً بجميع مراتبهما، ويقابله الإطلاق الخاص وهو الذي يقابل التأويل، فلا مانع من إطلاق التفسير على كل بيان لمعاني القرآن الظاهرة والخفية.

الثانية: كما أنّ للتأويل مراتب فللبطن بطن كذلك للتفسير مراتب فللظهر ظهر، وقد مر في الأمثلة ما يوضح هذه الحقيقة.

الثالثة: قولهعليه السلام: «ليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن» ناظر إلى المراتب العميقة من التأويل والتفسير لا المعنى البدوي

---

(١) المحاسن: ج٢، ص٣٠٠، ح٥؛ وانظر الوسائل: ج٢٧، الباب ١٣ من أبواب صفات القاضي، ص١٩٢، ح٣٣٥٧٢.

المستند إلى ظاهر العبارة؛ لأنّ هذا مما تدركه العقول وتعرف مضمونه ومعناه، وقوله عليه السلام: ﴿أبعد من عقول الرجال﴾ شاهد على ذلك؛ لأنّ العقل وحده قاصر عن إدراك المعاني الباطنة دون الاستعانة بالعلم والمعرفة والتصفية الباطنية والأخذ من المعصومين عليهم السلام، ولو كان التفسير ممتنع على الجميع بما فيهم العلماء لقال: (أبعد من علوم الرجال) لكنه نفى بلوغه عن العقول لا العلوم، ويحاكي هذا المضمون قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾[1] والواقع الخارجي شاهد على ذلك، فإن العالم قد يلقي بحثه على تلاميذه وكل منهم يستفيد منه على قدر استعداده، فبعضهم لا يتجاوز فهمه الدلالة الصريحة، وبعضهم يفوقه فيدرك لوازمها القريبة، وبعضهم يفوقه فيدرك اللوازم البعيدة وهكذا.

ويؤيده ما ورد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ قال: (إنا ممن يعلم تأويله)[2] وإطلاقه يشمل ما أخذه من أمير المؤمنين عليه السلام وما يستنتجه هو من اللوازم والملازمات.

الرابعة: أن المعاني الباطنة لا تفهم من الدلالة المطابقية للآية، بل من الإشارات والتنبيهات وغيرها من الدلالات التلازمية، ولذا قال: ﴿يكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلام متصل متصرِّف على وجوه﴾.

فالكلام المتصل ناظر إلى المعنى الظاهر وهو التفسير. أما فهم أولها في معنى وآخرها في معنى آخر فلا يستند إلى الكلام المتصل وحده، بل إلى

---

(١) سورة آل عمران: الآية٧.

(٢) نفحات الرحمن: ج١، ص٨٠؛ الإتقان في علوم القرآن: ج٣، ص٦.

إشاراته كما عرفت من مثال: (لهو الحديث) و: (أنكر الأصوات) ونحوهما.

وبذلك يتضح أن الغالب في التأويل ليس الخلاف في المعنى، بل الإشارة إلى المصاديق الخفية التي لا تستظهر من العبارة، بل من الإشارة واللطيفة، وهذا ما يمكن للعلماء الراسخين بلوغه على تفاوت مراتبهم ودرجاتهم في العلم والنورانية، وأما الحقائق فهي من مختصات المعصومين عليهم السلام، ولكن من خصائص التأويل أنه لا يكون حجة إلّا على أهله بخلاف التفسير؛ لأنّ الناس مكلَّفون بالظاهر، وأما الحقائق الباطنة فتكليف الناس بها معرفة وعملاً من التكليف بغير المقدور وموجب للعسر والحرج.

الحقيقة الثانية: الروايات التفسيرية والتأويلية

هناك معان لا يدركها إلّا الراسخون في العلم، وينحصر طريقها بالروايات الشريفة، ومواردها كثيرة لأهل البحث والتتبع، فإذا وردت رواية في بيان معنى الآية فإنّها تكون على ثلاث حالات:

الأولى: أن تكون واردة للتفسير وبيان المعنى الظاهر، ولا كلام في اعتبارها ووجوب العمل بها للمفسِّر وغيره.

الثانية: أن تكون واردة للتأويل وبيان المعاني الخفية، فتارة تكون من المعاني الخفية القريبة التي يدركها عموم الناس بالإلفات فتندرج موضوعاً في التفسير كما ورد في تفسير لهو الحديث بالغناء، وتارة تكون من المعاني الباطنة العميقة التي لا يدركها إلّا الراسخون في العلم فتكون حجة عليهم

لا على العموم. نعم يجب على العموم التسليم والإذعان لها وإن لم يدركوا حقيقة معناها، ولم يكلفوا بالعمل بها؛ لأن التسليم إلى المعصوم عليه السلام من الواجبات العينية، فروايات التأويل من هذا القبيل لا تكون حجة على النوع بدواً إلّا بعد بيان المعنى؛ وهذا هو الأصل.

الثالثة: أن تكون مرددة بين التفسير الخفي والتأويل، فإن أمكن إحراز أحد الطرفين بالفحص أخذ بمقتضاه، وإلّا كان الأصل عدم الحجية حتى يقوم الدليل، لأنّها من قبيل المتشابه لا يصح العمل به إلّا بعد إحكامه.

وبهذا تتضح الوظيفة العملية تجاه الروايات الكثيرة الواردة في باب التأويل، وإنها على قسمين:

الأول: وجوب التسليم وعقد القلب على ما وردت به، وهذا تكليف عيني على الجميع.

الثاني: وجوب العمل بها وهذا مختص بالعالمين، أما الجاهلون فلا يجب عليهم العمل إلّا بعد العلم.

المبحث الخامس عشر: كلمات في التفسير

في خاتمة البحث ألفت الأنظار إلى كلمات خمس تهم الباحثين والمفسرين:

الكلمة الأولى: البحث في ذات الآية

إن من كمال التفسير أن يكون بحثاً معمقاً في ذات الآية، يغوص في أعماقها ويستنطقها للوصول إلى المعاني التي أودعها الباري عز وجل فيها، فإن كل آية في القرآن بحر من الدلائل والمعارف والإشارات يدركها المتأملون والمتعمقون فيها، وقد أوحاها ربها لتكون آية للناس دالة على جماله وجلاله وبديع صفاته، وترشدهم إلى مصالحهم، وتهديهم إلى صراط مستقيم، وهذه مهمة صعبة لا يدركها إلاّ من ينطلق في دراسة معاني الآية ومقاصدها من ذاتها، ويقف على مفرداتها وسياقها، ثم إشاراتها ولطائفها، ثم تعاليمها، ثم تعزيزها بالشواهد الأخرى من أدلة عقلية وروائية ونتائج علمية توافق مدلولها، وقد مرّ أن التفسير بمعنى الكشف عن مراد الخالق عز وجل لا يعرفه إلّا المعصومعليه السلام، والذي هو صورة أخرى للقرآن، ونموذج ثان للوحي الإلهي.

فإن القرآن والسنّة نوران منبعثان من سراج واحد يتطابق أحدهما مع الآخر، ويكمل أحدهما الآخر، وهذا هو غاية النبيصلى الله عليه وآله في حديث الثقلين[1]، وأما جهود الباحثين والمفسرين فهي بمقدار وسعهم وطاقتهم لا بقدر سعة القرآن الصامت والناطق وما لهما من دلالات وعلوم ومعارف،

(١) الدعائم: ج١، ص٢٨؛ الأمالي (للصدوق): ص٥٠٠، ح٦٨٦؛ عيون أخبار الرضاعليه السلام: ج١، ص٣٤، ح٤٠.

وكل ما يبذل الباحث الفطن من جهود ويتعمق في التدبر والتأمل فيه فإنه يتجدد له ويعطيه المزيد، فهو بحر لا ينضب، لا تنقضي عجائبه، ولا تنفد غرائبه، ولو تصدى كل جيل بما له من علم وقدرات ذهنية وتجارب لدراسة القرآن سيخرج بنتائج تحاكي عقله وفكره، وتعطيه ما يسد به حاجته الفكرية والروحية والعلمية والعملية.

فإنّ القرآن نظام الخالق التدويني لعالمه التكويني، وهو في الخلق والتكوين كل يوم في شأن، والخلق والابداع فيه لا يتوقف في لحظة أو برهة، كذلك منهجه ونظامه يستوعب كل ما يحدث في الخلق والتكوين.

ومن هنا يجب أن يتصدى الباحث القرآني للإجابة عن الشبهات التي تثار في كل زمان سيما زماننا الذي كثرت فيه الشبهات واختلطت الأوراق، فضلاً عن الشبهات السابقة في مجال العقيدة والفكر، أو مجال الاقتصاد أو السياسة أو العلاقات الاجتماعية والتربية، فإن الأبحاث يمكن أن تكون تعليمية تعطي للإنسان ما يجهله من حقائق كما هو شأن دراسة العلوم، أو إقناعية غايتها الدفاع عن الشبهات التي تثار عن موضوع البحث، وربما تكون جامعة للاثنين، وهذا هو النهج الذي اخترناه؛ لأنّ القرآن كتاب حياة في كل زمان ومكان وجيل، وصفته الإعجازية وهيمنته على سائر الكتب وعلى العقول والقلوب ملازمة له في كل الأوقات، ولا يمكن للبحث القرآني أن يكتفي ببيان معنى مفردات الآية ويغض النظر عن لطائفها وتعاليمها، أو يهمل الشبهات التي تثار دون الإجابة عنها، وإلّا سقطت حجيته وهيمنته.

الكلمة الثانية: المنهج الدرسي وغاياته

إن البحث الماثل هو محاولة لتقديم منهج دراسي لعلوم القرآن وقواعد فهمه وتفسيره وتأويله، يرسم للباحثين الخطة الأفضل للبحث القرآني من حيث تسلسل البحث، ثم صدره وبطنه ثم غايته وآثاره، وهو بحث تفصيلي يتناول كل آية في مستهلها من حيث ترابطها الموضوعي مع الآيات السابقة عليها، وبه تندفع شبهة القائلين بأن جمع القرآن من اجتهادات البشر، وتنفي شبهة التفكيك في المضامين وفي صدرها وفي مفرداتها بلا فرق بين الكلمة والحرف ودلالة الهيئة الاشتقاقية للكلمة من كونها مصدراً أو اسم فاعل أو صيغة مبالغة ونحوها.

وبذلك يظهر للباحث مدى الدقة المتناهية في التعبير القرآني وعمق العلوم والمعارف المودعة في مفرداته وحروفه وحركاته، كما يظهر أحد أسرار اختيار اللغة العربية في المنطوق القرآني، فهو في الوقت الذي يحقق غاية إعجازه للقوم الذين نزل القرآن لهم، يدل على عظمة اللغة العربية وسعتها البيانية القادرة على استيعاب الوحي الإلهي العالي وتنزيله إلى مستوى عقول البشر وأفهامهم.

كما يتناول لطائفها ودلائلها التي قد لا تظهر في النظرة البدوية للعبارة؛ لأنها تشكّل بطن الآية وعمقها، ثم تناول مدى تأثير الآية على البشر الذي هو المخاطب الأول لها في تكميل عقله وتنوير قلبه وتهذيب سلوكه ورسم طريقه ومستقبله الأفضل؛ ليكتمل ويكون خليفة الله في الأرض متناغماً مع سنن مستخلفه وتعاليمه وغاياته.

من هذا المنطلق وبهذه الرؤية لابد للباحث في الدلائل القرآنية أن يتعمق ويتدبر في مفردات الآيات وترابطها السياقي وبطونها، فإن كل آية لها ظهر وبطن ولبطنها بطن، ومثل الباحث فيها مثل الغوّاص الذي كلما تعمق ونزل أكثر حصل على الجديد وربما الأثمن والأعظم.

والبحث بهذا المنظور يكشف للباحث نتائج كثيرة تتعلق بفقه اللغة وأسرار الخلق، وقواعد منطقية، وإلفاتات فقهية وأصولية، وتأصيل كلامي وأخلاقي للفرد والأسرة والمجتمع، وإشارات سياسية للساسة، واقتصادية للاقتصاديين، ولطائف طبية للأطباء، إلى غير ذلك من حقائق وأسرار تتضامن جميعها في الدلالة على أن القرآن جاء لبناء الإنسان -بما هو إنسان- وتكميله ومعالجة همومه وأزماته، وجاء لبناء دولة ومجتمع عظيم يقوم بكل أدوار المجتمع الراقي المتحضر، وقد قدم الباري عز وجل نماذج له في آياته في سياسة يوسف وسليمان عليهما السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله. لا ليقرأ على المقابر وفي مجالس الترحيم أو لتحصيل الثواب أو أداء القسم به فقط.

فإن البشرية خسرت خسراناً كبيراً بإعراضها عن القرآن وعدم اتخاذه منهاجاً في الحياة الخاصة والعامة، والواقع الخارجي وسيادة الظلم والفساد على الأرض برمتها شاهد على هذا الخسران.

ومعلوم أن مثل هذه الغاية العظيمة لا يمكن أن يقوم بها شخص واحد مهما بلغ من القدرة، فلا الجهد يسع، ولا العمر يسمح، ولا القدرة كافية، وإنما يجب أن يقوم به فريق عمل متفرغ ومتخصص وعالي المستوى في العلم والمعرفة، فدار أمرنا بين أن نقتصر على تقديم النموذج لما ينبغي

أن يكون عليه التفسير ريثما تتهيأ الفرصة الأسنح لإكماله ولو بعد حين أو نتوقف، فرأينا الأول أولى؛ لذا لا يمكن أن نعتبر هذه المحاولة كاملة وإنما هي سعي لتقديم نموذج لقواعد فهم القرآن وأدوات تفسيره وتأويله، وأرجو الله سبحانه أن تكون موفقة عسى أن يقيّض سبحانه لها من يكملها فيضفي عليها مكملاتها، ويتلافى نواقصها، وهذا أدنى حق للقرآن وأهل القرآن علينا.

هذا على صعيد البيان العام، وأما على الصعيد التخصصي فينبغي أن تقام جامعات ومدارس للدراسات القرآنية تدرسه من جوانب الحياة المختلفة، فجامعات لدراسة الطب القرآني، وأخرى للفيزياء وأسرار الخلق، وأخرى للكيمياء وهكذا، فإن في القرآن أودعت أسراراً إلهية عظيمة، ببعضها أحييت الموتى، وببعضها شق رسول الله عليه السلام القمر، وببعضها خلق عيسى عليه السلام من الطين الطير، وببعضها فلق موسى عليه السلام البحر والتهمت عصاه سحر السحرة، وا أسفاه على المسلمين والإنسانية أجمع؛ إذ ضيّعت هذا الكنز العظيم ولم تبال بدراسته جهلاً أو عمداً.

الكلمة الثالثة: لا غنى عن الروايات

يجب أن يرتكز البحث القرآني وفي جانب كبير منه على الروايات الشريفة، والوقوف عند دلائلها، وبيان وجه تطابقها وتكميلها للدلائل القرآنية من جهة تفصيل مجملاته، وبيان تأويلاته، وتخصيص عموماته وإطلاقاته، أو تكميل المعاني باللطائف والإشارات؛ فإن السنّة تكمّل الدلائل القرآنية، وتكشف عن أسرار القرآن وعلومه، ولا يمكن فهم

القرآن فهماً واعياً أو كافياً دون الرجوع إلى الروايات، وذوو الألباب يدركون مكانة المعصوم عليه السلام وخصائصه وأثره العظيم في تكميل رسالة النبي صلى الله عليه وآله وإتمام مهمة القرآن.

فالناس لولا المعصوم عليه السلام لا يفهمون القرآن، وتضنيهم الضلالات والفتن، ويتيهون في أهم عقائدهم في التوحيد والعدل والنبوة والمعاد، وكم من الدلائل والحقائق الهامة، والنكات العلمية والمعرفية في مختلف الشؤون يجدها الباحث في الروايات المفسرة للقرآن، فلا غنى للقرآن عن المعصوم عليه السلام، ولا غنى للناس عن إمامته وقيادته، كما لا غنى لهم عن العالم الرباني من بعده الذي يهديهم إلى القرآن والسنّة ويبيّن لهم تعاليم الأئمة عليهم السلام.

الكلمة الرابعة: التأصيل القرآني للقواعد العلميّة

لقد أصل القرآن الكريم لجملة من القواعد الفقهية والأصولية والكلامية والمنطقية والأخلاقية، ولو أمعن الباحث في آياته لوجد أن الكثير من القواعد التي قررها العلماء الربانيون من أتباع آل محمد صلى الله عليه وآله في العلوم المختلفة وصارت من المسلمات لها جذور قرآنية، وإشارات وإلفاتات، إلاّ أن الغفلة أو التغافل عن القرآن لدى دراسة العلوم جعل البعض يظن أن ما توصل إليه البشر من معارف هي من نتاج عقولهم وإبداعاتهم، ولتوصل أيضاً إلى مواطن الخلل في المبادئ والقواعد الأخرى، لاسيما التي يعتمدها المخالفون في الأديان والمذاهب والاتجاهات العلمانية المختلفة.

الكلمة الخامسة: البيان الجامع

من الحكمة بمكان أن يكون الأسلوب البياني للبحث القرآني توسطياً جامعاً بين وضوح العبارة وسلاستها وعمق معناها ودلالتها؛ ليتاح لكل طالب وباحث أن ينتفع منه بما فيه نفع إن شاء الله تعالى، وفي عين الحال يوافق غرض العلم والتفسير، فإن الأسلوب المغلق أو المجمل أو الغامض في البيان ينقض غرض العلم، والأسلوب البسيط يأباه طبع أهل الفضل ممن يميلون إلى جزالة العبارة واختصارها، وهذا هو أسلوب القرآن؛ إذ جاء ببيان واضح يفهمه الناس، وفي عين الحال تضمن دلائل عميقة لا يدركها إلاّ الراسخون في العلم، وهذا من أغراضه العظيمة؛ لأن القرآن يحاكي عقول العلماء والباحثين كما يحاكي عقول البسطاء، ويشير في عباراته إلى الفيلسوف والمتكلم والفقيه والأصولي والمحدث والمفكر والسياسي والإداري والباحث الاجتماعي والشاعر والأديب والحاكم والمحكوم، وكل منهم يجد ضالته فيه لو لجأ إليه وتعمق في خطاباته وتعلم من إشاراته.

وهكذا يجب أن يكون البحث التفسيري، فإنه في الوقت الذي يكتشف أسرار القرآن وحقائقه فإنه ينظر إلى آثاره وخصائصه التي تنفع الناس، ومن هنا على الباحث أن يقرّب المعاني الغيبية بالأمثلة المحسوسة؛ لتسهيل إيصالها إلى العموم.

وفي الختام أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل منّا هذا الجهد القليل، وأن يعفو عن زلاته وثغراته، وأن يبعث ثوابه لمولى الوجود وقائمه الحجة من آل محمد عليهم السلام وسام حب وولاء، ولساني العاجز يناجيه بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ . . . . . تَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللَّه يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين واللعنة الأبدية على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين.

المصادر

(أ)

١- الإتقان في علوم القرآن: للسيوطي، دار الفكر، ١٤١٦-١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٢- الآثار النووية: ليحيى بن شرف النووي، دار الفكر ، بيروت، ١٤١٤- ١٩٩٤م.

٣- الاحتجاج: للشيخ الطبرسي، دار النعمان -النجف الأشرف، ١٣٨٦-١٩٦٦م، مع طبعة أخرى.

٤- إحقاق الحق (الأصل): للشهيد نور الله التستري، من مصادر العقائد عند الشيعة.

٥- اختيار معرفة الرجال: للشيخ الطوسي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤٠٤.

٦- الإرشاد: للشيخ المفيد، دار المفيد -بيروت، ١٤١٤هـ -١٩٩٣م، الطبعة الثانية.

٧- الاستبصار: للشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٦٣ش، الطبعة الرابعة.

٨- الاستيعاب: لابن عبد البر، دار الجيل، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

٩- الأصول الأصيلة: للسيد عبد الله شبر مؤسسة البلاغ- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٠هـ -٢٠٠٩م.

١٠- الأمالي: للشيخ الصدوق، مؤسسة البعثة –قم المقدسة، ١٤١٧هـ، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

١١- الأمالي: للشيخ الطوسي، دار الثقافة – قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

١٢- الأمالي: للشيخ المفيد، دار المفيد – بيروت، ١٤١٤-١٩٩٣، الطبعة الثانية.

١٣- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: للشيخ ناصر مكارم الشيرازي، مصادر التفسير عند الشيعة، ١٤٢٦مع طبعة أخرى.

(ب)

١٤- بحار الأنوار: للشيخ المجلسي، مؤسسة الوفاء – بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣، الطبعة الثانية؛ ومؤسسة إحياء التراث – دار التراث، ١٤٠٣ -١٩٨٣، الطبعة الثانية.

١٥- البداية والنهاية: لابن كثير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٠٨ – ١٩٨٨م.

١٦- البرهان في تفسير القرآن: للسيد هاشم البحراني، مؤسسة الوفاء – بيروت، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، مع طبعة أخرى.

١٧- بصائر الدرجات: لمحمد بن الحسن الصفار، منشورات الأعلمي – طهران، ١٤٠٤-١٣٦٢ش؛ والأعلمي – بيروت، ١٤٠٤-١٣٦٢ش.

(ت)

١٨- تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام: للسيد حسن الصدر الكاظمي العاملي، مؤسسة تراث الشيعة، ١٤٣٨ - ١٣٩٥ش، الطبعة الأولى.

١٩- تأويل الآيات الظاهرة في فضائل العترة الطاهرة: للسيد شرف الدين علي الحسيني الاسترابادي، مدرسة الإمام المهدي عليه السلام -قم المقدسة، ١٤٠٧ - ١٣٦٦ش، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٠- تحف العقول: لابن شعبة الحراني، مؤسسة النشر الإسلامي - قم المقدسة، ١٤٠٤-١٣٦٣ش، الطبعة الثانية، ومؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٧هـ -١٩٩٦م، الطبعة السادسة.

٢١- تفسير الآلوسي: للآلوسي، مصادر التفسير عند السنة.

٢٢- تفسير التبيان: للشيخ الطوسي، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٢٣- تفسير تحرير والتنوير : لمحمد الطاهر ابن عاشور ، مؤسسة التأريخ - بيروت ، الطبعة الأولى.

٢٤- تفسير الثعلبي: للثعلبي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، ١٤٢٢-٢٠٠٢م، الطبعة الأولى.

٢٥- تفسير الرازي: لفخر الدين الرازي، مصادر التفسير عند السنة، مع طبعة أخرى.

٢٦- تفسير السمرقندي: لأبي ليث السمرقندي، دار الفكر.

٢٧- التفسير الصافي: للفيض الكاشاني، مكتبة الصدر - طهران، مع طبعة الأعلمي ومؤسسة الهادي - قم المقدسة، ١٤١٦-١٣٧٤ش، الطبعة الثانية.

٢٨- تفسير العياشي: لمحمد بن مسعود العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران، مع طبعة أخرى.

٢٩- تفسير الفخر الرازي (التفسير الكبير): لمحمد الرازي، دار الفكر- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م.

٣٠- تفسير القرآن: للحويزي، مؤسسة إسماعيليان - قم المقدسة، ١٤١٢- ١٣٧٠ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة أخرى.

٣١- تفسير القمي: لعلي بن إبراهيم القمي، منشورات مكتبة الهدى، ١٣٨٧، ومؤسسة دار الكتاب - قم المقدسة، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة، ومطبعة النجف، ١٣٨٧.

٣٢- تفسير كنز الدقائق: لمحمد المشهدي، دار الغدير -قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م.

٣٣- تفسير مجمع البيان في تفسير القرآن: للشيخ الطبرسي، مؤسسة الأعلمي - بيروت، ١٤١٥-١٩٩٥، الطبعة الأولى، ودار المعرفة.

٣٤- تفسير المراغي: لأحمد مصطفى المراغي، دار الفكر.

٣٥- تفسير الميزان: للسيد الطباطبائي، منشورات جماعة المدرسين – قم المقدسة، مع طبعة أخرى.

٣٦- تفسير النسفي: للنسفي، مصادر التفسير عند السنة.

٣٧- تفسير نور الثقلين: للشيخ الحويزي، مؤسسة إسماعيليان – قم المقدسة، ١٤١٢-١٣٧٠ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة أخرى.

٣٨- تقريب القرآن إلى الأذهان: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلوم- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م.

٣٩- تهذيب الأحكام: للشيخ الطوسي، دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٦٥ش، الطبعة الرابعة، مع طبعة الأعلمي.

٤٠- التوحيد: للشيخ الصدوق، جماعة المدرسين – قم المقدسة.

(ج)

٤١- جامع أحاديث الشيعة: للسيد البروجردي، الناشر المؤلف، ١٤١١-١٣٦٩، و١٤١٢-١٣٧١ش، ومنشورات مدينة العلم – قم المقدسة، ١٤٠٧-١٣٦٦ش، ومطبعة مهر، ١٤٠٩-١٣٦٧ش.

٤٢- جامع البيان: لابن جرير الطبري، دار الفكر -بيروت، ١٤١٥-١٩٩٥م.

٤٣- الجامع لأحكام القرآن: لمحمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، دار الحديث- القاهرة، ١٤٢٣هـ -٢٠٠٢م.

٤٤- جدلية الدين والفلسفة: لحسن الكاشاني، منشورات دليل ما – قم المقدسة، ١٤٣٤ هـ ق، الطبعة الأولى.

(ح)

٤٥- الحدائق الناضرة: للمحقق يوسف البحراني، جماعة المدرسين – قم المقدسة، ١٤٠٥- ١٣٦٣ش.

(خ)

٤٦- الخرائج والجرائح: لقطب الدين الراوندي، مؤسسة النور- بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١١هـ- ١٩٩١م.

٤٧- الخصال: للشيخ الصدوق، منشورات جماعة المدرسين – قم المقدسة، ١٤٠٣-١٣٦٢ش، ومع طبعة أخرى.

(د)

٤٨- الدرة الباهرة من الأصداف الطاهرة: للشهيد الأول، تحقيق جلال الدين الصغير.

٤٩- الدر المنثور: لجلال الدين السيوطي، دار المعرفة – بيروت، ودار الفكر، ١٤٠٣، الطبعة الأولى.

٥٠- دعائم الإسلام: للقاضي النعمان المغربي، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الثانية.

٥١- دلائل الإمامة: لمحمد بن جرير الطبري، مؤسسة البعثة، ١٤١٣، الطبعة الأولى.

(ذ)

٥٢- ذخائر العقبى: لأحمد بن عبد الله الطبري، مكتبة القدس- القاهرة، ١٣٥٦.

(ر)

٥٣- رسائل الشهيد الثاني: للشهيد الثاني، مكتبة بصيرتي – قم المقدسة.

٥٤- روح البيان في تفسير القرآن: لإسماعيل حقي، دار الكتب العلمية- بيروت، الطبعة الثالثة.

٥٥- روح المعاني: لمحمود الآلوسي البغدادي، دار إحياء التراث العربي- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

(ز)

٥٦- زبدة الأصول: للسيد محمد صادق الروحاني، مدرسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

(س)

٥٧- سفينة البحار: للشيخ عباس القمي، دار الأسوة -ايران، الطبعة الرابعة، ١٤٣٧هـ.

٥٨- سفينة النجاة: لسراب التنكابني، الناشر المحقق، ١٤١٩-١٣٧٧ش، الطبعة الأولى.

٥٩- سنن ابن ماجة: لمحمد بن يزيد القزويني، دار الفكر.

(ش)

٦٠- شجرة طوبى: للشيخ محمد مهدي الحائري، المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨٥هـ ، الطبعة الخامسة.

٦١- شرائع الإسلام: للمحقق الحلي، مركز الرسول الأعظمﷺ، بيروت، الطبعة العاشرة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

٦٢- شرح نهج البلاغة: لابن أبي الحديد، أنوار الهدى -قم المقدسة، ١٤٢٩، ودار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، ١٩٥٩م و١٩٦١و١٩٦٢، ومؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر.

٦٣- شواهد التنزيل: للحاكم الحسكاني، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي – مجمع إحياء الثقافة، ١٤١١ – ١٩٩٠م، الطبعة الأولى.

(ص)

٦٤- صحيح البخاري: للبخاري، دار الفكر، ١٤٠١هـ-١٩٨١، ودار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

٦٥- صحيح مسلم: لمسلم النيشابوري، دار الفكر – بيروت، ودار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٢١هـ -٢٠٠١م، الطبعة الأولى.

(ط)

٦٦- الطبقات الكبرى: لابن سعد، دار صادر – بيروت.

(ع)

٦٧- علل الشرائع: للشيخ الصدوق، منشورات المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٨٥و١٣٨٦-١٩٦٦م، مع طبعة أخرى.

٦٨- عوالي اللآلئ: لابن أبي جمهور الإحسائي، مطبعة سيد الشهداء – قم المقدسة، ١٤٠٥-١٩٨٥م، الطبعة الأولى.

٦٩- عيون أخبار الرضا عليه السلام: للشيخ الصدوق، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤٠٤-١٩٨٤م، مع طبعة أخرى.

٧٠- عيون الحكم والمواعظ: لعلي بن محمد الليثي الواسطي، دار الحديث، الطبعة الأولى.

(غ)

٧١- الغدير: للشيخ الأميني، دار الكتاب العربي – بيروت، ١٣٩٧-١٩٧٧م، الطبعة الرابعة.

(ف)

٧٢- الفائق في غريب الحديث: لجار الله الزمخشري، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤١٧ – ١٩٩٦م، الطبعة الأولى.

٧٣- فتح الباري: لابن حجر، دار المعرفة – بيروت، الطبعة الثانية.

٧٤- الفروق اللغوية: لأبي هلال العسكري، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

٧٥- الفصول المهمة في أصول الأئمة: للحر العاملي، مؤسسة معارف إسلامي الإمام الرضاعليه السلام، ١٤١٨-١٣٧٦ش، الطبعة الأولى.

٧٦- فقه الحديث قواعده ومناهجه: للشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ -٢٠١٧م.

٧٧- الفقه حوال القرآن الكريم: للسيد محمد الحسيني الشيرازي، دار العلم -بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م.

٧٨- في سماء المعرفة: للشيخ حسن حسن زادة الآملي، مؤسسة أم القرى- بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ -٢٠٠٤م.

(ق)

٧٩- قاموس الرجال: للشيخ محمد تقي التستري، مؤسسة النشر الإسلامي- قم، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤هـ.

٨٠- القواعد والفوائد: للشهيد الأول، مكتبة المفيد -قم المقدسة.

(ك)

٨١- الكافي: للشيخ الكليني، دار الكتب الإسلامية -طهران، ١٣٦٣، و١٣٦٥، و١٣٦٧، الطبعة الثالثة، والطبعة الرابعة، والطبعة الخامسة.

٨٢- الكامل: لعبد الله بن عدي، دار الفكر – بيروت، ١٤٠٩- ١٩٨٨م، الطبعة الثانية.

٨٣- كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم: لمحمد علي التهانوي، مكتبة لبنان ناشرون- بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٦م.

٨٤- الكشاف عن حقائق التأويل وعيون الأقاويل: للزمخشري، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده – مصر، ١٣٨٥- ١٩٦٦م.

٨٥- كنز العمال: للمتقي الهندي، مؤسسة الرسالة – بيروت، ١٤٠٩هـ -١٩٨٩م.

(ل)

٨٦- لسان العرب: لابن منظور، نشر أدب الحوزة -قم المقدسة، ١٤٠٥، ودار إحياء التراث العربي، ١٤٠٨هـ -١٩٨٨م، الطبعة الأولى.

(م)

٨٧- مأساة الزهراء عليها السلام: للشيخ جعفر مرتضى، دار السيرة – بيروت، ١٤١٨- ١٩٩٧م، الطبعة الثانية.

٨٨- مجد البيان في تفسير القرآن: لمحمد حسين الأصفهاني، مؤسسة البعثة – طهران، الطبعة الثانية، ١٣١٧هـ.

٨٩- مجمع البحرين: للشيخ فخر الدين الطريحي، مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ١٤٠٨هـ-١٣٦٧ش، الطبعة الثانية، مع طبعة أخرى.

٩٠- مجمع الزوائد: للهيثمي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٤٠٨- ١٩٨٨م.

٩١- المحاسن: لأحمد بن محمد بن خالد البرقي، دار الكتب الإسلامية - طهران، ١٣٧٠هـ -١٣٣٠ش، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

٩٢- المحكم في أصول الفقه: للسيد محمد سعيد الحكيم، مؤسسة المنار، ١٤١٤-١٩٩٤م، الطبعة الأولى.

٩٣- مختصر البصائر: للحسن بن سليمان الحلي، تحقيق مشتاق المظفر.

٩٤- مسالك الأفهام إلى تنقيح شرائع الإسلام: للشهيد الثاني، مؤسسة المعارف الإسلامية -قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الأولى.

٩٥- المستدرك: للحاكم النيسابوري، تحقيق وإشراف يوسف عبد الرحمن المرعشلي، وطبعة مزيدة بفهرس الأحاديث الشريفة.

٩٦- مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل: للمحقق الميرزا النوري، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث -بيروت، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، و١٤٠٩، الطبعة الثانية.

٩٧- مسند أحمد: لأحمد بن حنبل، دار صادر -بيروت، مع طبعة أخرى.

٩٨- مسند الإمام الرضا عليه السلام: لداود بن سليمان الغازي، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤١٨، الطبعة الأولى.

٩٩- مشارق أنوار اليقين: للحافظ رجب البرسي، مؤسسة الأعلمي – بيروت، ١٤١٩-١٩٩٩، الطبعة الأولى.

١٠٠- مصباح الفقاهة تقريرات أبحاث السيد الخوئي: مؤسسة إحياء آثارا الإمام الخوئي- قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م.

١٠١- معالم العلماء: لابن شهرآشوب، دار المحجة البيضاء – بيروت، ومكتبة دار علوم القرآن – كربلاء المقدسة، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢، الطبعة الأولى.

١٠٢- معاني الأخبار: للشيخ الصدوق، مؤسسة النشر الإسلامي -قم المقدسة، ١٣٧٩، مع طبعة أخرى.

١٠٣- المعتمد في الأصول: للشيخ فاضل الصفار، دار المحجة البيضاء – بيروت، ١٤٣٩هـ -٢٠١٨م، الطبعة الأولى.

١٠٤- معجم مقاييس اللغة: لأحمد بن فارس زكريا، مكتب الإعلام الإسلامي، ١٤٠٤، مع طبعة أخرى.

١٠٥- المعجم الوسيط: لإبراهيم مصطفى- أحمد حسن الزيات- حامد عبد القادر- محمد علي النجار، دار الدعوة، تركيا استانبول.

١٠٦- مفردات ألفاظ القرآن الكريم: للراغب الأصفهاني، نشر طليعة النور، ١٤٢٧هـ، الطبعة الثانية، ودفتر الكتاب، ١٤٠٤، الطبعة الثانية، ودار القلم -دمشق، والدار الشامية -بيروت، ١٤٢٤هـ ق-١٣٨٢ش، الطبعة الثالثة، و١٤٢٥هـ، الطبعة الرابعة.

١٠٧- مكاتيب الرسول: للأحمدي الميانجي، مؤسسة دار الحديث الثقافية، ١٤١٩، الطبعة الأولى.

١٠٨- مناقب آل أبي طالب: لابن شهر آشوب، المكتبة الحيدرية – النجف الأشرف، ١٣٧٦-١٩٥٦، والطبعة العلمية.

١٠٩- مناقب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: لمحمد بن سليمان الكوفي، مجمع إحياء الثقافة الإسلامية – قم المقدسة، ١٤١٢، الطبعة الأولى.

١١٠- منهاج البيان في تفسير القرآن: لمحمد باقر الملكي الميانجي، مؤسسة الطباعة والنشر- طهران، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ.

١١١- المهذب في أصول الفقه: للشيخ فاضل الصفار، الفكر الإسلامي – بيروت، ١٤٢١ – ٢٠١٠، الطبعة الأولى، ومكتبة العلامة ابن فهد الحلي – كربلاء المقدسة، ١٤٣٨- ٢٠١٩م، الطبعة الثانية.

١١٢- مواهب الرحمن في تفسير القرآن: للسيد عبد الأعلى السبزواري، الطبعة الثانية، ١٤٢٨هـ -٢٠٠٧م.

١١٣- موسوعة أحاديث أهل البيت عليهم السلام: للشيخ هادي النجفي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٣- ٢٠٠٣م، الطبعة الأولى.

(ن)

١١٤- نفحات الرحمن في تفسير القرآن: لمحمد عبد الرحيم النهاوندي، مؤسسة البعثة- قم، الطبعة الأولى، ١٤٢٩هـ.

١١٥- نهج البلاغة: خطب الإمام علي عليه السلام: دار الذخائر - قم المقدسة، ١٤١٢هـ-١٣٧٠، الطبعة الأولى، مع طبعة أخرى.

(و)

١١٦- وسائل الشيعة: للحر العاملي، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث -قم المقدسة، ١٤١٤، الطبعة الثانية، والمكتبة الإسلامية - طهرن، ١٤٠٣هـ، الطبعة السادسة.

الفهرس

المقدمة ١٣
الكلمة الأولى: أهمية البحث وخصائصه ١٣
الكلمة الثانية: مقومات البحث................................ ١٧
المبحث الأول: عظمة القرآن وآثاره ٢١
أسماء القرآن.. ٢٣
القرآن وحاجات البشر ٢٤
المبحث الثاني: تعريف القرآن.................................... ٢٧
إنّه أحسن الحديث.. ٣١
لا هداية بغير القرآن.. ٣٤
مناهج التعليم تظلم القرآن.................................. ٤١
القيادة الربانّية.. ٤٤
المبحث الثالث: أثر القرآن في حياة الإنسان ٥٣
المسألة الأولى: وجوب تعلّم القرآن وتعليمه........................ ٥٥
المسألة الثانية: تطهير النفس بالقرآن............................. ٥٨
المبحث الرابع: موضوع التفسير وغايته ٦٥
ما يجب معرفته أولاً ٦٩

المبحث الخامس: أدب المفسِّر المعنوي................................ ٧١
المبحث السادس: القرآن والنبي والإمام عليهما السلام ٧٩
الأمر الأول:.. ٨١
الأمر الثاني:.. ٨٣
القرآن بوجوداته الثلاثة................................ ٨٥
لماذا لم يصرّح باسم علي عليه السلام ؟................................ ٨٨
المبحث السابع: جامعية القرآن وعموم نوره........................ ٩١
القرآن يغني بشروط................................ ٩٦
المبحث الثامن: في التفسير ومقتضياته ١٠١
حقائق عن التفسير ١٠٦
الحقيقة الأولى:................................١٠٦
الحقيقة الثانية:................................١٠٨
الحقيقة الثالثة:................................١٠٩
لا تعدد في القراءات................................١٠٩
الحقيقة الرابعة:................................١٠٩
الروايات تفسّر القرآن................................١١٥
الحقيقة الخامسة: ١١٥
المبحث التاسع: مناهج المفسِّرين والمنهج الأفضل........................١١٧
أهمية المنهج................................١١٩

القضية الأولى: في تعريف المنهج وتحديد ضوابطه ١٢١
القضية الثانية: في مناهج التفسير..........................١٢٦
أولاً: المنهج اللغوي...١٢٧
ثانياً: المنهج النقلي...١٢٧
ثالثاً: المنهج العقلي...١٣٣
رابعاً: المنهج التطبيقي.....................................١٤٢
خامساً: المنهج الذاتي.......................................١٤٣
سادساً: المنهج الجمعي (الأفضل)............................١٥٨
المبحث العاشر: مزايا المنهج الجمعي..........................١٥٩
المبحث الحادي عشر: طبقات المفسِّرين.........................١٦٧
مرجعيّة أهل البيت عليهم السلام في التفسير ١٧٤
المبحث الثاني عشر: أثر الروايات في التفسير....................١٨١
محاذير الاستغناء عن الرواية..................................١٨٣
الحقيقة الأولى: لا توجد طبقات مفسِّرين ١٨٧
الحقيقة الثانية: محاذير الروايات التفسيرية ١٨٩
الحقيقة الثالثة: مهام النبي صلى الله عليه وآله في القرآن ٢٠١
شواهد تطبيقية...٢٠٦
المبحث الثالث عشر: مشكلات التفسير وما ينبغي للمفسِّر...........٢١٥
منها: مشكلة التفسير بالرأي.................................٢١٧

ومنها: مشكلة الإجمال..٢١٨
ومنها: مشكلة المرونة في الدلالة ٢١٨
القضية الأولى: مراعاة الظهور النوعي ٢١٩
أسباب حجية الظهور النوعي..................................٢٢١
لا اعتبار لتعدد القراءات ٢٢٢
الإعتبار بزمان الصدور...٢٢٤
الالفاظ والمعاني الحقيقية.......................................٢٢٥
القضية الثانية: مراعاة المحكم والمتشابه ٢٢٦
أسباب التشابه ٢٢٨
معنيان للإحكام والتشابه..٢٢٩
ضرورة وجود التشابه...٢٣٣
القضية الثالثة: الظهور والبطون والتفسير والتأويل............٢٣٩
قواعد لتأويل الآيات..٢٤٠
التأويل المعتبر ٢٤٣
المبحث الرابع عشر: في ظهر القرآن وبطنه ٢٥٣
الحقيقة الأولى: التأويل والتجدد...............................٢٥٥
إشارات البطون..٢٥٩
الحقيقة الثانية: الروايات التفسيرية والتأويلية.................٢٦٩

المبحث الخامس عشر: كلمات في التفسير............................٢٧١
الكلمة الأولى: البحث في ذات الآية ٢٧٣
الكلمة الثانية: المنهج الدرسي وغاياته...........................٢٧٥
الكلمة الثالثة: لا غنى عن الروايات ٢٧٧
الكلمة الرابعة: التأصيل القرآني للقواعد العلميّة ٢٧٨
الكلمة الخامسة: البيان الجامع ٢٧٩
المصادر...٢٨١
الفهرس..٢٩٧